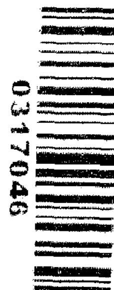


المشروع القومى للترجمة

مختارات قصصية

١٩٤٧ - ١٩٩٢





تأليف: جابرييل جارثيا ماركيث

ترجمة وتقديم: على إبراهيم على منوفى

مراجعة: صلاح فضل

246

المشروع القومى للترجمة

جابرييل جارثيا ماركيث

« مختارات قصصية »

(١٩٤٧-١٩٩٢)

تأليف

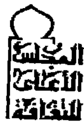
جابرييل جارثيا ماركيث

ترجمة وتقديم

على إبراهيم على منوفى

مراجعة

صلاح فضل



٢٠٠٠

مدخل

لا يجد القارئ أو الباحث صعوبة شديدة عندما يحاول الاطلاع على بعض جوانب الإبداع الأدبي – خاصة السرد القصصي الروائي والقصة القصيرة – فى أمريكا اللاتينية أيًا كانت لغة الدراسة أو الأعمال الأدبية (فقد ترجم الكثير من هذه الإبداعات القصصية إلى العديد من لغات العالم) وتتحول سهولة الاطلاع إلى الطريق الصعب عندما يلاحظ الباحث والقارئ معًا أن البحث مسلط فى الحقبة الأخيرة على الرواية الأمريكية اللاتينية – باستثناء البرازيلية – ابتداء من الأربعينيات من هذا القرن وحتى اليوم مروراً بأقصى درجات الازدهار خلال الستينيات والذى ربما يرجع إلى عوامل كثيرة منها ما يتعلق بالبنية القصصية وما طرأ عليها من تغير، ومنها ما يتعلق بالتجريب المستمر سواء على مستوى اللغة المستخدمة فى السرد أم على المستوى التقنى، ومنها الإلحاح المستمر من جانب المبدع على حقه فى ابتكار واقعه التخيّلى الخاص به وطرائقه فى سبر أغوار الواقع القريب والمعاش، ومنها التنويع الشديد فى الموضوعات التى يتم تناولها[1] هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى أشار إليها بعض الباحثين، يتعلق بعضها بسياسة دور النشر فى أمريكا اللاتينية وأسبانيا.

إلا أن هذه الوفرة فى المراجع والدراسات حول هذه الفترة تعانى فقراً واضحًا عندما يتعلق الأمر بالقصة القصيرة سواء من الناحية النظرية أو فيما يتعلق بالدراسات التى تتناول هذا الإنتاج بأبعاده المختلفة.

لكن إذا ما كان علينا أن نقارن بين القصة القصيرة فى أسبانيا – من حيث دائرة الانتشار والصعوبات الجمة التى يواجهها الكاتب الإسبانى عندما يحاول نشر مجموعة قصصية[٢] وتلك التى يواجهها واحد من الكتاب فى أمريكا اللاتينية، لفاز الثانى على الأول من حيث قلة الصعوبات وسعة دائرة الانتشار. ومع ذلك فالأمر الهام الذى لم يبرزه النقد الأوروبى حتى الآن بالشكل المطلوب، هو المكانة التى تتبوؤها القصة القصيرة فى إطار تطوّر وازدهار فن السرد القصصى فى تلك البقعة من العالم، وربما كان السبب فى ذلك سوء الفهم الذى لا يعتمد على سند من الواقع والذى يتلخص فى أنه على مدى سنوات طويلة أُريد للقصة القصيرة أن تظهر على أنها النوع الأدبى التابع، أو الجزء المكمل للرواية رغم أنها فى حقيقة الأمر لا تقوم بهذا الدور أو ذاك فهى نوع أدبى له ملامحه الخاصة يرتفع صوته مدوياً ويطالب بإعادة تصنيف المادة القصصية[٣].

القصة القصيرة فى أمريكا اللاتينية هى أوفر حظًا – رغم العقبات – عنها فى أسبانيا خصوصاً عندما نقوم بالمقارنة بينهما خلال فترة الخمسينيات والستينيات. وهذا لا يرجع إلى فقر أو قصور فى العملية الإبداعية بين الأدباء الأسبان، وإنما يرجع إلى ظروف خارجة عن إرادتهم مثل مساحات الحرية السياسية والأيديولوجية المتاحة وقلة دور النشر المستعدة لطبع المجموعات القصصية، هذا بالإضافة إلى قلة المجلات الأوروبية التى كانت مستعدة لنشر مثل هذه الأعمال الأدبية، وسيطرة الرقابة ... الخ[٤].

توجد ملاحظة أخرى متعلقة بمعالجة القصة القصيرة ضمن باب السرد القصصى بصفة عامة حيث لا يكاد أحد يتطرق لها، وإن حدث

ذلك فإننا نجد أنه من الناحية العملية مثلما توجد تيارات وتوجهات متنوعة في الرواية هناك "ترجمة لها في ميدان القصة القصيرة"(٥) ويرجع البعض هذا النوع من التداخل في المعالجة - رغم الاختلافات البنيوية بين هذا النوع الأدبي وذاك - إلى " التطور الشكلي للرواية الذي لم يتم إلا من خلال القوالب الخاصة بالقصة القصيرة، كما أن هذه الأخيرة كانت الورشة الأولى التي تعلم فيها العديد من الروائيين، إذ كان عليهم مواجهة كيفية خلق لحظة إبداعية"(٦).

نظرية القصة القصيرة

كما سبق القول هناك القليل من الإسهامات في ميدان التنظير للقصة القصيرة بصفة عامة ورغم ذلك يمكن أن نبرز ثلاثة من القصاصين من أمريكا اللاتينية عبروا إما بشكل فيه نوع من التفصيل، عن رؤيتهم وهم أوراثيوكيروجا **H.Quiraga** وخوليو كورتاثار **J.Cartazar** وإنريكي أندرسن إمبرت **E.A.Imbert**.

أ- أوراثيوكيروجا:

كانت لهذا الكاتب العملاق إسهاماته الإبداعية التي أثرت ميدان القصة القصيرة من خلال تأليف العديد منها. وفيما يتعلق بالجانب النظري يتفق الكثير من النقاد على تأثره بالملاحظات التي كتبها آلان بويه "إذ تعلم منه التقنيات التي تجعل القصة القصيرة نوعاً أدبياً مستقلاً"(٧) كما جاءت إسهاماته التنظيرية في مقالين موجزين يحمل أولهما العنوان التالي: "دليل كاتب القصة القصيرة المتكامل" أما الآخر فيحمل عنواناً مشابهاً: "الحيل التي يتبعها كاتب القصة القصيرة" ولا

يخفى على القارئ النغمة الهزلية فى العنوانين المذكورين. وربما كان أبرز ما ذكره كيروجا فى مقاليه المذكورين مشكلة بداية القصة القصيرة وأن على الكاتب المبدع حقًا أن يضع فى اعتباره أن الهدف منذ البداية هو أن يعرف المقصد الذى يرمى إليه فالكلمة الأولى يجب أن تكتب وعينها على النهاية. وهناك نقطة أخرى تتعلق بالتفاصيل فالمجال أمام كاتب القصة القصيرة ليس متسعًا مثلما هو الحال فى الرواية وبالتالى عليه أن يلجأ إلى ذلك الإيجاز المتمثل فى تلك الجماليات الحقيقية والتفاصيل التى تتضمنها قصته وبحيث تكون ضرورية. ويضاف إلى ما سبق ما يسمى "بالجو العام المصغر" الخاص بالشخصيات وأن يأخذ الكاتب بأيدى شخصياته ويظل على هذا الوضع حتى النهاية وبحيث لا ترى تلك الشخصيات أى شىء آخر إلا الطريق المرسوم لها[٨].

هناك عناصر أخرى جوهرية وهى التكثيف ورسم الشخصيات وكلها تفصح عن التأثير الفاعل للعلامة الأمريكى آلان بويه.

ب - خوليو كورتاثار:

أجرى الكثير من النقاد والصحفيين العديد من الحوارات مع كورتاثار وتحدث كثيراً وباستفاضة عن الكثير من جوانب الإبداع الأدبى سواء بالنسبة للرواية أو القصة القصير:[٩] وسوف نعرض هنا لمقال مطول نشر له أكثر من مرة بعنوان: "بعض جوانب القصة القصيرة"[١٠] وينوه فى البداية إلى أن التنظير شىء والعمل الأدبى شىء آخر "فلا يمكن لأى تعليق نظرى أن يحل محل العمل الأدبى، وأن تعليقاته النظرية ترتبط أساسًا بمفهومه عن العالم وبطبيعة إبداعه الأدبى "الواقعية السحرية" والقصة القصيرة تخلو من كل ما يعتبر إضافة أو حشواً، فلا

يمكن لكاتب القصة القصيرة أن يلجأ إلى حيلة تراكم العناصر" فالزمن ليس فى صالحه والطريق الوحيد الذى عليه أن يسلكه هو العمل فى العمق أى أخذ قطاع رأسى. كما أنه لا توجد موضوعات جيدة وغير جيدة" فإما أن تكون القصة كذلك (جيدة) أم لا. ومع هذا فالموضوع لابد أن يكون به غموض "يشع شيئًا ما يتجاوز حدوده البسيطة" ولا يمكن أن يكون للمنطوق معنى إلا إذ ربطناه "بالتكثيف والتوتر" فهذان العنصران لا يشيران إلى الموضوع فحسب بل إلى المعالجة الأدبية وإلى التقنية المستخدمة فى تطويره. وفيما يتعلق بالتناول أو المعالجة يرى أنها تكسب الموضوع رحابة تتجاوز الواقع الظاهرى، الأمر الذى تحدث تأثيره الفعال فى المتلقى. ثم يتناول بعداً آخر يمكن أن ينطبق سواء على الرواية أو القصة القصيرة ألا وهو الخاص بالقارئ ذلك "الكائن السلبى والأقل حرصاً ويقظة" فما يكتبه المؤلف ليس بالضرورة أن يستثير القراء ومن يظن هذا يكون كمن يرى ابنه جميلاً ويعتقد أن الآخرين يرونه كذلك. ومن أجل الوصول إلى التأثير فى القارئ لابد وأن تتوفر "الحرفية والمهنية" فى المؤلف والتى يتمثل أحد جوانبها فى خلق هذا الجو، الذى يشير إلى قصة عظيمة، ويدفع القارئ إلى مواصلة جهد القراءة ويملك عليه لُبّه ويعزله عما حوله ثم يعود به بعد ذلك إلى الواقع بعد أن أصبح أكثر ثراء وعمقًا أو ربما أكثر جمالاً. إنهما عنصرا التكثيف والتوتر حيث تتضافر العناصر الشكلية والتعبيرية لتعطى صورة مرئية ومسموعة أكثر أصالة ونفاذاً. ومعنى التكثيف فى القصة القصيرة "استبعاد كافة الأفكار أو المواقف الوسيطة والبعد عن الحشو أو المراحل الانتقالية التى غالبًا ما نراها فى الرواية". ويصر كورتاثار كثيراً على ضرورة المعاناة وإلا أصبحت القصة مجرد ممارسة أسلوبية ليس إلا.

د- إنريكى أندرسون إمبريت :

منذ فترة طويلة وهذا الأستاذ الجامعى والقصاص والناقد ينشر تأملاته بشأن *القصة القصيرة* (١٩٥٩) وقد جمع آخر هذه التأملات بعد تطويرها فى كتاب "القصة القصيرة: النظرية والتقنية" وهو كتاب يتضمن ثمانية عشر فصلاً يتعلق بعضها بالأدب بصفة عامة ويتعلق البعض الآخر بفن القصة القصيرة متناولاً إياه من جوانب مختلفة سواء منها ما يتعلق بالمؤلف أو *الراوى والتنويعات المختلفة للراوى وكذلك القارئ* وتصنيف وجهات النظر وموقف الراوى والحدث والحبكة وعنصر الزمن فى الأدب والأزمنة النحوية. وقد قمنا بترجمة ذلك الكتاب الذى نشر ضمن مشروع الترجمة الذى يصدر عن المجلس الأعلى للثقافة.

إطلالة على تاريخ

القصة القصيرة فى أمريكا اللاتينية

كثيرة هى الدراسات التى تتناول تاريخ الأدب فى أمريكا اللاتينية – وخاصة الإنتاج الروائى– خلال الحقبة التى أشرنا إليها سابقًا. ويختلف المنظور من دراسة لأخرى، فهناك من يتناول الإنتاج الأدبى فى كل دولة على حدة، وهناك من يأخذ فى الاعتبار العناصر الخاصة بنظرية الأجيال، وفى هذا المقام نجد أن تلك الفترة تضم فى آن واحد إسهامات "ما لا يقل عن خمسة أجيال"(١١) وهناك دراسات أخرى تتناول هذه الفترة طبقًا *للتيارات الأدبية السائدة وتفريعاتها المختلفة*. وهناك من يقوم بدراسة كل أديب على حدة متناولاً أعماله ومراحل تطورها رابطًا إياها إما بجيل أو تيار أو بلد أو حقبة زمنية معينة. والحقيقة أن العملية ليست

من السهولة بمكان فاللفظة "أمريكا اللاتينية، تعنى ببساطة إنتاج خمس وعشرين دولة وتعنى أيضًا الأدب البرازيلى. ومع هذه الكثرة هناك اختلاف بين ظروف كل دولة، ومساحة الحريات المتاحة، ومدى صلة الأديب بالواقع، ومدى إطلاعه على الثقافات الأخرى، سواء الأجنبية – وخاصة الأوروبية – أو المحلية الضاربة بجذورها فى أراضى هذه المنطقة من العالم قبل وصول الأسبانيين وباقى الجنسيات إليها. لكن هذه العقبات لا تعنى استحالة العمل على إيجاد رؤية بانورامية يمكن من خلالها الاطلاع على أبرز جوانب الإبداع الأدبى وخاصة فى دائرتى الرواية والقصة القصيرة، فكل الدراسات مهما بلغت درجة الجزئية فيها تصب فى بوتقة بانورامية رغم الصعوبات القائمة.

يتفق معظم النقاد على أن النهضة بدأت فى ميدان السرد الروائى مع عقد الأربعينيات، إذ يمكن أن يرى التغيير فى التخفى التدريجى عن الاهتمام بوصف الطبيعة والمشاهد الريفية، وكذلك بدأ هناك تباعد عن أدب الإدانة المباشرة للمشاكل الاجتماعية الأكثر إلحاحًا. لكن ما الذى كان هناك فى أمريكا اللاتينية من تيارات أدبية قبل هذا العقد التاريخى ؟ لا نريد أن نعود للوراء كثيرًا ونبدأ القصة من خلق آدم فهذا ليس مجالها لكن علينا أن نشير إلى وجود المدرسة الرومانسية والتى تمثلت إحدى ملامحها فيما يطلق عليه "لوحات العادات **Cuadros de costumbres** " حيث الوصف والتركيز عليه، الأمر الذى أدى إلى حدوث خلل فى النسيج الإبداعى. ولما كانت الرواية – نظرًا لطبيعتها – يمكن أن تستوعب هذا الخلل فقد كانت ملامحه أقل "لكنها أكثر بوضوح فى القصة القصيرة"(١٢).

وبعد الرومانسية ظهرت مدرسة أدبية أخرى هى مدرسة الحداثة **El modernismo** حيث كان هناك جيلان أسهما فى تطويره بما

فى ذلك القصة القصيرة. وأول هذين الجيلين هو ذلك الذى يتزعمه كل من خوسيه مارتى Marti .لومانويل جوتيرث ناخيرا M.G. Nagera وروبين داريو R. Dario وأمادو نربو .. A. Nervoأمل الجيل الثانى فنذكر منهم ليوبولودولوجونس L. lugones وإنريكى لويس ألبوخار E.L. Albu-jar وأوراثيوكيروجا . H. Quiroga والاطلاع على إنتاج هذا الجيل الثانى يؤكد التنوع الشديد وبالتالى يصعب تحديد التيارات والاتجاهات المتعددة التى أخذ يسير فيها هذا النوع الأدبى(١٣) القصة القصيرة – الأمر الذى يؤكد أن إرهاصات التغيير والتحديث بدأت منذ وقت مبكر وقبل عقد الأربعينيات.

ربما كان جوتيرث ناخيرا أحد الذين كانت لهم إسهاماتهم الإبداعية في هذا النوع الأدبى إذ صدرت له مجموعة قصصية بعنوان "حكايات هشّة" (١٨٨٣) ويلاحظ فيه "وجود تعليقات تصدر عن الراوى وكثرة علامات التعجب والجمل الاعتراضية التى يجرى من خلالها حوار بين الراوى والقراء الأمر الذى يطيل الخيوط الرئيسية للسرد (...) كما يلاحظ أن الراوى أحياناً أخرى يتقدم بشروح وتفسيرات قاطعة وأحياناً ما يتدخل فى الموضوع الأمر الذى يؤذى بالأسس التى تقوم عليها القصة القصيرة"(١٤) إلا أن البعد الخاص باللغة الرنانة والجزالة فى الألفاظ وسعة الخيال والثراء اللغوى غير المعهود أمام الفقر الواضح فى لغة المدرسة الطبيعية، كل ذلك كان هو الجانب الإيجابى فى هذه المدرسة ويمكن أن يرى ذلك بوضوح في اللغة التى عليها كتاب "أزرق Azul لروبين داريو الذى يتضمن عدداً من القصص القصيرة. أدت المبالغة فى هذا الجانب الإيجابى – اللغوى أدت المبالغة فيه أيضًا إلى إصابة النص بالإرهاق من كثرة الأخيلة والصور والألوان التى تظهر فى تكوينات لا نهائية.

هذه الفترة السابقة التى عاشتها القصة القصيرة خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين إنما تمثل المرحلة السابقة على مرحلة الازدهار التى أخذ السرد القصصى فى أمريكا اللاتينية يعيشها ابتداء من عقد الأربعينيات، حيث تم التخلص التدريجى من عيوب مدرسة الحداثة وأخذ الكثير من الكتاب يتباعدون عن المباشرة فى تناول الواقع ولم تعد هناك موضوعات محرمة وأخذ المبدعون يجربون أنماطًا قصصية جديدة، وكثر الاتصال بالمدارس الأوروبية والأمريكية وأخذت عيون الكتاب تطوف وتجول فى تلك الأرض الخصبة بإيحاءاتها وثقافتها الأصلية، وأصبحنا نرى أمام أعيننا "واقعية جديدة" أو "قصة جديدة". وأطلق على هذه الواقعية أحيانًا مصطلح "الواقعية السحرية" El realismo magico وهو مصطلح أطلقه فرانز روه Franz Roh عام ١٩٢٥ على أحد التوجهات الفنية اللاحقة على المدرسة التعبيرية، فهو نوع من الواقعية الجديدة التى تحاول رصد ما هو دائم، أى ماهية الواقع، على نوع من المعايشة بين الواقعية والبعد السحرى الذى يتجاوز حدود الواقع. وفى عام ١٩٤٨ أطلق الناقد A. Uslar Pietri هذا المصطلح على تيار قصصى فنزويلى فحواه الثورة على الصيغ المغرقة فى الواقعية. واعتبارًا من هذا التاريخ أصبح له انتشار غير مسبوق رغم أن تطبيقاته كان بها تعسف واضح. ورغم ذلك يمكن القول أنه يتفق مع سمات "الواقعية الجديدة" إذ تتم محاولة تجاوز الواقع وإضافة بعد آخر له "السحرى وما هو عجيب وغامض". هذا البعد الآخر يحاول رصد عناصر الواقع" الآخر" بطريقة استعارية وهو ما يمكن أن يطلق عليه ما تحت جلد الواقع، الجانب الذى أهملته المدرسة الواقعية[١٥].

وهناك مصطلح آخر هو الواقعية العجيبة Lo real maravilloso الذى استخدمه أليخو كاربينتو عندما نشر قصته "مملكة هذا العالم" عام

١٩٤٩ حيث يشير إلى وجود فوارق بين ماهية ما هو عجيب على الطريقة السريالية فى شطحاتها الأدبية والكتابة الأتوماتيكية واللجوء إلى اللاشعور وما هو عجيب على الطريقة الأمريكية اللاتينية فهو واقع من نوع خاص تشكل بعض الأحداث الغامضة والعجيبة جزءاً لا يتجزأ من نسيجه، وقد أشار جارثيا ماركيث إلى هذه النقطة فى أكثر من حوار أجرى معه وسوف نعرض له فى حينه.

وقد أشرنا سلفًا إلى أنه مهما حاول النقاد رصد بعض التيارات الأدبية فى إطار الواقعية "الواقعية الاجتماعية والواقعية النفسية والواقعية السحرية - وهى الأكثر شيوعًا بتفريعاتها وتنويعاتها المختلفة - والواقعية البنائية والاتجاهات التجريبية بما فى ذلك مضاد القصة an-tinovela ... الخ فإن من الصعوبة بمكان الإلمام الشامل بها، كما أن من طبيعة المبدعين رفض الدخول فى إطار ما يسمى بالجيل أو التيار أو الزمالة .. ربما رغبة منهم فى التميز والتفرد. إذن المحاولة لا تعدو مجرد رسم خطوط عامة ورصد ما يمكن أن يسمى بالظواهر مع الأخذ فى الاعتبار السمات المميزة لكل مبدع يدخل فى إطار هذه الظاهرة أو تلك.

القصة القصيرة عند جارثيا ماركيث

قبل أن نبدأ معالجة القصة القصيرة عند ماركيث تجدر الإشارة هنا إلى بعض آرائه وتصوراته عن الإبداع القصصى عامة ورؤيته للواقع المحيط وفكرته عن الالتزام، فهذه جميعها تسهم بشكل كبير فى إلقاء الضوء على إبداعاته فى ميدان القصة القصيرة خاصة إذا ما وضعنا فى الاعتبار وحدة العالم القصصى، بتطوراته المختلفة، سواء فى القصة القصيرة أم الرواية عند جارثيا ماركيث.

من المعروف عن ماركيث أنه كاتب له توجهه الاشتراكى مثله فى ذلك مثل معظم الكتاب فى أمريكا اللاتينية، ومن المعروف عنه أنه واحد من الذين صفقوا للثورة الكوبية ١٩٥٩، وهو صديق لفيدل كاسترو. "أريد أن يصبح العالم اشتراكيًا – يقول ماركيث – وأظن أنه سيصبح كذلك عاجلاً أم آجلاً". لكن من يقرأ العبارة التى بين الأقواس قد يخرج بنتيجة مفادها أن أدب جارثيا هو أدب "ملتزم" وهذه لفظة أدخلت عليها العديد من التنويهات. الالتزام بماذا؟ نجد لماركيث تحفظات على أدب الالتزام وخاصة ما يسمى بالرواية الاجتماعية فهو توجه لم يؤت بثمرة أو يؤدى إلى نتائج كبيرة، كما أن "الناس فى أمريكا اللاتينية ينتظرون من الرواية ما هو أكثر من فضح الاضطهاد والظلم، فهم يعرفون ذلك لدرجة الملل منه". "إن الكثير من أصدقائى النشطين سياسيًا والذين يعيشون فى إطار شعورهم بإملاء معايير الكتابة على المبدعين إنما يتخذون موقفًا رجعيًا لأنهم يضعون قيوداً على الحرية الفنية. وأعتقد أن رواية تتخذ الحب كموضوع لها نفس الأهمية التى لأية رواية أخرى، فواجب الكاتب – وواجب الثورى إن شئنا قول ذلك – هو أن يكتب بشكل جيد(١٦). أما الواقع فهو مصدر الفن لديه وهو النبع الأصيل الذى يستقى منه المبدعون أعمالهم. والواقع فى أمريكا اللاتينية يوضح لنا، من خلال الحياة اليومية، أنه ملئ بأشياء غير مألوفة، ومن هنا يمكن أن ندرك سر مقولته: "لا تحوى رواياتى سطراً واحداً لا يستند للواقع"(١٧) فوجود غير المألوف وغير المعقول – الذى لا تستطيع العقلانية الأوروبية أن ترصده – يرجع بالنسبة لجارثيا ماركيث إلى عناصر كثيرة، فالجد والجدة من جليقية (أسبانيا) كانا يرويان له حكايات كثيرة تتعلق بما هو غير مألوف فى أمريكا، وحكايات ما وراء الطبيعة من الموروثات الجليقية. ويرجع أيضًا إلى إرث إفريقى وخاصة على السواحل الكولومبية المطلة على

منطقة الكاريبى[١٨]. ويؤكد ماركيث إلى أن رحلته إلى أنجولا (١٩٧٨) كانت تجربة من أروع التجارب لديه. أضف إلى ما سبق، من جذور أسبانية وأفريقية تدخل كجزء من نسيج ذلك الواقع المشار إليه، هناك مفاهيم وعقائد السكان الأصليين فى المنطقة. كل ذلك شكل قدرة على النظر إلى الواقع بطريقة سحرية لدى السكان[١٩].

يشير مرات عديدة إلى تأثير جدته عليه فى فن القص والحبكة القصصية وتداخل وتناغم خيوط الواقع الذى لا يرصده العقل وهو الجزء الآخر أو البعد الآخر من الواقع الذى لا يمكن رصده إلا من خلال جرعة إيمانية هى جزء أساسى من وعى الإنسان بما حوله، والمكمل للعقل وما يرصده. وفى هذا المقام يلاحظ من يقرأ الإبداع السردى لهذا المؤلف – الرواية والقصة القصيرة – أنه الراوى – يرفض بشدة أن يكون العقل وحده هو المصدر الوحيد لتفسير الواقع. وربما كان ذلك مرجعه إلى تمادى بريق الفلسفة الوضعية فى أوروبا وإلى ذلك التنوع والسحر فى عالم الواقع الذى يرصده الكتاب فى أمريكا اللاتينية.

ولجارثيا ماركيث رؤية خاصة بالحوار كعنصر من عناصر تكوين العملية السردية. والملاحظ قلة الحوار – كعنصر فنى فى الكثير من أعماله، فالحوار الشفهى فى اللغة الأسبانية له وقع خاص يختلف عنه فى الكلام المكتوب "إن حواراً جيداً فى الحياة اليومية لا يكون بالضرورة جيداً فى الأعمال القصصية، لهذا قليلاً ما أستخدمه"[٢٠]. وترتبط التقنية واللغة عنده بموضوع الكتاب، فاللغة المستخدمة فى قصصه القصيرة ورواياته "ليس لدى الكولونيل من يكاتبه" و"الساعة المشئومة" والكثير من مكونات المجموعة القصصية "جنازة الأم الكبرى" تتسم بأنها لغة موجزة ومحكمة وواقعية ولا تستهدف سوى التأثير. أما اللغة فى "خريف

البطريارك" فهى فى رأيه – أكثر الروايات التى ألفها اعتماداً على الفنون الشعبية وأقربها إلى الموضوع والعبارات والأغانى التى تتردد فى منطقة الكاريبى. وهناك جمل لا يستطيع أن يفهمها سوى سائقو سيارات الأجرة (٢١).

نشرت لجارثيا ماركيث أربعة مجموعات قصصية أولاها بعنوان: "عينا كلب أزرق" وتضم إحدى عشرة قصص قصيرة يرجع تاريخ كتابتها إلى الفترة من عام ١٩٤٧ وحتى عام ١٩٥٥، أما المجموعة الثانية فتحمل العنوان التالى : "جنازة الأم الكبرى" وهو عنوان إحدى قصص المجموعة كما هو الحال فى المجموعة الأولى، لكن هذه المجموعة التى تضم ثمانى قصص كتبت كلها خلال عام ,١٩٦٢ أما المجموعة الثالثة فتحمل عنوان واحد من أطول القصص القصيرة – إن جاز ذلك التعبير – وهى الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب إيرنديرا وجدتها القاسية"، وهى تضم سبع قصص كتبت خلال الفترة من عام ١٩٦٨ وحتى عام ١٩٨٢، وهذه المجموعة تحمل عنواناً مغايراً – أى ليس له صلة بأى من العناوين التى تتضمنها : "اثنتا عشرة قصة فى ترحال"، وذلك للإشارة إلى حالة الترحال والسفر والتعديل التى تعرضت لها قصص تلك المجموعة الأخيرة وقصص أخرى لم تر النور، إذ يشير ماركيث فى تقديمه لهذه المجموعة الأخيرة – والتى ترجمنا منها أربعة من هذه القصص – إلا أنه قد دون ملاحظات لعدد أربع وستين موضوعاً. ومع ذلك "فإن فكرة كتابة هذه الموضوعات المشار إليها بشكل متوالٍ ومن خلال الالتزام بوحدة الإيقاع الداخلى والأسلوب إنما يمثل مغامرة مثيرة إذا ما تمكنت منها"(٢٢). كما يؤكد أن المجموعات الثلاث السابقة لا تربط بينها وحدة عضوية، فكل قصة مستقلة عن الأخرى ولها لحظة إبداعها الخاصة بها(٢٣). ومع ذلك فإن القصة القصيرة فى إجمالى إنتاجه

القصصى تمثل جزءًا من الوحدة العضوية لعالمه القصصى، والذى بدونه لا يمكن أن ندرك ملامح البدايات الأولى لهذا الإبداع أو المراحل المختلفة التى مر بها طوال حياته الحافلة بالثراء الإبداعى. وإذا ما كان ماركيث ينظر إلى إنتاجه القصصى كجزء من إجمالى الإنتاج القصصى لكتاب الرواية والقصة القصيرة "فليس هناك خمسة من الكتاب يكتبون خمس روايات، بل إنهم يكتبون رواية واحدة فى عدة مجلدات". فلا عجب إذن أن تكون المجموعات القصصية جزءًا من هذه القصة التى أسهم بها ماركيث فى تناول أحد جوانب الواقع المعاصر فى أمريكا اللاتينية.

ويمكننا أن نضيف إلى ما سبق جزئية بسيطة أخرى، وهى أننا نرى الكثير من الشخصيات تعاود ظهورها من جديد سواء فى هذه القصة أو تلك الرواية، وكأننا بذلك أمام عالم يتحرك فى أرجائه "أفراد أسرة واحدة يجيئون ويذهبون[٢٤] بينما تأخذ الحياة سيرها المعتاد فى ماكوندو تلك القرية الخيالية التى صورها الكاتب فى "مائة عام من العزلة".

وإذا ما كان ماركيث قد تحدث عن بعض قصصه القصيرة – الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب إيرينديدا وجدتها القاسية – ويقول بأنها "تمرينات على البيانو كوسيلة للوصول إلى الأسلوب الذى استخدمه فى الكتاب الجديد (صحيفة Triunfo - نوفمبر ١٩٧١)، فإنه يشير فى سياق آخر، وبعد ذلك بعشرين عامًا إلى أن الجهد الذى يبذل فى كتابة قصة قصيرة كبير للغاية وكأن المرء مقبل على كتابة رواية"[٢٥] إنها عملية إبداعية تأخذ فى اعتبارها كافة العناصر التقنية الخاصة بالقصة القصيرة كنوع أدبى. إلا أن الطول والقصر بالنسبة لعدد صفحات كل قصة أمر نسبى، فقد وصل عدد صفحات قصة "الحكاية العجيبة والحزينة ... " إلى ثمان وأربعين صفحة.

هناك أمر آخر يتعلق برؤية جابريل جارثيا ماركيث للقصة القصيرة. والحقيقة أنه لم يسهم بشكل مباشر فى التنظير لهذا النوع الأدبى، وأن كانت له بعض التنويهات والتلميحات التى تتناول القصة القصيرة فى سياق أحاديثه الكثيرة مع الصحفيين أو النقاد، فالقصة القصيرة عنده ليس لها عدد معين من الصفحات أو كيفية البداية أو ما هى خاتمة القصة أو التكثيف... إلى آخر تلك الملامح والمواصفات التى يرددها العديد من النقاد منذ أن نشر آلان بويه ملاحظاته عن القصة القصيرة. "فالقصة القصيرة – يقول ماركيث – ليس لها بداية ونهاية : إما أن تكون أو لا تكون. وإذا لم تأت فإن الخبرة الشخصية وخبرة الآخرين تعلمنا أنه من الأفضل بدء كتابة القصة من جديد أو تناولها من منظور آخر وإلا فإن سلة المهملات هى مآلها "[٢٦] وهو فى هذا الموقف يذكرنا برؤية أوراثيو كيروجا التى عرضنا لها قبل ذلك بشكل موجز والتى تتعلق بنظرية القصة، كما أنه – ماركيث – يتسق مع ما يردده دائمًا من معارضته وضع قواعد منظمة للكتابة أو الثبات وعدم التغيير والتجريب، فذلك معناه الموت للكاتب.

وتتسم القصص القصيرة لجارثيا ماركيث بالبساطة وعدم التعقيد فى البناء الفنى، مثلها فى ذلك مثل رواياته التى حازت شهرة واسعة – وهو فى هذا يعتبر استثناءً أو شيئًا غير عادى، إلا أن كتاباته لها تأثيرها العميق حتى قبل أن ينال هذا القسط العظيم من الشهرة.

كما أن هذه القصص تمثل لدى بعض الكتاب والنقاد المدخل لعالمه القصصى، فبعد نشر قصصه: "الورقة الذابلة" (١٩٥٥)"ليس لدى الكولونيل من يكاتبه" (١٩٦١) "والساعة المشئومة" (١٩٦٢) نشر بعد ذلك مجموعته القصصية· "جنازة الأم الكبرى" وهى مجموعة لها صلة

بالروايات الثلاث المشار إليها، كما أنها، رغم سطحيتها الظاهرية، تحوى سخرية مرة من أمومة "الأم الكبرى" ومن الخطاية والطنطنة الرسمية التى يلجأ إليها بعض الصحفيين فى كولومبيا. وتلا ذلك الشهرة التى حازتها روايته: "مائة عام من العزلة" وكان بعدها فى حاجة إلى أخذ قسط من الراحة أو البحث عن أسلوب جديد فى الكتابة من خلال التجريب والتطرق إلى أنماط قصصية مختلفة وذلك حتى يصل إلى الأسلوب الأمثل للبدء فى المشروع الضخم الذى أخذ يعد له، وهو روايته "خريف البطريارك" فكانت مجموعته "الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب ..." هى ثمرة هذا الجهد الذى فكر فى توجيهه فى البداية - إلى الأطفال، لكن لم تسر الأمور كما أراد. أما مجموعته. "اثنتا عشرة قصة فى ترحال" فهى الوحيدة التى أشار إليها على أنها المجموعة القصصية التى كان يصبو إلى كتابتها (٢٧).

هذه المختارات القصصية

تضم هذه المختارات اثنتا عشرة قصة قصيرة ثلاث منها تنسب للمجموعة الأولى: "عينا كلب أزرق" و"الإذعان الثالث" و"ليلة طيور الكروان"، وثلاث أخر تنسب إلى المجموعة القصصية الثانية وهى: "قيلولة الثلاثاء" التى يعتبرها ماركيث أفضل قصصه القصيرة على الإطلاق، و"الأمسية المدهشة التى قضاها بلتثار" و"جنازة الأم الكبرى" أما المجموعة الثالثة فقد اخترنا منها قصتين: "الموت الدائم فيما وراء الحب" وقصة "الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب إيريندىدا وجدتها القاسية". أما القصص الأربع الأخرى فقد جاءت من مجموعته القصصية "اثنتا عشرة قصة فى ترحال" على اعتبار أنها جزء من نسيج فكر فيه المؤلف

بعناية وحاول أن تكون هناك بعض الروابط بين قصص المجموعة التى تدور حول رؤية جارثيا ماركيث - أو إن شئت الدقة الراوى - للثقافة الأوروبية واعتمادها الكامل على العقل فها هم مجموعة من المصيفين من الدول الاسكندنافية الذين وصلوا إلى أحد الشواطئ فى إقليم قطالونيا (أسبانيا) لقضاء جزء من عطلة الصيف (قصة : ريح الشمال) يحاولون إجبار أحد الفتيان من ذوى الجذور الكاريبية على الذهاب معهم إلى إحدى القرى الكائنة على الشاطئ الأسبانى والتى كان قد فر منها نظرا لأن ريح الشمال تهب عليها كل عام وتصيب أهلها بالفزع وتؤدى إلى الموت دونما سبب عقلانى مقنع. الشاب يرفض وهم يصرون. رفض الشاب مؤسس على عقيدة لديه تربى عليها فى الكاريبى، أما إصرار مجموعة الشباب من السويديين والسويديات فهو مؤسس على مفاهيم عقلية محضة لا تتلاقى فى كثير أو قليل مع عقيدة الفتى، وتشير الجملة الأولى فى هذه القصة إلى النهاية المأساوية التى تتسق مع عقيدة الفتى "رأيته مره واحدة فى كباريه "بوكاكثيو" أحد الكباريهات الحديثة فى برشلونة، كان ذلك قبل ساعات من انتهاء حياته بشكل درامى".

وها هو الراوى فى قصة "الصيف السعيد للسيدة فوريس" لا يتجاوز عمره حين وقعت تلك الأحداث تسع سنوات يشير إلى أن هذه المربية التى تعاقد والده معها على مرافقته هو وأخيه فى إحدى جزر البحر الأبيض المتوسط أثناء شهر أغسطس بينما يقوم الأبوان برحلة بحرية تطوف بموانى البحر الأبيض المتوسط، هذه المربية لا تستطيع أن تدرك حالة الفزع التى أصابت الطفل الأصغر حينما رأى أحد الثعابين البحرية "أبو مرينا" معلقًا على باب المنزل وكأنه تعويذة غجرية. كما أن رفض أخى تناول هذا النوع من السمك ليس له ما يبرره - عندها - ذلك أنه كان طعام علية القوم كما أنها سمكة تمثل أحد الحيوانات الأسطورية

وبالتالى يجب أن تعامل بتقدير. كما أن الوالد يتعرض لانتقادات حادة من قبل الابن فهو "أحد كتاب منطقة الكاريبى كثير الخيلاء قليل الألمعية. وكان رماد المفاخر الأوروبية قد ملك عليه جماع عقله، كما كان ميالاً للتنكر لأصوله وجذوره سواء على صفحات كتبه أم فى الحياة اليومية، وفرض على نفسه وهمًا هو ألا يتبقى فى أبنائه أى أثر لماضيه". كما أن هذه المربية تمثل النظام الذى يصل إلى درجة من الميكانيكية القاهرة فهناك ساعات محددة لتناول الطعام والاستيقاظ من النوم والخلود إلى السرير ومشاهدة برامج معينة والجلوس على المائدة بطريقة خاصة، وقبلها السير بدون صوت مسموع، وهناك ترتيب محدد فى الأطباق التى تقدم حتى عدد مرات المضغ لكل لقمة يتناولها. كل هذا يدخل فى صراع وتعارض مع مفاهيم سائدة فى الكاريبى ويدخل أيضًا فى صراع مع عقليات نشء فى طور التكوين.

أما البعد الآخر للجو العام الذى يربط بين قصص المجموعة الأخيرة فهو نقد – أحيانًا مباشر وأخرى غير مباشر– للأنظمة السياسية فى أمريكا اللاتينية وأسبانيا، خاصة فترة حكم الجنرال فرانكو. ففى قصته : "رحلة طيبة يا سيدى الرئيس" يتناول البعد الإنسانى لحياة هؤلاء اللاجئين من أبناء الكاريبى فى أوروبا وحياة العوز والفقر وشغلهم للوظائف الهامشية فى المجتمع الأوروبى وحياة أناس آخرين هم أولئك الرؤساء الذى خلقتهم أنظمة أخرى أكثر طغيانًا. هؤلاء المخلوعين لا يصلحون لأى شىء فى الحياة حتى لشغل منصب الرئاسة، لكن إذا سمحت لهم الفرصة سوف يعودون لممارسة الدور الذى فشلوا فى القيام به، فها هو الرئيس السابق يبعث برسالة إلى "هومير وزوجته لاثارا" من بنى وطنه اللّذين ساعداه فى لحظات مرهفة يخبرهم فيها وقد بلغ الخامسة والسبعين "أنه يرغب فى العودة إلى بلاده ليكون على رأس

حركة تجديد فى سبيل قضية عادلة ووطن أهل للكفاح من أجله"... إنه نوع من التفاخر التعس بأنه لم يمت فى سريره وإنما وافته المنية وهو يكافح فى سبيل قضية "عادلة".

وهناك خيط آخر يسير ليس بشكل موازٍ ولكنه جزء من نسيج القصة ألا وهو ما عليه أهل الكاريبى وأهل الشرق من إيمان بقراءة الطالع سواء على الطريقة الشرقية، قراءة الفنجان أو اللجوء إلى فتح "الكوتشينة"، أو إلى غير ذلك من وسائل قراءة المستقبل يستوى فى ذلك من كان رئيس دولة ومن هو من عامة الشعب "لاثارا" التى تمارس تلك المهنة خاصة مع علية القوم بحثًا عن لقمة العيش.

أما قصته: "جئت لأتصل بالتليفون فقط" فهى سيدة من أصل مكسيكى تعيش فى أسبانيا وتتعطل سيارة الأجرة التى كانت تقودها متجهة بها إلى برشلونة "ذات مساء ممطر من أمسيات الربيع" وتحاول العثور على وسيلة للاتصال بزوجها فتعثر على أوتوبيس خاص ملىء بسيدات يتم اقتيادهن إلى مستشفى للأمراض العقلية وسط الغابات وهو مبنى كان ديراً فى الأصل، فتعامل على أنها واحدة من نزيلات المستشفى، وتحاول بكل جهدها التخلص من هذا العذاب وتلك المعاملة، وتتمكن من الاتصال بزوجها بالتليفون فيحضر لكنه لا يستطيع إخراجها فقد أقنعه مدير المستشفى بأنها مجنونة وعندها هوس بالتليفون والبحث عنه للخلاص، وعند ذلك تحدث القطيعة الفعلية بينهما فقد انضم بذلك إلى صفوف القهر والظلم والطاغوت التى لا يصلح معه أى شىء من محاولات التجميل مثل ذهاب الزوج كل يوم سبت للتسرية عن النزيلات من خلال ألعابه البهلوانية. فالكارثة أكبر من محاولة تجميلها أو البحث عن الأسباب الموضوعية - ظاهريًا - التى تعلن عن وجودها ولا يصلح أى شىء معها إلا زوالها.

وإذا كانت قصص ماركيث تتسم بالبساطة فهى غالبًا بساطة ظاهرية تحوى فى داخلها رموزًا معينة وواضحة، فهذه القصة "جئت لأتصل بالتليفون فقط" تبدأ بتلك العبارة "ذات مساء ممطر من أمسيات الربيع، وعندما كانت تسافر وحدها وهى تقود سيارة مستأجرة تعرضت سيارة ماريا لويث ثربانتس لعطل فى صحراء "مونيغروس" فهل ذلك المساء الممطر من أمسيات الربيع يعنى إشارة واضحة الظروف إلى التى سبقت الانقلاب العسكرى الذى قاده الجنرال الراحل فرانكو ضد الجمهورية الثانية التى علق عليها الكثير من عامة الشعب الأسبانى آمالاً عريضة للخروج من الأزمة السياسية والاقتصادية التى عاشتها البلاد فى أواخر أيام ألفونسو الثالث عشر؟ وهل العطل الذى أصاب السيارة هو ذلك الانقلاب؟ كما أن الدير الذى تم تحويله إلى مستشفى للأمراض العقلية هل كان يمثل النظام الفرنكوى وبالتالى لم يكن هناك من حل إلا ذهابه وتحول البلاد إلى الحياة الديمقراطية بعد أن ترك النظام ندباً وجروحًا غائرة؟

إن المتأمل لكل أو لأغلب الإنتاج القصصى لماركيث سوف يجد صراعًا دائرًا بين عنصرين فيهما إما تضاد كامل أو شبه كامل، فها هى العقلية الأوروبية التى تعتمد على العقل كسبيل وحيد لتفسير كل شىء والتى تدخل فى صراع مع عقلية أخرى ترى العقل ضروريًا لكن ليس الطريق الوحيد لفهم كل ما يدور وتفسير جوهره. هناك صراع بين قوى الطغيان وقوى الحرية. هناك صراع بين الأغنياء والفقراء بين الفن والمادية، بين لحظة المخاض الغنى والحاجة اليومية للوفاء بلقمة العيش. فها هى قصة "الأمسية المدهشة التى قضاها بلتثار" تعكس لنا تلك الصراعات. إن أحداثها تدور فى فترة زمنية لا تتعدى الثمانية عشرة ساعة ابتداء من الانتهاء من صناعة "إبداع" أعظم وأجمل قفص للطيور

فى العالم. ويتم استخدام عنصر الزمن هنا بطريقة تقليدية. ينتهى بلتثار من صناعة القفص بعد أن قضى خمسة عشر يومًا يسهم فيها كثيرًا فى إنجاز هذا الإبداع الفنى ولم يحلق ذقنه ولم يكن ينام بطريقة طبيعية. وإذا كانت زوجته مغتاظة لأنه أهمل العمل فى الورشة من أجل كسب لقمة العيش، فقد ذهب عنها الكدر فها هى القرية كلها تتحدث عن ذلك الإبداع الفنى العظيم وها هى الناس تتوافد من كافة أرجاء القرية لمشاهدة هذه التحفة الفنية. هذا هو نوع من الرضا الداخلى الذى سرعان ما ترجمته بمفاهيمها العملية إلى محاولة للبحث عن الرخاء المادى، فعندما سألت زوجها "كم ستطلب ثمنًا له؟ قال: لست أدرى سوف أطلب ثلاثين بيزو وذلك حتى يعطونى عشرين. فردت عليه: عليك أن تطلب خمسين فلقد سهرت ليال طويلة خلال هذين الأسبوعين، كما أن القفص كبير وأعتقد أنه أكبر قفص رأيته فى حياتى". ليست انتهازية، ولكنها محاولة للخروج من عنق الزجاجة مثلما كان يتخيل بلتثار عندما ذهب فى المساء إلى البار بعد أن سلم القفص لابن "شيبى مونتيل" دون مقابل، وأخذ يحلم وهو برفقة الصحاب والجيران بأنه سوف يقوم بصناعة أقفاص كثيرة وجميلة ويبيعها للأغنياء ليستولى على شىء من أموالهم ويصبح هو الآخر بدوره غنيًا. كان الجميع يحيطون به على أساس أنه يمثل الأمل فى الخروج من وهدة الفقر والعوز والانتقام من الأغنياء الذين فقدوا الإحساس بالحياة وبمن حولهم. شيبى مونتيل ممنوع بأمر الأطباء من الانفعال - هذه ليست حياة - وهو حريص بشكل يجعله ينام القيلولة دون استخدام المروحة الكهربائية لا لتوفير الطاقة الكهربائية بل لما هو أخطر من ذلك وهو ألا يغيب عن سمعه أى شىء مما يحدث فى المنزل. لا يرضخ أبدًا أمام تلهف ابنه على ملكية أجمل قفص فى العالم، وعندما يترك بلتثار القفص للطفل بلا مقابل،

وخجلاً منه يحتج ذلك الغنى بقوله متعجبًا : "ما كان ينقصنى هو أن يأتى أى واحد ويصدر أوامره فى منزلى". هذا الغنى كان عليه أن يرعى الفن ولم يفعل ، كان عليه أن يكون على مستوى المسئولية نحو الآخرين ولم يفعل، أما بلتثار – فقد أخذته العزة، ودعا رفاقه إلى تناول البيرة وإلى سماع جهاز الموسيقى لمدة ساعتين. ولما لم يكن معه من النقود ما يكفى، استدان وترك ساعته رهنًا ، وظل فى البار حتى ساعة متأخرة من الليل وقد انفض عنه الصحاب، وبينما هو متوجه إلى المنزل ويسير مترنحًا شعر بمن يحاول أن ينتزعه من حذاءه وكأن البشر تحولوا إلى جوارح تلتهم الجيف، ومع ذلك لم يشأ أن ينسى أجمل حلم فى حياته ألا وهو الحلم بالتميز وتقدير المجتمع والعيش فى بحبوحة.

وإذا كانت الفئة الاجتماعية التى ينسب إليها خوسيه مونتيل تعيش حالة استنفار من الفقر والفقراء وبعداً عن الحياة وخوفًا على أموالهم، فإن الطبيب المثقف يقف عاجزًا أمام الوفاء بما وعد به زوجته بالحصول على القفص فهو لا يملك الكثير من المال مثل خوسيه مونتيل لكنه رجل يقدر الفن وأهله كثيراً، فقد أطرى على القفص لدرجة أنه قال: "يكفى أن يوضع القفص وسط الأشجار ليغنى" وأطرى على بلتثار قائلاً : "كان من الممكن أن تكون مهندساً بارعًا"

ولقد صور الراوى استحالة حصول الطبيب على القفص وأنه لم يرض بغيره بديلاً وإن فقده، بأن أخذ "يجفف عرق رقبته مستخدمًا منديلاً وهو يتأمل القفص فى صمت ودون أن يحرك ناظريه عن نقطة محددة كأنه إنسان يتأمل سفينة أخذت طريق السفر".

عندما يقوم ماركيث برسم ملامح الشخصيات يلجأ إلى ما هو ضرورى للغاية وذلك بغية خدمة الهدف المقصود، هذه الطريقة ضرورة

ملحة فى القصة القصيرة نظراً لأن الإيجاز والتكثيف من السمات الرئيسية لها. وقد رأينا رسم ملامح الشخصيات فى القصة التى أشرنا إليها، ويمكن أن نراه بوضوح أيضاً فى قصته "قيلولة الثلاثاء" فالمرأة يبدو أنها طاعنة فى السن وذلك لبروز "العروق الزرقاء فى منطقة الحواجب وفى أجزاء مختلفة من جسدها الصغير الطرى الذى لا تتضح معالمه" فهى عبارة عن كتلة صغيرة ليس بها أية جماليات. هذه هى الأوصاف الجسدية، أما الملبس فهو شديد البساطة عبارة عن "فستان يشبه ملابس القساوسة" أما ملامح الفقر البادية على الشخصية فقد تمثلت فى شنطة صغيرة من الجلد اللامع وقد تقشرت. إنها امرأة هادئة مثل هؤلاء الناس الذين تعودوا على الفقر، تركب عربة الدرجة الثالثة التى تجرها قاطرة تنفث دخانها المليء بذرات الفحم التى تدخل من نوافذ عربة القطار. طعامها قطعة من الجبن ونصف فطيرة من فطائر الذرة وقطعة بسكويت مسكرة. تمسح عرق وجهها بمسحة بأصابعها. لكنها شخصية قوية لها فلسفتها فى الحياة قامت بهذه الرحلة كنوع من تكريم ابنها الذى أصيب بطلق نارى وهو يحاول أن يسرق أحد المنازل فى تلك القرية بعد أن أعيته الحيل فى الحصول على لقمة العيش بطريقة شريفة. لم يكن الابن يفعل فى نظرها إلا الواجب المنوط به نحو إعالة أسرته رغم تعارض ذلك مع القوانين والأخلاقيات التى يخفى عليها رجال الدين. وأمام هذا الموقف استطاعت الأم بمفردها أن تواجه كافة أهل القرية التى لم يذكر جارثيا ماركيث اسمها فهى مثل كل القرى بأنماط مبانيها وما فى داخلها من أثاث.

بقى لنا أن نشير إلى بعد آخر من الأبعاد التى تتجلى فى السرد القصصى لجابريل جارثيا ماركيث. ويمكن أن نذكر نموذجاً لها فى "الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب إيريندىدا وجدتها القاسية"، فرغم

أن القصة طويلة إذ تبلغ فى بعض طبعاتها ثمان وأربعين صفحة فإن العبارة الأولى تفصح عن فحوى ما سيدور على سطورها. كما لوحظ انتقال الراوى فجأة من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم فى مرحلة معينة من مراحل سرد هذه القصة. فالبعد الأسطورى يكاد يغزو كل شيء فيها، فالجدة قاسية القلب لدرجة لا تصدق، وهى ضخمة الجثة كأنها سبع البحر "يسبح فى حمام من الرخام" والحفيدة إيريندىدا لها قدرة عجيبة على أن تسحر البشر كافة بجاذبيتها الجنسية وهى قادرة على أن تنادى بأعلى صوتها الداخلى فيسمعها البطل - عليس - وهو على بعد كيلو مترات منها، وهى قادرة على أن تضاجع آلاف الرجال إلا أنها تحتفظ بطهارة القلب. الجدة هى تلك المرأة التى عندما تصارع البطل عليس يخرج الدم منها بلون أخضر - شيء لا يصدق - هى أيضًا "السيدة" أو "الهانم" - إن صح القول - وذلك فى إشارة واضحة إلى تأثير قصص الفروسية فى أوروبا العصور الوسطى وخاصة القصة الأسبانية "أماديس دى جَولاَ" حتى زوجها كان اسمه "أماديس" تبلغ درجة الأسطورية فيها أن الفتاة تنام وهى تمشى، وتؤدى بعض الأعمال المنزلية. هذه الفتاة لها قدرة عجيبة على تفسير الأحلام التى تلعب هنا دورًا هامًا فى استحضار الماضى البعيد خاصة تلك التى تحلم بها الجدة، وكذلك فى التنبؤ بالمستقبل، وليس هذا فقط بل هناك وصل حميم بين حياة الوعى وحياة اللاوعى، فكلاهما مكمل للآخر، فعلاقات النوم عند الجدة هى أنها تبدأ تتحدث بصوت عال عن أمور حدثت وتحدث وسوف تحدث. هناك أيضًا عالم المهربين والقدرة العجيبة على زراعة برتقال به قطع الملس، والمنزل المليء بالساعات التى كانت فى حاجة إلى ما لا يقل عن ست ساعات لضبطها وملئها.

إنها قصة تعكس تناغمًا عجيبًا بين عناصر الواقع سواء الممكنة الحدوث أو المستعصية.. وتناغمًا عجيبًا فيه بساطة مثيرة بين تأثير الثقافة الأسبانية والأوروبية والثقافة المحلية وهضمها كلها وإخراج عمل ينطق بأصالة الإبداع الذى هو السر الأساسى - بالإضافة إلى عناصر أخرى - فى تلك الشهرة التى طبقت الآفاق والتى استحقها عن جدارة ماركيث إلى جوار كتاب آخرين من أبناء أمريكا اللاتينية.

هوامش:

1- Galvez - Marina "H. critica de la lite. Hispanica" (33)
Taurus - Madrid 1992 - pags 51 - 52 - 53 - 54

2- د. على إبراهيم منوفى، "القصة القصيرة فى أسبانيا خلال فترة ما بعد الحرب الأهلية - مكتب الحسينى - القاهرة - ,١٩٩٥

3- P Walker Enrique Pupo
La trayectoria Y significacion del cuento Hispanamericano
- (El cuente Hispano. Ante la critica. Castalia Madrid p 1981
pags 9 - 10.

4- Martinez cachero J.Ma -
Historia de la novela espanola entre 1936 y 1975
Castalic- Madrid pag. 198 y ss.

5- Galvez - Marina op cit pag 17

6- W.E Epupo op. cit. pag 11

7- Alazraki - Jaime "Relectura de H. Q. (el cuento H. ante la critica op. cit pag 64.

8- Valcarlal - Carmen de Mora enlas.
" Teoria y practica del cuento relatos ds Julio Cortazar..
Escuela de estudios hispano americanas (C.S.IC.)
Sevilla 1982 pag 23 ys.

9- Par ej : Bermejo , Ernesto Gonzalez
Conversacianes con cortazar
Editoial Hermes - Mexico 1978

10- Cortazar Julio
"Algunas aspectos del cuento"
Cuadernos Hispano- americanos n- 255
Marzo 197 - page 403 - 416

11- Galvez - Marina, op. cit. Pag 14 y 15

12- W. E. pupo op. cit. Pag 10

-13 Munoz Antonia "Notas Sobre Los rasgos formales del cuento modernista. El cuento hispano americana ante la critica" op. cit pag. 53

-14 Ibid pag 54

-15 Galvez - Marina op. cit. Pag 150 - 151

-16 د. حامد أبو أحمد، "قراءات فى أدب أسبانيا وأمريكا اللاتينية" عرض تلخيص لتلك التوجهات فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٣ - ص ١٧١ والصفحات التى تليها.

-17 "جابريل جارثيا ماركيث" ترجمة إبراهيم وصفى - طلامس للدراسات والترجمة والنشر - دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٦ ص ١٢٦ (ملاحظة) قمنا بنقل النص المترجم بتصرف.

-18 نفس المصدر ص ٧٧

-19 نفس المصدر ص ١١١ - ١١٣

-20 نفس المصدر ص ٧١

-21 نفس المصدر ص ٧١

-22 Doce Cuentes peregrinos - Mondadori Barcelona - Segunda edicion 1992 pag 14

-23 Ibid pag 14

-24 Alazraki J. op. cit. Pag 66

-25 Doce Cuentes .. op. cit pag. 14

-26 Ibid pag 15

-27 Ibid pag 15

الإذعان الثالث

(١٩٤٧)

ها هو ذلك الضجيج مرة أخرى، إنه الضجيج البارد والقاطع والرأسى الذى يعرفه كثيرًا، غير أنه جاء هذه المرة أكثر حدة وألمًا وكأنه، بعد انقطاعه عدة أيام، بدا وهو غير معتاد عليه.

كان الضجيج يطوف فى أرجاء الجمجمة بصوت واخذ ومكتوم. كأنه خلية نحل وضعت بين الجدران الأربعة لرأسه. يزداد الضجيج ويعلو فى أشكال حلزونية متتابعة، ويضربه بعنف لدرجة تهتز معها فقرات عمود الظهر اهتزازًا غير منتظم وغير متسق مع الإيقاع الطبيعى لجسده. لقد اختل شىء ما فى هيكله كإنسان ثابت البنيان. وهذا الشىء كان يؤدى عمله بانتظام "فى المرات السابقة" إلا أنه يدق الرأس من الداخل بعنف بضربات قوية ومكتومة من خلال عظام يد هيكل عظمى، وكأنه يذكره بكافة منغصات الحياة.

واتته الرغبة الغريزية فى إطباق قبضتى يديه والضغط على الصدغين اللذين تبرز منهما الشرايين الزرقاء والمحمرة بدرجة تتوافق مع ضغط الأمل الذى لا يتوقف. كم كان بوده أن يمسك بكفى يديه ذلك الضجيج الذى كان يحفز اللحظة مستخدمًا إبرة حفر ماسية. وصدرت عنه حركة كأنه قط

أليف انكمشت عضلاته عندما تصوره، وكأن أركان دماغه الساخنة والمفزوعة تطارده. كان سيمسك به. لا. كان جلد الضجيج ناعمًا لا يكاد يُحسّ. إلا أنه على استعداد للسيطرة عليه مستخدمًا استراتيجيته التى تعلمها جيدًا والضغط عليه طويلاً وبشكل حاسم كأنه إنسان فقد الأمل، ولن يسمح للضجيج أن يدخل مرة أخرى عبر أذنيه. وأن يخرج من فمه ومن كل مسامه أو من عينيه اللتين قد تهتزان بشدة عند خروجه، وربما تفقدان الرؤية وهما تحدقان فى هروب الضجيج من أعماق ظلمته الكثيبة. لن يسمح له بالاستمرار فى الضغط بعنف على زجاج العين المطحون، وعلى البريق الصادر عنها وعلى الجدار الداخلى للجمجمة. هكذا كان ذلك الضجيج، لا يتوقف وكأنه طفل يضرب رأسه فى حائط أسمنتى، مثله فى ذلك مثل تلك الضربات الموجعة التى توجه ضد المكونات الثابتة فى الطبيعة. لكنه لن يخيفه مرة أخرى إذا ما استطاع حصاره وعزله. ثم تقليص تأثيره والضغط عليه هذه المرة بشكل حاسم. وبعد ذلك يقوم بكل ما أوتى من قوة بالإلقاء به على البلاط، وأن يطأه برجليه بعنف حتى لا يستطيع الحراك حقيقة، ثم يقول وهو يلهث إنه استطاع قتل الضجيج الذى كان يؤرقه ويصيبه بالجنون، وها هو الآن مُلقى على الأرض كأنه شيء مهمل مات موتًا كاملاً.

لكن كان من المستحيل عليه أن يضغط على صدغيه، إذ انكمش ذراعاه حتى أصبحا ذراعى قزم. هما ذراعان ممتلآن

صغيران. حاول أن ينفض رأسه فتمكن من ذلك وعندئذ ظهر الضجيج بمزيد من القوة داخل الجمجمة التى تصلبت وكبر حجمها وأصبحت ثقيلة جداً بفضل قوة الجاذبية. كان ذلك الضجيج قويًا وثقيلاً لدرجة أنه إذا ما تمكن منه وقضى عليه فكأنه يقوم بنزع أوراق وردة من رصاص.

كان يشعر بذلك الضجيج "فى المرات السابقة" بنفس الإلحاح، مثلما حدث له يوم أن مات لأول مرة، عندما رأى الجثة وأدرك أنها جثته.

أحس بأنه غير ملموس، ولا يحتل حيزاً، وغير موجود. كان جثة بالفعل، وكان يشعر بمرور الوقت على جسده الشاب السقيم. ازدادت وطأة الجو المخيم فى المنزل كله كأنه امتلأ بالأسمنت عن آخره. وفى وسط هذه الكتلة - التى ترك فيها الأشياء وكأنه جو ملىء بالهواء - كان موضوعًا هناك بعناية داخل التابوت الأسمنتى الصلب والشفاف. كان "ذلك الضجيج" فى تلك المرة داخل رأسه. يشعر آنذاك بأن باطن قدميه بعيدتان وباردتان. وفى الجانب الآخر من التابوت توجد مخدة، ذلك أن الصندوق كان لا يزال كبيراً عليه وكان من المناسب ملاءمة وضع الجسد الميت لملبسه الجديد والأخير. لقد لفوه بالقماش الأبيض وربطوا فكه لرأسه بواسطة منديل، يشعر بأنه وسيم وهو ملفوف فى كفنه، بدرجة مميتة.

كان مسجّى فى نفسه ومجهزًا للدفن، ومع ذلك كان يعرف أنه لم يكن ميـتًا، وإذا حاول النهوض لاستطاع ذلك بـكل سهولة ولو بشكل "روحى" لكـن لم يكن الأمـر يستـحق، إذ كـان من الأفضل أن يتـرك نفسه ليـموت هناك، يمـوت "بالموت" إذ كان ذلك داءه. لقد قالها الطبيب مباشرة لوالدته منذ زمن :

– سيـدتى : إن طفلك مريض بداء خطيـر : إنه ميت، ثم واصل قائلاً، لكن سنفـعل كل ما فى وسعنا للحفـاظ على حياته فيما بعد الموت، وسوف نتمكن من أن تستمر وظائفه العضوية من خلال نظام معقـد للتغذية الذاتية، وما سوف يتـغير فقط هو تلك الوظائف الدافعة أى الحركة الطبيعية، سوف نعرف مسار حياته من خلال النمـو الذى سيسـير فى طريقه المعـتاد، إنه مجـرد "موت حى" هو موت فعلى وحقيقى.

كان يتذكر الكلمات ولكن بشكل فيه إبهام، وربما لم يسمع هذه الكلمات أبدًا ولم تكن إلا بدعًا من وحى خياله عندما ترتفع حرارة جسمه بسبب حمى التيفود.

أى عندمـا يلفـه الهـذيان، وعنـدمـا يقـرأ تاريخ الفـراعنة المحنطين، وعندما ترتفع حرارته، كان يشعر بأنه بطلها، وفى هذه المرة بدأ يعترى حياته نوع من الفـراغ. وعندها لم يكن باستطاعته تمييز أو تذكر ماهية الأحداث التى تنسب إلى حالة الهذيان وماهية الأحداث التى تنسب لحـياته العقليـة، ولهذا داخله شك فى هذه

اللحظة، فربما لم يتحدث الطبيب أبدًا عن هذا "الموت الحى" الغريب. إنه غير منطقى وغير متسق، أى ببساطة ملىء بالتناقض، وهذا ما جعله يشك فى أنه ميت بالفعل وكان موته منذ ثمانية عشر عامًا.

ومنذ تلك اللحظة - كان يبلغ السابعة عندما توفى - أمر أمه بأن تصنع له تابوتًا صغيرًا من الخشب الأخضر، أى تابوت لطفل، غير أن الطبيب أمر بأن يصنع صندوق أكبر حجمًا يتسع لجسد إنسان بالغ. ذلك أن التابوت الصغير يمكن أن يعوق النمو، ويصبح ميتًا معوجًا أو حيًا غير طبيعى - أو لأن إيقاف النمو سوف يحول دون ملاحظة التحسن. فما كان من الأم إلا العمل بالنصيحة واللجوء إلى صناعة صندوق خشبى كبير يصلح لجثة شاب بالغ ووضعت فيه ثلاث مخدات عند القدمين لملء الفراغ الموجود.

وسرعان ما بدأ نموه داخل الصندوق لدرجة أنه كلما مر عام كانت المخدات تُفرغ من بعض ما بها من الحشو لإيجاد مساحة للنمو. قضى وهو على هذا الحال أعوامًا كثيرة، ثمانية عشر عامًا (كان عمره الآن خمسة وعشرون عامًا)، ووصل نموه إلى طول قامته الطبيعى، لقد أخطأ الطبيب والنجار فى تقديريهما وبالتالى كان التابوت كبيرًا بحوالى نصف متر عن المطلوب، إذ تصوروا أن قامته ستكون مثل قامة والده الذى كان يشبه العملاق، لكن لم

يكن كذلك، فالشيء الوحيد الذى ورثه عنه هو أنه كث اللحية. كانت لحيته زرقاء غزيرة واعتادت أمه أن تحلقها له حتى تراه بشكل جميل وهو فى تابوته. كانت تلك اللحية الزرقاء تضايقه بشدة أيام القيظ.

لكن كان هناك أمر آخر يزيد من قلقه: إنه ذلك الضجيج، إنها الفئران. فمنذ طفولته كانت الفئران من أشد الحيوانات التى تثير فزعه. كانت تلك الحيوانات القذرة قد جاءت تتحسس رائحة احتراق الشمع الموضوع عند قدميه، وقرضت ثيابه، وكان يعرف أنها سرعان ما ستقرضه هو وتأكل جسده، تمكن من رؤيتها ذات يوم. كانت خمسة فئران مليئة بالحياة، ناعمة الملمس، تصعد إلى التابوت من خلال أرجل المائدة وتأخذ فى التهامه، وعندما ستدرى والدته بما يجرى فلن يتبقى منه إلا البقايا والعظام الجامدة والباردة.

وأكثر ما يثير فزعه لم يكن التهام الفئران له، فسوف يظل يعيش من خلال هيكله، بل إنه الفزع الغريزى الذى كان يشعر به تجاه تلك الحيوانات الصغيرة. كان يقشعر جلده لمجرد التفكير فى هذه المخلوقات غزيرة الشعر التى تصول فى أنحاء جسده وتسرى فى جلده وتلمس شفتيه بقوادمها الباردة. وقد وصل أحدها إلى أهدابه وحاول قرض القرنية، رآه ضخمًا وفظيعًا وهو يحاول جاهداً أن يقرض شبكية العين. وعندئذ اعتقد موتًا جديداً واستسلم بالكامل لوشوك السقوط.

تذكر أنه قد وصل سن البلوغ، فقد أصبح عمره خمسة وعشرين عامًا، وكان هذا يعنى أنه لن ينمو أكثر من ذلك، وأصبحت ملامحه ثابتة وجادة، لكن عندما يشفى فقد لا يتمكن من الحديث عن طفولته، لم يعش طفولته. . فقد قضاها ميتًا.

كان اهتمام الأم به بالغاً خلال المرحلة الانتقالية من الطفولة إلى اليفاعة. إذ اهتمت بنظافة التابوت والحجرة نظافة كاملة، فكانت تغير الزهور فى المزهريات وتفتح النوافذ كل يوم ليدخل الهواء الرطب. ويا له من رضا يعتلى وجهها عندما كانت تراجع المقاس، فبعد كل مرة يتضح لها أنه نما عدة سنتيمترات . كان يظهر عليها رضا الأمومة عندما تعرف أنه حى، واهتمت أيضًا بألا يكون هناك غرباء فى المنزل. إذ كان من الغريب، وغير المناسب، أن يكون هناك ميت موضوع فى حجرة منزل لأعوام طويلة. كانت امرأة متفانية، لكن سرعان ما أخذت تشعر بشبوط الهمة. فقد رآها فى الأعوام الأخيرة وهى تنظر بتعاسة إلى شريط المقاس، فطفلها لم يعد ينمو. ولم يطرأ أى تغيير على نموه خلال الشهور التالية. كانت أمه تدرك أنه من الصعب عليها فى هذه اللحظة مراقبة الحياة فى ميتها العزيز. كانت تخشى أن تصحو ذات يوم وقد أصبح ميتًا "بالفعل" . وربما لهذا السبب استطاع رؤيتها وهى تقترب من التابوت بحرص وتشم رائحة جسده. كانت قد أخذت تعيش أزمة إحساس بالتعاسة، ففى الفترة الأخيرة

لم تعد تهتم به لدرجة أنها لم تكن تقيس الجثة، إذ عرفت أنه لن ينمو كثيراً.

كان يعرف أنه مات "بالفعل" ويدرك ذلك من خلال ذلك الهدوء الذى يلف جسده. تغير كل شىء بشكل غير ملائم، فالنبض الواهن الذى كان يشعر به قد ذهب الآن وكان يشعر بالثقل وأن هناك قوة تناديه بشدة وتجذبه إلى المواد الأولية للأرض. بدت قوة الجاذبية أن تأثيرها الآن لا مناص منه، كان ثقيلاً كأنه جثة قائمة لا تدحض غير أنه كان أكثر راحة فى هذا الوضع لدرجة أنه لم يكن عليه أن يتنفس ليعيش موته.

وعبر الخيال ودون أن يلمس نفسه تحسس أعضاء جسده واحداً واحداً، كانت رأسه هناك ترقد على مخدة غير طرية، وقد مالت إلى اليسار قليلاً. تصور فمه وهو مفتوح بعض الشىء بسبب التيار الخفيف البارد الذى يملأ حنجرته بحبات الثلج. كان مشقوقاً كأنه شجرة عمرها خمسة وعشرون عاماً. وربما حاول إقفال فمه. فقد انحل قليلاً رباط المنديل الذى يحيط بفكه. لم يتمكن من وضع نفسه جيداً أو اتخاذ "وضع" بحيث يبدو ميتاً مهندم الشكل. فالعضلات والأعضاء لم تعد تستجيب بدقة لنداء جهازه العصبى. لم يكن ذلك الطفل الذى كان منذ ثمانية عشر عامًا حيث كان يتحرك بالشكل الذى يرتضيه. شعر بذراعيه ملقيين بشكل أبدى وملتصقتين بحوائط التابوت المبطنة، أما بطنه

فقد تصلبت كأنها لحاء شجرة جوز. وها هى هناك ساقاه كاملتان كأنهما مؤشر على وصوله إلى سن البلوغ. كان جسده مسجى يملؤه ثقل، غير أنه لا تبدو عليه علامات الضيق، وكأن الدنيا توقفت فجأة، ولم يقم أحد بكسر حاجز الصمت. كأن كل رئتين على ظهر الأرض قد توقفتا عن التنفس حتى لا تعكر الهدوء الناعم للهواء. كان يشعر بالسعادة كأنه طفل استلقى على ظهره فوق الحشائش الغضة والكثيفة، وأخذ يتأمل سحابة وهى تمر مبتعدة عبر سماء ما بعد الظهيرة.. كان سعيداً رغم أنه كان يدرك أنه ميت وأنه مسجى بشكل أبدى فى الصندوق المغطى بالحرير الصناعى. كان يشعر بشفافية كبيرة. لم يكن مثل الحالة السابقة، بعد موته الأول، حيث كان يشعر بأنه فى علبة وأنه فظ. الشموع الأربعة التى أشعلوها من أجله والتى كانت تتغير كل ثلاثة أشهر أخذت تتآكل وتخبو وخاصة عندما لم تعد لها جدوى. شعر بأنه بجوار أزهار البنفسج الرطبة التى وضعتها أمه ذلك الصباح، شعر بتلك الرطوبة فى الورود وفى أزهار السوسن.

لكن هذه الحقيقة الرهيبة لم تجعله يشعر بأى قلق، بل على العكس، كان يشعر بالسعادة هناك وهو وحده مع وحدته. أما شعر بالخوف بعد ذلك؟

من يدرى؟ كان من الصعب التفكير فى نفس اللحظة التى كان القادوم يهوى فيها على المسامير لتدخل فى الخشب الأخضر

فيزداد حفيف التابوت على أمل يقينى بأن يصبح من جديد شجرة خضراء. جسده الآن مشدود بقوة لنداء الأرض. فسوف يوارى فى حفرة رطبة وطينية وطرية وفوقه سوف تكون هناك أربعة أمتار مكعبة ثم يقوم اللحادون بالدمدمة. لا. هناك لن يشعر بالخوف، فذلك هو استمرار لموته وهو الاستمرار الأكثر طبيعية لحالته الجديدة.

لن تتبقى فى جسده أية حرارة فسوف يعترى البرد الأبدى نخاعه، وسوف يتجمد كل شئ حتى نخاع العظام - يا لها من راحة عندما يتعود على حياته الجديدة ميتًا.. ومع ذلك ففى يوم من الأيام سوف يشعر أن بنيته القوية سوف تنهار. وعندما يحاول استدعاء ومراجعة كل واحد من أعضائه فلن يجد أيًا منها. وسوف يشعر أنه ليس له شكل محدد كما سيعرف، ويستسلم لذلك، لقد فقد الملامح الكاملة التى تدل على بلوغه خمسة وعشرين عامًا وتحول إلى حفنة تراب ليس لها شكل معين أى بدون أى هوية هندسية.

إنه فى التراب التوراتى للموت. وربما قد يشعر حينذاك بنوع من الحنين، بألا يكون جثة لها ملامحها، بل جثة متخيلة ومجردة ولها ملامح فى المخيلة الباهتة لأقربائه. وسوف يعرف آنذاك أنه سوف يصعد عبر الخاصية الشعرية فى شجرة تفاح وسوف يستيقظ وقد أخذ الجوع بعضه كأنه طفل استيقظ ذات

صبـاح من أيام الخريف. سوف يعـرف أنه فقط وحدته العـضوية وهذا ما كان يحـزنه، فهو ليس مجرد ميت عـادى، بل هو مجرد جثة.

قضى آخر ليلة وهو يشعر بسعادة، مرافقًا جثته:

لكن عندما دخلت أشعة الشمس فى اليوم التالى عبر النافذة المفتوحـة شعر أن جلده اعترته طراوة جـديدة. أخذ يرقب الموقف هنيهة، كان سـاكنًا ومتصلبًا. ترك الهواء يسـرى فوق جسده، لم يشك لحظة واحـدة فى وجـود "الرائحة". فـأثناء الليل أخـذت الجيفة تحدث أثرها. إذ أخذت أعضاء جسمه فى التفكك والتحلل مثل جثث كل الموتى. كانت "الرائحة" هى رائحة لحم نتنة تذهب ثم تعـاود المجىء بقـوة. لقـد تحلل جسـده بفـضل حـرارة الليلة السابقة: نعم. كان يتحلل وقد تـأتى أمه فى غضون ساعات قليلة لتـقوم بتغـييـر الزهور وسوف تتـعرض عن قـرب لسيـاط اللحم المتـعـفن. وعندئذ سـوف يحـملونه إلـى موتـه الثـانى بين باقى الأموات.

لكن سـرعان ما قـام الخوف بتـسديد طعنة له فى الـظهر. الخـوف يا لها من كلمـة عـميـقة وذات دلالة، ها هو خـائف يعتريه خـوف "ملموس" وحقيقى. إلام يـرجع ذلك؟ كان يفهم ذلك جيداً وكـان لحمه يرتعش: ربما لم يكن مـيتًا، فقـد وضعوه هناكِ فى ذلك الصندوق الذى يشعر به الآن طريًا ومـبطنًا ومريحًا

لدرجة كبيرة، ثم قام شبح الخوف وفتح له نافذة الواقع: كانوا سيدفنوه حيًا

لا يمكن أن يكون ميتًا، ذلك أنه كان يعى كل شىء: الحياة التى تدور أحداثها من حوله بكل ما فيها من همهمة. وكذلك بالرائحة الدافئة التى تحملها أشعة الشمس التى تنفذ عبر النافذة المفتوحة وتختلط "بالرائحة" الأخرى. كان يعى جيداً ببطء، سقوط المياه فى البحيرات وبصرير الجدجد الذى قبع فى الركن وظل يصدر أصواته ظنًا منه أنه الفجر كان مستمراً.

كان كل شىء يشعره بأنه لم يمت ما عدا "الرائحة" لكن كيف له أن يعرف أن تلك الرائحة هى المنبعثة منه؟ فربما نسيت أمه تغيير المياه فى الأوانى ليلة البارحة، وبذلك كانت سيقانه تتعفن. وربما كانت تلك رائحة الفأر الذى جلبه القط ووضعه إلى جواره فأخذت الحرارة تحدث تأثيرها فيه. لا، لا يمكن أن تكون هذه الرائحة صادرة عن جسد.

كان سعيداً مع موته منذ بضع لحظات لظنه أنه ميت، فالميت يمكن أن يكون سعيداً مع وضعه الذى لا مناص منه. لكن الحى لا يمكن أن يُذعِن حتى يُدفن حيًا. ومع ذلك لم تكن أعضاؤه تستجيب لندائه. لم يكن قادراً على التعبير وهذا ما كان يفزعه. إنه أكبر شىء يثير فزعه فى الحياة والموت. قد يدفنوه حيًا. يمكن أن يشعر وأن يعى أنهم يدقون المسامير فى النعش يمكن أن يشعر

بالخواء في الجسد الذي يحمله الأصدقاء على أكتافهم بينما يتعاظم عنده الكدر وفقدان الأمل مع كل خطوة في الجنازة.

سوف يحاول النهوض ولكن بلا جدوى وأن ينادي بأعلى صوته الذي ذهب وأن يضرب النعش المظلم والضيق حتى يعرفوا أنه كان لا يزال حياً وأنهم كانوا سيدفنونه حيًا. من غير المجدي، ها هي أعضاؤه لا تستجيب للنداء العاجل والأخير لجهازه العصبي.

سمع ضجيجًا في الحجرة المجاورة. هل هو نائم؟ هل كانت حياة الميت هذه كابوسًا؟ لكن ضجيج الأواني لم يستمر، شعر بالحزن وربما أصابه الكَدَر لذلك. كم كان يود لو أن كل أواني الدنيا كلها تنكسر بضربة واحدة هناك إلى جواره حتى يستيقظ من أجل قضية خارجية ذلك أن إرادته فشلت تمامًا.

لكن لا. لم يكن ذلك حلمًا، كان واثقًا أنه لو كان كذلك فلم تكن لتفشل المحاولة الأخيرة للعودة إلى الواقع. قد لا ينهض مرة أخرى، كان يشعر بطراوة التابوت، أما الرائحة فقد عادت الآن بمزيد من القوة، بل بكل قوة لدرجة أنه كان يشك أنها رائحته هو، كان يود لو يرى أقرباءه قبل أن يبدأ في التحلل، أما منظر اللحم المتعفن فجعله يشعر بالتقزز، وسوف يهرب الجيران مفزوعين من النعش وقد وضعوا المناديل على أفواههم. وقد يتقيئون. لا. ليس هذا. كان من الأفضل أن يدفنوه. كان من

المستحب الخروج من هذا الموقف بأقـصى سرعة. وهو نفسه يريد أن يتخلص من جثته. كان الآن يشعر بأنه ميت بالفعل أو أنه حى ولكن بشكل غيـر ملحوظ، الأمور تستـوى فى هذا المقام. وعلى أى الأحوال فقد كانت "الرائحة" هناك ولا تزال.

وسـوف يستـمع مـذعنًا لآخـر الصلوات وأخـر العبـارات اللاتينيـة التى يرددها خـدم الكنيـسـة. وسوف ينفـذ البـرد الملئ بالتراب وعظام المقابر إلى عظامه، وربما يتضاءل بعض الشىء تأثير هذه "الرائحة" النفاذة. ومن يدر فربما يؤدى حلول اللحظة - إلى خروجه من هذه الظلمة. عندما يشعر أنه يقوم فى عرقه، فى تلك المياه الكثيفة اللزجة مثلما حدث له ذلك قبل مولده وهو فى رحم أمه، فقد يكون حيًا.

لكن سيكون مذعنًا للموت فربما مات إذعانًا.

عينا كلب أزرق

(١٩٥٠)

نظرت إلىّ عندئـذ. كنت أظن أنهـا تنظر إلىّ لأول مـرة، وبعد ذلك، فعندما استدارت من خلف الشمعدان، كنت لا زلت أشعر بنظرتهـا الناعمة البراقة على أكـتافي وخلف ظهرى. عندئذ أدركت أننى أنا الذى كنت أراهـا لأول مرة. أشـعلت سـيجـارة وابتلعت الدخان القوى الفظ قبل أن أدور بالمقعد حتى يستند إلى واحدة من الأرجل الخلفـية. وبعد ذلك رأيـتها هناك، مـثلما هو الحال فى كل الليالى، تقف إلى جوار الشـمعدان، ترمقنى. وظل كلانا لبضع دقائق لا يفعل أكثر من هذا: ينظر كلانا للآخر، أنظر أنا إليهـا من على الكرسى الذى جـعلته يثبت علـى إحدى أرجله الخلفية، أما هى فواقفـة تسند يدها الطويلة بهدوء على الشمعدان وتنظر إلى. كنـت أنظر إلى أهدابهـا المضـاءة مـثل كل الليـالى، وعندئذ تذكـرت العبارة المـعهودة عندمـا قلت لها : "عـينا كلب أزرق" فقالت لى "أبدًا" خرجت عن المدار المألوف وهى تتنهد : "عينا كلب أزرق. كتبتُ هذه العبارة فى كل مكان".

رأيتها وهى تتـجه صوب التسريحة ورأيتـها من خلال المرآة المستـديرة وقد أخذت تنظر إلى الآن والضـوء يذهب ويجىء بدقة حسابية. رأيتـها وهى تواصل النظر إلى بعينيها الكبيـرتين كأنهما

الجمـرات المتقدة ! كانـت تنظر إلى وهى تفتح الصندوق الصغـير المطعم بالصدف الوردى. رأيتها وهى تضع المسـحوق على أنفها. وعندمـا انتهت أغلقت الصندوق ثم نهـضت واتجهت من جـديد صـوب الشمـعدان وهى تقـول : "أخـشى أن يحلم أحد بهـذه الحجـرة ويبـعثـر حاجـياتى" وفـوق الشعلة مـدت يدها الطويلة والمرتعشة، والتى كانت تقوم بتدفئتها قبل الجلوس إلى التسريحة. وقالت : "أنت لا تشعر بالبرد" فقلت لها "أحيانا" فقالت لى : "يجب أن تشعر به الآن" وعندئذ أدركت لماذا لم أتمكن من البقاء وحدى فى المقعـد. كان البرد هو الذى يؤكد لى حقيـقة وحدتى، فقلت : "الآن أشـعر به وهذا غريب ذلك أن اللـيلة كانت هادئة وربما كنت ملتفًا جيداً بالمـلاءة". فلم تجب ثم أخذت تتحرك بعد ذلك متـوجهة نحـو المرآة، أما أنا فعـدت للاستدارة على المقـعد معطيًـا ظهرى إياها. كنـت أعرف ما تفـعله دون أن أراها. كنت أعـرف أنها عـادت لتـجلس إلى المرآة من جـديد وهى تنظر إلى ظهـرى الذى كان لديه مـتسع مـن الوقت ليصل إلى عـمق المرآة ويلتـقى بنظراتها، التى كـانت لديها هى الأخـرى الوقت الكافى للوصول إلى عمق المرآة، والعودة من جـديد قبل أن يتوفر الوقت لليد فى البدء بالعودة مرة أخرى، لتلتـقى بالشفاه، الموضوع عليها اللون الأحمـر القانى، مع أول حركـة دوران لليد فى المرآة. كنت أرى أمامى الحائط الأملس الذى يشـبه مرآة أخرى لكنها معـتمة، ولم أكن أراها - وهى تجـلس خلف ظهـرى - لكنـى أتصـورها

وكأنها قد وضعت مرآة مكان الحائط. فقلت لها : "أراك" ورأيت في الحائط كأنها رفعت ناظريها، وأن ظهري و رأسي وأنا جالس في عمق المرآة، متوجهان صوب الحائط، وبعد ذلك رأيتها وهي تخفض أهدابها مرة ثانية وتظل عيناها ثابتتين في محاجرها ، ولم تنبس بكلمة. أما أنا فعدت لأقول "أراك" فعادت هي لترفع ناظريها وهما في محجريهما ثم قالت : "مستحيل". فسألت لماذا؟ فقالت، وعيناها ثابتتان في مكانهما : "ذلك أن وجهك متجه صوب الحائط". عندئذ استدرت بالمقعد، وكنت أمسك بالسيجارة بين شفتي، وعندما أصبحت أمام المرآة، كانت هي تقف خلف الشمعدان من جديد. ها هي الآن تقترب بكفيها من اللهب كأنهما جناحا دجاجة مفرودين في حالة الشواء. أما وجهها فكان يرى من خلال أصابعها "أعتقد أنني سأتعرض لبرد شديد. لابد أن هذه الليلة جليدية". ودارت بوجهها بعض الشيء حتى أصبح في صورة جانبية، أما جلدها المحمر فقد اعتراه حزن مفاجئ. "افعلي شيئًا حيال هذا" قلت فقامت هي بخلط ملابسها قطعة تلو الأخرى بادئة بالقطع العلوية. فقلت لها "سوف أوجه رأسي للحائط" فقالت "لا. فأنت على أي الأحوال سوف تراني مثلما رأيتني وظهرك لي" ولم تكد تنتهي من عبارتها حتى أضحت شبه عارية وأخذ اللهب يلعق جلدها النحاسي الممتد. "لطالما وددت أن أراك هكذا دومًا وقد امتلأ جلد بطنك بالتجاعيد وكأنما اخترقته عدة رصاصات". وقبل أن أدرك

أننى أتعثر فى العبارات التى أتفوه بها أمام عريها سكنت هى بلا حراك وأخذت تدفئ نفسها على نار الشمعدان وقالت : "أحيانًا أتصور أننى من معدن" صمتت لحظة. تغير وضع اليدين على اللهب بعض الشىء فقلت "فى أحلام عشتها أحيانًا شعرت أنك لست إلا تمثالاً صغيراً من البرونز قائم هناك فى ركن فى أحد المتاحف. ولهذا ربما تشعرين بالبرد" فقال "عندما أنام على جانبى الأيسر حيث القلب أشعر أحيانًا أن جسدى مفرغ وأن جلدى عبارة عن إحدى الرقائق وعندئذ يضربنى الدم بعنف من الداخل وكأن هناك من ينادينى بطرقات بعقد أصابعه على بطنى أشعر حينئذ بصوتى النحاسى وأنا فى السرير. كأننى مثلما قلت : " من رقائق معدن" ثم ازداد اقترابها من الشمعدان فقلت "كم بودى لو أسمعك" فقالت "إذا ما التقينا ذات مرة فضع أذنك على ضلوعى عندما أنام على جانبى الأيسر وسوف تسمع رنينى. لطالما رغبت أن تفعل ذلك ذات مرة" سمعتها وهى تتنفس بعمق عندما كانت تتحدث وقالت إنها ظلت لسنوات تفعل نفس الشىء، فقد كرست حياتها لتلتقى بى فى عالم الواقع من خلال هذه الجملة المتفق عليها : "عينا كلب أزرق" وكانت تسير فى الشارع وهى تردد ذلك بصوت مرتفع، ولم تكن إلا وسيلة للحديث إلى الشخص الوحيد الذى يمكن أن يتفهمها. "أنا التى آتى إلى أحلامك كل ليلة وتقول لك هذا : عينا كلب أزرق" وقالت بأنها كانت تذهب إلى المطاعم وتقول للعاملين هناك قبل أن تطلب ما تريد : "عينا

كلب أزرق" لكن الشباب كانوا يعيرونهـا الاحترام والتوقير، لكن دون أن يتذكـروا ولو لمرة أنهم قالوا هذا فى أحـلامهم. ثم تكتب بعد ذلك على المـناديل الورقية وتقـوم باستخـدام السكين لتكتب نفس العـبـارة على دهان الموائد: "عـينا كلب أزرق"، وكـذلك وعلى الزجاج المترب للمحطات. وعلى كل المبـانى العامة. كانت تخط بسـبابتهـا "عينا كلـب أزرق" وقالت إنها ذات مـرة دخلت محـلاً لبيع المنظفات والعطور ولاحظت وجـود نفس الرائحة التى أحست بـها فى حجـرتها ذات ليلة بعـد أن حلمت بأنهـا معى.

"لابد أنه قـريب" أخـذت تفكر وهـى تنظر إلى البـلاط الجـديد اللامع للمحل وعندئذ اقتربـت من البائع وقالت له : أحلم دائمًا برجل يقول لـى : "عينا كلب أزرق" وقالت بأن البـائع نظر إلى عينيها وقال إننى فى حاجة لأجد الرجل الذى قال لى هذه العبارة فى الحلم" فما كان من البائع إلا أن أطلق العنان لضحكاته وتحرك إلى الجانب الآخـر من الحاجـز أما هى فظلت تحمـلق فى البلاط اللامع النظيف وتشـعر بالرائحة. ثم فـتحت شنطتهـا وركعت ثم أخرجت إصبع أحمر الشفاه ذى اللون الأحمر القانى وكتبت على البلاط بحـروف كبيرة "عـينا كلب أزرق" فعاد البـائع من جديد وقال لهـا "لقد اتسخ البلاط بسبـبك يا آنستى" وسلم لها خـرقة قماش مبلله وقال لهـا "عليك بتنظيفه" فقالت، وهى لا تزال إلى جـوار الشمـعدان، بأنـها قـضت عصـر اليـوم كله وهى جالسـة

القرفصاء وتقوم بغسل البلاط وتردد "عينا كلب أزرق" حتى تجمع الناس حولها على الباب وقالوا بأنها مجنونة.

وعندما انتهت من الكلام كنت قابعًا فى الركن وأنا أقوم بإحداث التوازن فى المقعد. فقلت "إننى أحاول أن أتذكر كل يوم العبارة التى أجدك بها. وأعتقد أننى لن أنساها غدًا، ومع ذلك فقد قلت نفس الكلام ثم نسيت عند استيقاظى ما هى الكلمات التى أجدك بها" فقالت "أنت نفسك ابتكرتها منذ أول يوم" فقلت لها "لقد اخترعتها لأننى رأيت عينيك كأنهما جمرتان لكننى لا أتذكرها أبدًا فى اليوم التالى" أما هى فقد ظلت إلى جوار الشمعدان وقبضت كفيها وتنفست بعمق: "آه لو تذكرت اسم المدينة التى كتبت تلك العبارة فيها".

كانت أسنانها المطبقة على بعضها البعض تتلألأ من جراء اللهب. فقلت: "يطيب لى أن ألمسك الآن، فرفعت وجهها حيث كانت تتأمل الشعلة. ورفعت النظرة المشتعلة التى تحترق مثلها ومثل يديها. أما أنا فشعرت أنها رأتنى فى ذلك الركن الذى أجلس فيه وأنا أتأرجح على المقعد" وقالت "لم تقل لى أبدًا هذه العبارة" فقلت "أقولها الآن وهذه حقيقة"، فطلبت سيجارة وهى تجلس على الجانب الآخر من الشمعدان. واختفت بقايا السيجارة من بين أصابعى وكنت قد نسيت أننى أدخن. قالت "لست أدرى لماذا لا أتمكن من تذكر المكان الذى كتبت فيه العبارة" فقلت لها

"وهو نفس السبب الذى ينسينى الكلمات صباح اليوم التالى" فقالت بصوت حزين "لا. أحيانًا ما أشعر أننى حلمت بذلك أيضًا" نهضت من مقعدى وسرت متوجهًا نحو الشمعدان. كانت هى بعيدة بعض الشىء أما أنا فظللت أسير وأنا أحمل السجائر والكبريت فى يدى ولم أتجاوز الشمعدان، فمددت يدى لها بالسيجارة فأمسكت بها بين شفتيها ثم مالت لتشعلها من اللهب قبل أن أتمكن أنا من إشعال عود الكبريت وقلت "لابد وأن هذه العبارة مكتوبة فى مدينة ما فى هذا العالم: "عينا كلب أزرق". وإذا ما تذكرتها غدًا سوف أذهب إلى هناك بحثًا عنك. عادت لترفع رأسها من جديد وقد أشعلت سيجارتها وهى فى فمها "عينا كلب أزرق" قالتها وهى تتنهد وتتذكر وقد مالت السيجارة نحو ذقنها. وأقفلت، بعض الشىء، إحدى عينيها. ثم استنشقت الدخان بعد ذلك وقد أصبحت السيجارة بين إصبعيها وصاحت "لقد تغير الأمر، الآن أصبحت أشعر بالدفء" قالتها بنبرة فيها دفء وهروب، وكأنها لم تنطق بذلك حقيقة بل كأنها دونتها على ورقة ثم اقتربت بها من اللهب بينما أنا أقرأ: "أنا أشعر - وكأنها تمسك بما بقى من الورقة بين السبابة والإبهام وتطوحها وهى تشتعل، أما أنا فقد قرأت "بالدفء" قبل أن تحترق الورقة تمامًا وتسقط على الأرض وقد انكمشت وصغر حجمها وتحولت إلى رماد لا قيمة له، فقلت "هذا أفضل، فأحيانًا أشعر بالخوف وأنا أراك هكذا ترتعشين إلى جوار الشمعدان".

كنا نرى بعـضنا البعض منذ عـدة سنوات. وأحيانًـا عندما نكون سويًا. كان هناك أحد ما يترك ملعقـة صغيرة تسقط فتحدث رنينًا نستـيقظ على أثره. وشـيئًا فـشيئًـا أخذنا ندرك أن صـداقتنا مرهونة بالأشـياء والأحداث البسـيطة. كانت لقاءاتنا تنتـهى دومًا بهذا الشكل، أى بسقوط ملعقة صغيرة فجرًا.

وعندما وصلت إلى جانب الشمعدان كانت ترمقنى. أتذكر أنها كانت تنظر إلىّ قبل ذلك بنفس الطريقة فى ذلك الحلم البعيد الذى قمت فيه بجعل المقـعد يلف على الأرجل الخلفية. ووجدت نفسى أمام امـرأة مجهولة ذات عينين رمـاديتين. وفى ذلك الحلم سألتهـا لأول مرة "من أنت؟" فقالت لى "لا أتذكـر" فقلت لها "لكن أعتـقد أننا رأينا بعـضنا قبل ذلك" فـقالت غيـر مبـالية : "أعتقـد أننى حلمت ذات مرة بك فى نفس هذه الحجـرة" فقلت لها "هو ذاك، الآن أتذكر الموقف" فقـالت "يا له من أمر عجيب حقًا لقد التقينا فى أحلام أخرى".

أخذت من الـسيجـارة نفسـين، أما أنا فظللت علـى حالى ساكنًا أمام الشمعدان عندما أخذت أرمقها فجأة. نظرت إليها نظرة غطتهـا من أعلى إلى أسفل. وكانت لا تـزال من النحاس. لكنه ليس المعـدن الصلب والبارد، بل إنه نحـاس أصفر وطـرى وقابل للتطويع. وعدت لقول هذه العبارة "أود لو ألمسك" فقالت "إنك تغامـر بفقدان كل شىء" فقلـت "لا يهم الآن، يكفى أن يتقلب

كل منا على المخـدة فنلتـقى مرة أخـرى" ومددت يدى من فـوق الشمعـدان. لكنها لم تتحرك وعـادت لتقول "إنك تغامـر بفقدان كل شىء" قالتهـا قبل أن أتمكن من ملامستهـا" وإذا ما استدرت وأنت خلف الشـمعـدان فربما نسـتيـقظ فزعـين، ومن يدرى أين سيكون هذا فى أى مكان من العالم. لكنى عدت أصر "لا يهم" فقـالت "إذا ما تقلبنا على المخدة فـسوف نلتقـى من جديد لكنك سوف تنسـى ذلك عندما تستـيقظ. وأخـذت فى التحـرك صوب الركن. وظلت هى فى المؤخـرة تقوم بتـدفئة يديهـا على اللهب. ولم أكد أصل إلى المقعد حـتى سمعتها تقول "عندمـا أستيقظ فى منتصف الليل ينتـابنى الأرق وأنا فى سريرى وكأن قـماش المخدة إبر تخُذنى فى ركـبتى وأظل هكذا حـتى الصباح : "عـينا كلب أزرق".

عندما وضعت وجهى صوب الحائط "ها هى تباشير الصباح - قلت هذه العـبارة دون أن أنظر إليـهـا - فعندمـا دقت الثانيـة صباحًا استيـقظت وظللت على هذا الحال لفترة طويلة" وتوجهت نحـو الباب، وعندمـا أمسكت بـالمقبض سـمعت - من جـديد. صوتها الذى لا يـتغير، وهى تقول "لا تفـتح هذا الباب ذلك أن الطرق مليئة بالأحـلام الصعبة" فقلت لها "وكـيف تعرفين ذلك" فقالت لى "إننى كنت هناك منذ هنيهـة وكان على أن أعود عندما اكتشفـت أننى نائمة على جانبى الأيسر". أما أنا فقـد كان الباب

مواربًا. فحـركت دلفة الباب قليلاً فهـبت عليّ نسمة خفيـفة آتيه معـها ببعـض البرد الخفـيف والرائحة الطازجـة للأرض المزروعة والحقول المروية. تحدثت هى مرة أخرى. فاستدرت وحركت دلفة الباب المرتبطة بالمفصلات التى لا تحدث أصواتًا. وقلت : "أعتقد أن ليس هناك أى ردهة فى الخارج. إننـى أشعر برائحة الحـقول" أما هى التى أصبحت بعيدة عنى بعض الشىء فقالت "أعرف ذلك أكثـر منك، والأمر هو أن هناك امـرأة تحلم بالحقـول" . تشابكت يداها على اللهب وواصلت حـديثـها "إنهـا تلك المرأة التى طالما رغبت أن يكون لهـا منزل وسط الحقول لكنها لم تسـتطع مغادرة المدينة "إننى أتذكر أنى رأيت هذه المرأة فى بعض الأحلام السابقة لكننى كنت أعـرف، والباب مـوارب، أننى يجب أن أنزل لتناول فطورى خـلال نصف ساعـة وقلت "على أى الأحـوال يجب أن أخرج من هنا حتى أستيقظ" .

هبت الرياح فى الخارج هنـيهة وسكنت بعـد ذلك ثم سمع صوت أحـد النائمين وهو يتقلب فى سـريره، وتوقفت الرياح فى الحـقول. لم تعـد هناك أية روائح، فـقلت "غـدًا سوف أتعـرف عليك من خلال هذا. سوف أتعرف عليك عندما أجد فى الشارع امرأة تكتب على الحوائط "عينا كلب أزرق" أما هى فقد ابتسمت ابتسامة حزينة - فهى ابتسامة تعـبر عن الاستسلام المستحيل وغير القابل للمنال - وقـالت "ومع ذلك فلن تتذكر شيئًـا أثناء النهار"

ثم عادت لتضع يديهـا فوق الشمعدان ولف جسـدها ضباب مُرّ" أنت نفس الرجل الذى لا يـتذكـر أى شىء من أحـلامـه عندمـا يستيقظ".

ليلة طيور الكروان

(١٩٥٣)

كنا جالسين ثلاثتنا حول المائدة عندما قام أحدٌ مَا بإدخال قطعة عملة معدنية فى الفتحة فعادت الماكينة (Wurlitzer) لتشغيل الاسطوانة المعتادة. ولم يكن أمام الآخرين منا متسع من الوقت للتفكير فيه. إذ وقع ذلك قبل أن نتذكر أين التقينا، أى قبل أن نتمكن من استعادة تحسس الاتجاه. مد واحد منا يده على المنضدة المستطيلة وأخذ يتحسس (فنحن لم نر اليد، بل كنا نسمعها) فاصطدم بأحد الأكواب ثم سكت بعد ذلك، وكانت يداه لا تزالان فوق المسطح الصلب. عندئذ قمنا نحن الثلاثة بالبحث عن بعضنا البعض فى الظل، والتقينا هناك بأصابعنا على المنضدة المستطيلة حيث التقى ثلاثون إصبعًا. فقال أحدنا :

- هيا بنا.

نهضنا واقفين كأن شيئًا لم يحدث. ولم يكن أمامنا حتى هذه اللحظة متسع من الوقت لتنتابنا الحيرة.

وعند المرور بالردهة سمعنا موسيقى قريبة تقابلنا وشعرنا برائحة نساء حزينات جالسات فى الانتظار. شعرنا بالفراغ الممتد للردهة من أمامنا ونحن نسير صوب الباب قبل أن تخرج

لاستقبالنا رائحة أخرى غير محببة لامرأة كانت تجلس على الباب.

فقلنا :

- هيا بنا.

لم تجب المرأة. وشعرنا بصوت كرسى هزاز وهو يتحرك إلى أعلى فى الوقت الذى نهضت هى فيه. شعرنا بالخطوات فوق الأرضية الخشبية المتفككة، ومن جديد، بعودة المرأة فى الوقت الذى يُسمع فيه صرير المفصلات، وأقفل الباب جيداً خلف ظهورنا.

استدرنا، وخلفنا كان هناك هواء جاف وقوى لفجر لا يرى، كما سمع صوت يقول:

- ابتعدوا عن المكان فإننى أمر ومعى هذا

تراجعنا إلى الوراء فعاد الصوت ليقول :

إنكم لا زلتم تسدون المدخل.

عندئذ تحركنا فى كل اتجاه ووجدنا الصوت فى كل مكان

فقلنا :

- لا نستطيع الخروج من هنا فطيور الكروان فقأت عيوننا.

سمعنا بعد ذلك صوت أبواب تفتح فنزع أحدنا يده من الأيدى الأخرى وسمعناه وهو يزحف فى الظل متردداً ومصطدماً

بمحتويات المكان التى كانت تحيط بنا. تحدث وهو فى مكان ما من الظلمة.

- لابد وأننا بالقرب، إلا أن هنا رائحة لصناديق متراكمة فوق بعضها.

عدنا من جديد لنشعر بلمسات يديه، واستندنا إلى الحائط، وعندئذ مر صوت آخر ولكن فى اتجاه معاكس. .

- يمكن أن تكون هذه توابيت - قال واحد منا. فقال الذى كان قد زحف حتى الركن لكنه الآن يتنفس إلى جوارنا.

- إنها صناديق. لقد تعلمت منذ صغرى كيفية تمييز رائحة الملابس المحفوظة فى الصناديق.

عندئذ تحركنا إلى هناك. كانت الأرض طرية وملساء كأنها أرض مخصصة للسير. مد أحد ذراعه. شعر بجلد ممدد وحى، لكننا لم نشعر بالحائط الموجود فى الجانب الآخر.

- إنها امرأة - قلنا

فقال ذلك الذى تحدث عن الصناديق :

- أعتقد أنها نائمة.

تحرك الجسد تحت أيدينا. ارتعش، وشعرنا به وهو يتمطى، وكان ذلك الشعور مؤسسًا على أنه أصبح غير موجود أكثر من

الشعــور بابتعــاد ذلك الجسد. وبعــد هنيهة سكون، وقــد تصلبنا وتراصت أكتافنا إلى جوار بعضها سمعنا صوتًا يقول:

- من هناك ؟

- أجبنا دون أن نتحرك. - ها نحن.

سمع الصوت فى السرير، حيــث الصرير والأقدام تتحسس الشبــشب فى الظلام. عندئذ تصورنا المرأة جالــسة وهى تنظر إلينا لم تستيقظ بالكامل بعد.

- ماذا تفعلون هنا؟ قالت.

فقلنا :

- لسنا ندرى، فطيور الكروان فقأت عيوننا.

فقال الصــوت إنه سمع شيئًا مــثل هذا وأن الصحف قالت بأنه كان هناك ثلاثة رجــال يتناولون البيــرة فى فناء داخلى، حيث كان هناك خــمسة أو ستــة من طيور الكروان. وقام أحــد الرجال بترديد صوت الكروان.

- الأمــر السيئ أن الوقت كــان متــأخراً - قــال. . وعندئذ قفزت الطيور على المائدة وفقأت عيون الرجال.

قــال بأن الصحــف ذكرت ذلك لكن لــم يصدق أحــد هذه الرواية. فقلت :

- إذا ما كان الناس قد ذهبوا إلى هناك لابد وأنهم قد رأوا طيور الكروان.

وقالت المرأة :

- لقد ذهبوا. كان الفناء مليئاً عن آخره بالناس فى اليوم التالى، لكن المرأة أخذت طيور الكروان إلى مكان آخر.

توقفت المرأة عن الكلام عندما استدرنا. ها هو الحائط من جديد، إذ بمجرد التحرك هنا أو هناك بعض الشىء نجد الحائط هناك. الحائط دائمًا يلفنا ويحاصرنا. سمعناه مره أخرى يسير متثاقلاً وهو يتحسس الأرض ويقول :

- لست أدرى أين هى الصناديق. أعتقد أننا نسير فى مكان آخر.

فقلنا :

- تعال إلى هنا. هناك أحدٌ ما إلى جوارنا.

سمعناه وهو يقترب وشعرنا به وهو ينهض إلى جوارنا، ومرة أخرى ضربتنا رائحته الدافئة فى وجوهنا.

- امدد يدك - قلنا له - هناك أحد ما يعرفنا.

لابد وأنه مد يده، و تحرك إلى حيث نشير؛ ذلك أنه بعد لحظات عاد ليقول لنا:

- أعتقد أنه فتى.

فقلنا له :

- حسن، اسأله إذا ما كان يعرفنا.

فقام بالسؤال وسمعنا الصـوت البسيط اللامبالى للفتى الذى كان يقول:

- نعم أعـرفهم، إنهم الرجـال الثلاثة الذين فـقأت طـيور الكروان عيونهم.

وعندئذ تحـدث صوت بالغ. إنـه صوت امـرأة. يبدو أنهـا تتحدث من خلف باب مغلق. ها هو يتحدث مع نفسه.

فقال الصوت الطفولى بلا مبالاة :

- لا. ها هم من جديد الرجـال الثلاثة الذين فقـأت طيور الكروان عيونهم.

سمع صـرير مفصـلات، وبعد ذلك الصوت البـالغ، وقد أصبح أكثر قربًا عن المرة الأولى.

- خذهم إلى منزلهم. قال.

فقال الفتى :

- لا أعرف أين يعيشون.

فقال الصوت البالغ :

– لا تكن سيئ الطبع. فكل الناس يعرفون أين يعيشون منذ تلك الليلة التى فقأت طيور الكروان عيونهم.

وبعد ذلك واصل حديثه بنغمة أخرى وكأنه متوجه بالحديث إلينا:

– ما حـدث هو أن الناس لم يريدوا تصديـق ذلك، وقالوا بأنه خبر كاذب أوردته الصحف لزيادة مـبيعاتها. فلم ير أحد هذه الطيور.

فقلنا :

– لكن قد لا يصدقنى أحد إذا ما ذهبت بهم إلى الشارع.

لم نكن نتحـرك. كنا ساكنين ومسـتندين إلى الحائط ونحن نسمع المرأة وهى تقول:

– إذا ما أراد ذلك أن يأخذهم فالأمر يـختلف. وعمومًا لن يُعير أحد اهتمامًا بما قد يقوله فتى.

فتدخل صوت طفولى :

إذا ما خرجت معهم إلى الشارع وقلت بأنهم الرجال الذين فقأت طيور الكروان عيونهم فإن الفـتية سوف يرموننى بالحجارة. فكل الناس يقولون باستحالة هذا الأمر.

مرت لحظة صمت، ثم عاد الباب ليغلق من جديد وعاد الفتى ليقول:

- أضف إلى ذلك أننى أقوم بقراءة قصة "تيرى والقراصنة".

فهمس فى آذاننا صوت:

- سوف أقوم بإقناعه.

سار متثاقلاً إلى حيث الصوت.

- هذا يروق لى - قال - فعليك على الأقل أن تروى لنا ما حدث لتيرى هذا الأسبوع.

فكرنا أنه يحاول كسب ثقته، لكن الفتى قال:

- هذا لا يعنينى فأهم شىء لدى هو الألوان.

- كان تيرى داخل تيه من الأنفاق - قلنا.

فقال الفتى :

- كان ذلك يوم الجمعة. ونحن الآن فى يوم الأحد، وما يهمنى هو الألوان - قال ذلك بصوت غير مبالٍ ولا حرارة فيه.

وعندما عاد الآخر قلنا :

- إننا على هذا الحال تائهون منذ ثلاثة أيام، ولم نركن للراحة ولو لحظة واحدة.

فقال أحدهم :

- حســن. سوف نرتاح بعض الوقت، لكن دون أن يتــرك أحدنا يد الآخر.

جلسنا. وأخذت شمس دافئة غير مرئية تدفئ أكتافنا. لكن لم يكن يهمــنا حتى وجود الشــمس. إننا نشعــر بها هناك فى أى مكان وقد فقدنا الإحساس بالمســافات والزمن والتوجه. مرت عدة أصوات.

- فقأت طيور الكروان عيوننا - قلنا.

فقال أحد الأصوات:

- لقد أخذ هؤلاء بما قالته الصحف.

اختــفت الأصوات. وظللنا جــالسين ملتصــقة أكــتافنا إلى بعضها البعض آملين أن نعــثر- فى مرور الأصوات هذه، وكذلك فى الصور - على رائحة أو صوت معروف لدينا.

واصلت الشمس تسخين رؤوسنا وعندئذ قال أحد ما :

- هيا بنا نحو الحائط.

بينما ظل الآخرون بلا حراك، رءوســهم مرفوعة نحو النور غير المرئى.

- ليس الآن بعد. لننتظر هنيــهة أخرى حتى تبــدأ الشمس فى لفح وجوهنا بشدة.

الأمسية المدهشة التى قضاها بلتثار

(١٩٦٢)

انتهى من صناعة القفص. وقام بلتثار بتعليقه فى مشبك يتدلى من السقف كما هى العادة. وعندما تناول طعام الغذاء سرى الحديث فى القرية بأنه صنع أجمل قفص فى العالم، فجاء أناس كثيرون ليروا القفص، وتجمهروا أمام باب منزله، ولم يكن أمام بلتثار إلا أن ينزل القفص، ويغلق ورشة النجارة.

– عليك أن تحلق ذقنك – قالت له زوجته أرسولا – تبدو كأنك راهب.

–قال بلتثار : ليس من المناسب حلاقة الذقن بعد الغذاء.

لم يحلق ذقنه منذ أسبوعين، وكان شعره قصيراً وقويًا وواقفًا كأنه عرف أحد البغال، أما الهيئة العامة فكانت لفتى أصيب بالهلع لكنه كان تعبيراً زائفًا. فقد أكمل الثلاثين من العمر فى فبراير. وكان يعيش مع أرسولا منذ ما يقرب من أربعة أعوام. ولكن دون أن يتزوجا أو يكون لهما أولاد. وقد أعطته الحياة الأسباب التى جعلته يتخذ هذا الموقف. لكن لم يكن هناك أى مبرر للهلع. حتى أنه لم يكن يعرف أن القفص الذى صنعه بدا للبعض أنه أجمل قفص فى العالم. ولما كان معتادًا على صناعة

الأقفــاص منذ صغره، لم يكن ذلك القــفص إلا عملاً آخــر مثل غيره اللهم إلا أنه بذل فيه جهدًا كبيراً.

- عليك إذن أن ترتاح بعض الوقت - قــالت المرأة - فأنت بهذا الذقن غير الحليق لا يليق أن تذهب إلى أى مكان.

فى الوقت الذى خلد فيه للراحة نهض من السرير، الشبكى المعلق، عــدة مرات حتى يتــفرج الجــيران على القفــص. لم تُعره أرسولا أى انتباه حتى هذه اللحظة. ذلك أنها أصيبت بالكدر لأن زوجها أهمل العمل فى ورشة النجــارة وكرس كل وقته للقفص، وظل لمدة أسبوعين ينام قليلاً. وعندما يحدث ذلك يتقلب ويهذى ببعض الكلمــات، وترك ذقنه بلا حلاقة. لكن ها قــد ذهب عنها الضيق عندما انتهى العمل فى القفص. وعندمــا استيقظ بلتثار من قيــلولته كــانت هى قد قــامت بكى البنطلونات وأحــد القمــصان ووضعتها على أحد المقاعد بجوار السرير الشبكى وحملت القفص ووضعته على مائدة حجرة الطعام، وكانت تتأمله صامتة.

- كم ستقبض ثمنًا له؟ سألت

- لست أدرى - أجاب بلتــثار - سوف أطلــب ثلاثين بيزو وذلك حتى يعطونى عشرين.

- عليك أن تطلب خمسين - قــالت أرسولا - لقد سهرت ليالى طويلة خلال هذين الأسبوعين. كمــا أنه قفص كبير. أعتقد أنه أكبر قفص رأيته فى حياتى.

أخذ بلتثار يحلق ذقنه.

- أتظنين أنهم يمكن أن يعطوننى خمسين بيزو؟

- هذا المبلغ لا يعنى شيئًا بالنسبة للسيد " شيبى مونتيل". كما أن القفص يساوى هذا المبلغ - قالت أرسولا - من الأنسب أن تطلب ستين بيزو.

كان المنزل فى الظل الخانق. وفى الأسبوع الأول من أبريل، وبدا أن الحر أشد قسوة بسبب طنين الحشرات. وعندما انتهى بلتثار من ارتداء ملابسه فتح باب الفناء لتهوية المنزل، وعندئذ دخلت مجموعة من التلاميذ حجرة الطعام.

ذاع الخبر فى كل مكان. كان الدكتور العجوز أوكتابيو خيرالدو - السعيد فى حياته المتعب من ممارسة المهنة - يفكر فى القفص الذى صنعه بلتثار، يفكر فى ذلك أثناء تناوله طعام الغذاء مع زوجته المعاقة. كانا جالسين فى التراس الداخلى حيث توضع المائدة فى هذا المكان أيام القيظ يحيط بها الكثير من أصص الزهور بالإضافة إلى قفصين بهما طيور الكنارى.

كانت زوجته تعشق العصافير لدرجة أنها كانت تكره القطط فى المقابل إذ هى حيوانات قادرة على التهام العصافير. ولما كان الدكتور "خيرالدو" يفكر فى زوجته، توجه فى ذلك المساء لزيارة مريض، وعند عودته مر بمنزل بلتثار ليرى القفص.

كان هناك عدد كبير من الناس فى غرفة الطعام، وقد وضع القفص على المنضدة وقد علته القبة الضخمة المكونة من الأسلاك، هو قفص مكون من ثـلاثة أدوار داخلية مع ممرات وأماكن خـاصة لوضع الطعام والنوم، وكذلك أرجوحات فى الفـراغات المخصصة لحركة العصافير. بدا القفص بهذا الشكل كأنه نموذج مصغر لمصنع ضخم لإنتاج الثلج، تأمل الطبيـب القفص بعناية دون أن يلمسه، وتصور أن هذا القـفص سوف يكون أغلى مما يطيق هو، كـما أنه جميل لدرجة تفوق ما تصوره كهدية لزوجته.

- تلك هى مغـامرة الخـيال - قال هذه العـبارة باحـثًا عن بلتثار وسط مـجموعة الحاضرين، وأضـاف وهو يلقى نظرة حانية على القفص - كان من الممكن أن تكون مهندسًا بارعًا.

شعر بلتثار بالخجل.

- شكرًا - قال.

- هذا حقـيقى - قـالها الطبـيب. كان ممتلئًا، لـكن كانت سمنة ناعمة ولينة كأنها لامرأة تمتـعت بالجمال أثناء فترة شبابها - كانت يداه رقـيقتـين - كما أن صوته يشـبه صوت القـسيس وهو يتحدث اللغة اللاتينية - كما أنه ليس من الضرورى أن توضع فيه أية عصافير - قالها وهو يقوم بتـوجيه القفص ليكون أمام جمهور الحاضرين وكأنه يقوم ببيعه - يكفى أن يعلق وسط الأشجار فيغنى

مثل العصافير - ثم عاد لوضع القفص على المنضدة، وفكر هنيهة وهو ينظر إليه ثم قال:

- حسن، أنا مستعد لشرائه.

- إنه مباع - قالت أرسولا.

- إنه لابن "شيبى مونتيل" - قال بلتثار - فقد طلب منى صناعته.

اتخذ الطبيب موقفًا مسئولاً.

- هل أعطى لك النموذج؟

- لا - قال بلتثار - لقد قال بأنه يرغب فى قفص كبير مثل هذا من أجل زوجين من طائر التوربيال (عائلة الببغاء).

فنظر الطبيب للقفص ثم قال:

- لكن هذا القفص لا يصلح لطيور "التوربيال"

- نعم يا دكتور - إنه لا يصلح - قالها بلتثار - وهو يقترب من المنضدة. أحاط به الأطفال - لقد أخذت المقاسات فى الاعتبار - قال ذلك وهو يشير بالسبابة إلى الأجزاء المختلفة للقفص، ثم نقر على قبة القفص بظهر أصابعه فملأ القفص رنين عميق.

-السلك الذى استخـدم فى صنعه شديد المقاومـة، كما أن كل توصيلة تم لحامها جيداً من الداخل والخارج - قال بلتثار.

- القفص يصـلح أيضًا للببـغاوات - تدخل أحـد الأطفال بالقول.

- هو ذاك - قال بلتثار.

هز الطبيب رأسه.

- حسن لكنه لم يعطك النموذج - قال - ولم يطلب منك شـيئًـا محـدداً، وكل مـا طلبه هـو قفص كـبيـر يصلح لطيـور "التوربيال" أليس كذلك؟

- بلى هو كذلك. قال بلتثار.

- إذن ليست هناك مشكلة - قـال الطبيب - هناك فرق بين قفـص يصلح لزوجين من التـوربيال وهذا القـفص، كمـا أنه لا يوجد دليل على أن هذا القفص هو ما طلبوه منك.

- إنه هو نفسه - قال بلتشـار وهو يشعر بشىء من الضيق - ولهذا قمت بصنعه.

صدرت على الطبيب بوادر فقدانه الصبر.

- يمكن أن تصنع آخـراً - قـالت أرسـولا وهى تنظر إلى

زوجها ثم تتـوجه بعينيها إلى الطبيب - سـيادتك لست فى عجلة من الأمر.

- لقد وعدت امرأتى به هذا المساء - قال الطبيب.

- أنا متأسف كثيراً يا دكـتور - قال بلتثار - لكن لا يمكن إعادة بيع شىء مباع.

هز الطبيب كتفيه وقام بتخفـيف العرق على رقبته مستخدمًا منديلاً وتأمل القـفص فى صمت دون أن يحـرك ناظريه عن نقطة محددة كأنه إنسان يتأمل مركبًا أخذ طريق السفر.

- كم أعطوك مقابلاً له؟

بحث بلتثار عن أرسولا دون أن يجيب.

- ستين بيزو - قالت.

ظل الطبيب يرمق القفص.

- إنه قفص جميل - تنهد - جميل للغاية.

ثم تحرك صوب الباب وأخذ يحـرك مروحة اليد بشدة وهو يبتسم ثم اختفت ذكريات ذلك المشهد من مخيلته للأبد.

- مونتيل رجل غنى - قال

لم يكن خوسيه مونتيل غنيًـا بالدرجة التى كان يبدو عليها، لكنه كان قادراً على الوصول إليـها. وعلى بعد قليل من المكان ها

هو هناك فى منزل مليء عن آخره بسروج الخيل، حيث كل شيء قابل للبيع؛ كـان لا يبالى بالحديث عن القفص. أمـا زوجته التى تعيش حالة فزع من الموت فقد أغلقت الأبواب والنوافذ بعد طعام الغذاء واستـرخت ساعتين وعيناها مـفتوحتين فى محـيط الحجرة شبه المظلمـة بينما خوسيـه مونتيل ينام القيلولة. وبينـما هما على هذه الحال فاجأهمـا خليط من الأصوات. عندئذ فتح باب الصالة ورأى جمعًـا من الناس أمام الباب، ورأى بلتـثار وهو فى الوسط يحمل القـفص وقد ارتدى اللون الأبيض بعـد حلاقـة ذقنه. كان وجهه يحمل فرحة الفقراء وهم يقتربون من منازل الأغنياء.

- يا له من قفص رائع - قالت زوجة خوسـيه مونتيل وقد علا وجـهها بريـق وهى تقود بلتثـار إلى داخل المنزل - لم أر فى حياتى قط شيئًا مثل هذا - قالتها وأضافت وهى تشعر بالضيق من الجمع الذى التف أمام باب المنزل - لـكن عليك أن تأخذ القفص إلى الداخل فسوف يحولون الصالة إلى قفص للدجاج.

لم يكن بلتـثار غـريبًا على منزل خـوسيـه مونتـيل. فنظرًا لقدراته والتزامه استدعوه أكثر من مرة ليقوم ببعض أعمال النجارة البسيطة، لكنه لم يشعر بالراحة وسط الأغنياء. عادة ما كان يفكر فيـهم وفى نسائهم الـقبيـحات سيئات الـطباع، وفى العمـليات الجراحـية الكبرى اللاتى يجـرينها، وكان يشـعر بنوع من الشفـقة عليهن، وعندما كان يدخل منـازلهم لم يكن يتحرك إلا وهو يجر قدميه.

- هل بيبى هنا؟ سأل

كان قد وضع القفص على منضدة حجرة الطعام.

- إنه فى المدرسة - قالت زوجة خوسيه مونتيل - وسرعان ما سيعود إلى المنزل - ثم أضافت - مونتيل يأخذ حماماً.

فى الحقيقة لم يكن لدى خوسيه مونتيل وقت للاستحمام، وكل ما فعله هو أن قام برش بعض ماء الكولونيا ليخرج ويعرف ما الذى يجرى. كان رجلاً شديد الحذر لدرجة أنه كان ينام دون تشغيل المروحة الكهربائية وذلك حتى لا يفوته، وهو نائم، سماع ما يجرى فى المنزل.

- تعال لترى هذا القفص المدهش - صاحت زوجته.

كان خوسيه مونتيل ممتلئًا غزير الشعر وقد علق الفوطة على رأسه ونظر من نافذة حجرة النوم.

- ما هذا؟

- إنه قفص بيبى - قال بلتثار.

- نظرت إليه المرأة بحيرة.

- لمن ؟

- لبيبى - أكد بلتثار، ثم توجه إلى خوسيه مونتيل قائلاً : طلب منى أن أصنعه.

لم يكن قد حدث شيء حتى هذه اللحظة، لكن بلتثار شعر بخجل شـديد وكأن أحداً فـتح عليه باب حـجرة الحمـام. خرج خوسيه مونتيل من حجرة النوم وهو يرتدى السروال.

- يا بيبى - صاح.

- لم يصل بعد - همهمت زوجته دون أن تتحرك.

ظهـر بيبى على البـاب. كان طفـلاً فى الثانيـة عشـرة من العمر، أهدابه مجعدة وعليه الهدوء المؤثر الذى لوالدته.

- تعال إلى هنا - قال خوسيه مونتيل - هل طلبت صناعة ذلك؟

طأطأ الطفل رأسه. فـأمسك به خوسيـه مونتيل من رقبـته وأجبره على النظر إلى عينيه.

- أجب.

أمسك الطفل شفتيه بين أسنانه ولم يجب.

- يا مونتيل - همست الزوجة.

ترك خوسـيه مونتيل الطفل واتجـه إلى بلتثار - بلهـجة من يشعر بالاستفزاز.

- أنا شديد الأسف يا بلـتثار - قـال - لكن كان عليك أن تبلغنى قبل أن تبدأ فى العمل. أنت الوحـيد الذى يعنّ له التعاقد

مع حدث - أخذت تعبيرات الهدوء تعتلى وجـهه شيئًا فشيئًا. ثم رفع القفص دون النظر إليه وأعطاه لبلتثار.

- خذ القفص فى الحال وحاول بيعه ما أمكنك - قال ذلك - وأهم شيء أننى أرجوك ألا تناقشنى - ربت على كـتفه - وقال مفسرًا : لقد منعنى الطبيب من الانفعال.

كان الطفل سـاكنًا دون أن يتحـرك له جفن حتى رآه بلتـثار وقد اعتلته الحيرة وهو يحمل القفص فى يده. عندئذ أصدر صوتًا كأنه همهمـة أو كأنه كلب يعبر عن غضبـه، ثم ألقى بنفسه على الأرض وهو يصيح.

كان خـوسيه مـونتيل ينظر إليـه غير مـبال بينمـا تقوم الأم بتهدئته.

- لا ترفعيه من على الأرض - قال - اتركيه ليضرب رأسه فى الأرض وبعد ذلك نعالج الجـرح بالملح والليمون حتى يعـجبه ذلك.

ظل الطفل يـصـيح ويبكى دون دمـوع بينـمـا تمسك أمـه بمرفقيه.

- اتركيه - أصر خوسيه مونتيل.

تأمل بلتثار الطفل وكأنه ينظر إلى حيوان يحتضر من مرض معد. الساعة تقترب من الرابعة.

كانت أرسولا فى هذه الساعة فى منزلها تردد أغنية قديمة وهى تقطع حلقات البصل.

- بيبى - قال بلتثار.

اقترب من الطفل وهو يبتسم ومد يده إليه بالقفص. فوقف الطفل فى قفزة واحدة واحتضن القفص الكبير، ثم ظل يرمق بلتثار من خلال فتحات القفص دون أن يدرى ماذا يقول. لم تطفر دمعة واحدة من عينيه.

- يا بلتثار - قال خوسيه مونتيل برقة - قلت لك أن تأخذ القفص.

- أعد إليه القفص - قالت المرأة آمرة الطفل.

- هو لك - قال بلتثار - ثم توجه إلى خوسيه مونتيل - على العموم لقد صنعته لهذا الغرض.

طارده خوسيه مونتيل حتى الصالة.

- لا تكن أبلهًا يا بلتثار - كان يقول ذلك وهو يحاول منعه من الخروج - احمل حاجتك إلى المنزل ولا ترتكب المزيد من الحماقات. أنا لا أفكر فى دفع فلس واحد.

-هذا لا يهم - قال بلتثار - لقد صنعت القفص لأهديه إلى بيبى. لم أفكر فى أى مقابل.

وعندما أخذ بلتشار يفسح لنفسه الطريق وسط جمع الفضوليين المنتظرين أمام الباب كان خوسيه مونتيل يصيح وهو في وسط الصالة. كان بلتشار منتفخ الوجه وأخذت عيناه في الاحمرار.

- يا أبله - كان يصيح - خذ حاجياتك، ما كان ينقصني هو أن يأتي أي واحد ويصدر أوامره في منزلي، يا لها من مصيبة!

في صالون البلياردو، استقبل الحضور بلتشار مهللين. كان حتى هذه اللحظة يظن أنه صنع قفصًا أفضل من الأقفاص الأخرى، وأنه قد أهداه إلى ابن خوسيه مونتيل حتى يتوقف عن البكاء ولا شيء أكثر.

لكنه أدرك أن ذلك الأمر له أهمية كبيرة لدى الكثير من الناس، وعندئذ شعر بنوع من الانفعال.

- الأمر هو أنهم دفعوا لك خمسين بيزو مقابل القفص.

- بل ستين - قال بلتشار.

- يجب أن ترتفع الهامات إلى عنان السماء - قال أحد الحضور - أنت الشخص الوحيد الذي استطاع أن يأخذ من مونتيل هذا المبلغ من المال. يجب أن نحتفل بهذا.

قدموا له بيرة فـأجابهم بلتشار بدعوتهم جميـعًا على البيرة. ولما كانت هذه هى المرة الأولى التى يشرب فيها فقد سكر تمامًا مع حلول الظلام، كان يتحدث عن مشـروع ضخم عبارة عن صناعة ألف قفص سـعر كل واحـد منها ستـين بيزو، وبعـد ذلك مليون قفص بمبلغ إجمالى ستين مليون بيزو.

- لابد من صناعـة أشياء كـثيرة لنـبيعـها للأغنيـاء قبل أن تواتيهم المنية - قال هذه العبـارة وقد أعماه السكر - كلهم مرضى وسوف يمـوتون. لقد وصل الأمر بهم إلـى أنهم لا يقدرون على الانفعال.

ظل جـهاز الاسـطوانات الآلى يعـزف لمدة ساعـتـين على حساب بلتشار - وشرب الجـميع نخب بلتشار وحظه وثروته وموت الأغنياء. لكن عندما حانت ساعة تناول الطعام تركوه وحده.

انتظرته أرسولا حـتى الثامنة، وكـانت قد أعدت طبـقاً من اللحم المفروم المحمر والمغطى بحلقات البـصل. وقد قال لها أحد الناس أن زوجها متواجـد فى صالون البليياردو وقد جن جنونه من السعادة وأخذ يدعو الجميع إلى تناول البيرة على حسابه. لكنها لم تصدق ذلك ونامت حتى اقترب الليل من منتصفه. كان بلتشار فى الصالون المُضاء حيث توجد به مناضد صغيرة تتسع لأربعة، وهناك كراسٍ تحـيط بها، وكذلـك حلبة للرقص فى الهواء الـطلق حيث

تتنقل هناك طيـور الكروان. كـان وجهـه مـحمـراً، ولما لم يكن باستطاعته السير كان يريد مـضاجعة امرأتين مرة واحدة. لقد أنفق الكثير وكان عليه أن يترك ساعته رهنًا على وعد بأنه سيسدد الثمن في اليـوم التالى. وبعـد ذلك بلحظات، وعندمـا أخذ يسـيـر فى الشارع أدرك أن هناك من ينتزع منه حذاءه، لكنه لم يشأ أن ينسى أجمل حلم فى حياته. ولم تجرؤ على النظر إليه النسوة اللاتى كن ذاهـبات إلى قداس الخامسة فجراً ظنًا منهن أنه ميت.

قيلولة الثلاثاء

(١٩٦٢)

خـرج القطار من الممـر المتـعرج المحـاط بالصـخـور المائلة للحـمرة، ودخل وسط زراعـات الموز المتـراصة التى لا تنتـهى، وأصبح الهواء أكثر رطوبة، اختفت نسمات البحر. دخلت النافذة المفتـوحة دفعـة كثيفـة من الدخان الخانق. وعـلى الطريق الضيق الموازى لخط السكك الحديدية تسير عربات تجـرها الثيران، محملة بعناقيد الموز الخضراء اللون، وعلى الجـانب الآخر تظهر بين الفينة والأخرى مكاتب بهـا مراوح كهربائـية وأفنية تحيط بهـا أسوار من الطوب الأحمر، ومنازل بها مقاعد، ومـناضد صغيرة بيضاء اللون وقد وضعـت جميعـها فى الشرفات بين النخـيل والورود المكسوة بالأتربة. كانت الحادية عـشر صباحًا، ولـكن لم يكن الحر قد بدأ بعد.

- من الأفـضل أن تغلقى زجـاج النافـذة - قـالت المرأة - سوف يمتلئ شعرك بذرات الفحم، حاولت الطفلة أن تغلق النافذة لكن لم تستطع بسبب الصدأ الذى يكسو الشـباك. كانتا المسافرتين الوحيدتين فى هذه العربة المتواضعة من عربات الدرجة الثالثة. ولما ظل دخـان القاطرة يدخل إلى العـربة عـبر النافـذة تركت الطفلة مكانها ووضعت هناك الأمتعة الوحيدة التى تحملانها. كانت عبارة

عن شنطة من مادة بلاستيكية بها بعض الطعام وباقة زهور ملفوفة فى ورق الصحف. جلست على المقعد المقابل وقد ابتعدت عن النافذة، ووالدتها فى المقعد المقابل. كانت كلتاهما ترتديان ملابس الحداد الملتزمة والبسيطة.

الطفلة تبلغ اثنتا عشر عامًا، وهذه هى المرة الأولى التى تسافر فيها، أما المرأة فقد بدا أنها طاعنة فى السن بالمقارنة بابنتها، وهذا يرجع إلى العروق الزرقاء البارزة فى منطقة الحواجب وفى أجزاء مختلفة من جسدها الصغير الطرى الذى لا تتضح معالمه. ترتدى فستانًا يشبه ملابس القساوسة. وتجلس وهى تسند ظهرها إلى مسند الكرسى. وبكلتا يديها تسند فى حجرها شنطة من الجلد اللامع وقد تقشرت. كانت تبدو عليها ملامح الهدوء مثل هؤلاء الناس الذين تعودوا على الفقر.

أخذت الحرارة تشتد فى الثانية عشرة. توقف القطار لعشر دقائق فى محطة ليس بجوارها أية قرى وذلك للتزود بالمياه. وفى وسط الصمت الغامض للمزروعات كان الظل نقيًا، لكن الهواء المتوقف داخل عربة القطار كان يحمل رائحة جلد غير مدبوغ. بعد هذه المحطة لم يعد القطار إلى السرعة المعهودة. وتوقف بعد ذلك عند قريتين متشابهتين حيث المنازل الخشبية المطلية بالألوان الزاهية. مالت المرأة برأسها وغرقت فى غفوة. قامت الطفلة بخلع حذائها ثم ذهبت بعد ذلك إلى المرحاض لتبلل باقة الزهور الذابلة.

وعندما عادت، كانت الأم تنتظرهـا لتناول الطعام، أعطتها قطعـة من الجبن ونـصف فطيـرة من فطائر الذرة وقطـة بسكويت مسكرة، وأخرجت لنـفسها نفس الكميـة من الشنطة المصنوعة من المادة البلاسـتيكية. وبينمـا تتناولان الطعام مـر القطار ببطء شديد على كوبرى معدنى، وعن بعيد ترى قرية شـبيهة بالقرى السابقة. والفارق هو أن ميـدان القرية كان غاصًا بالـناس. هناك تقف فرقة موسيقية تعزف مقطوعة مرحة، بينما الشمس تضرب بقوة، وعلى الجـانب الآخـر هناك وادى تحـيط بـه الصـحـراء مـعلنة حـدود الزراعات.

توقفت المرأة عن الأكل، ثم قالت:

- البسى الحذاء.

نظرت الطفلة إلى الخـارج فلم تر شيـئًا إلا الوادى القـاحل الذى أخذ الـقطار يعبـر منه ويأخذ سـرعتـه المعتادة مـن جديد. وقامت بوضع الـبقيـة الباقيـة من البسكويت فى الشنـطة ولبست حذائها. ثم قامت المرأة بإعطائها المشط وقالت :

- قومى بتسريح شعرك.

وبينما كانت الطفلة تسرح شعرها كان القطار يصفر، قامت المرأة بتجفـيف العرق على رقبتـها، وأزالت عرق وجههـا بمسحة بأصابعـها. وعندمـا انتهت الطفلة من تسـريح شعرهـا مر القطار

بالمنازل الأولى لقرية أكبر من القرى السابقة.

- إذا ما كنت تريدين أن تفعلى شيئًا فعليك أن تفعليه الآن - قالت المرأة - فعليك ألا تشربى ماءًا من أى مكان حتى ولو اشتد بك العطش. وأؤكد على أنك لا يجب أن تبكى.

هزت الطفلة رأسها بالموافقة. كان الهواء الساخن والجاف يدخل من النافذة، وقد اختلط بصفير القاطرة والصوت الرتيب لعربات القطار القديمة. قامت المرأة بلف الشنطة بما بها من بقايا الطعام ثم وضعت فى الشنطة الجلدية. ظهرت صورة القرية كاملة منعكسة على النافذة كأنها وميض. كان اليوم هو الثلاثاء خلال شهر أغسطس. قامت الطفلة بلف باقة الزهور فى ورق الصحف المبلل وابتعدت أكثر عن النافذة ورمقت أمها بثبات. فهدأت الأم من قلق ابنتها. كان القطار قد توقف عن الصفير وأخذت سرعته تقل وتوقف بعد ذلك بلحظات.

لم يكن هناك أحد فى المحطة. وعلى الجنب الآخر من الشارع كان الرصيف مظللاً بأشجار اللوز، ولم يكن مفتوحًا إلا صالون البلياردو. القرية تغط فى القيظ. نزلت المرأة والطفلة من القطار وعبرتا المحطة المتهالكة حيث بلاط الأرضية تحيط به الحشائش من كل ناحية. ثم عبرتا الشارع حتى الرصيف الظليل.

الساعة تقترب من الثانية. والقرية تعيش فى هذه اللحظة

فترة القيلولة، فقد كانت المحلات والمكاتب العامة والمدرسة البلدية تغلق أبوابها فى الحادية عشرة، ثم تعود لاستئناف نشاطها قبل الرابعة بقليل، أى عندما يمر قطار العودة. ولم يظل مفتوحًا إلا الفندق الكائن أمام المحطة - والكانتين وصالون البلياردو ومكتب التلغراف الكائن إلى جوار الميدان. أما المنازل التى بنى معظمها طبقًا للنموذج الذى نفذته شركة الموز فقد كانت أبوابها مغلقة، أسدلت السواتر الخشبية على النوافذ. الحرارة شديدة داخل بعض هذه المنازل لدرجة أن سكانها كانوا يتناولون طعام الغذاء فى الفناء. وهناك آخرون قد جلسوا على بعض المقاعد يستظلون بأشجار الجوز ويقضون ساعة القيلولة فى الشارع.

أخذت المرأة والطفلة تسيران وهما تحتميان بظل شجر اللوز دون أن تعكرا صفو القيلولة على أحد. واتجهتا مباشرة إلى منزل القس. حكت المرأة الشبكة المعدنية للباب بأظافرها وانتظرت لحظات ثم عادت لتنادى. فى الداخل كان ينبعث صوت مروحة كهربائية. لم تسمع أية خطوات، هناك فقط صرير خفيف لباب يفتح ثم صوت حذر يقترب من الشبكة المعدنية : "من الطارق؟" حاولت المرأة أن تعرف المتكلم عبر الشبكة المعدنية.

- إنى أريد التحدث إلى الأب.
- إنه نائم الآن.
- الأمر عاجل - أصرت المرأة.

كان صوتها ينبئ عن عزم هادئ.

فتح البـاب بعض الشيء دون أى صريـر، وظهرت امـرأة ناضجـة وممتلئة وشاحبـة اللون، وشعرها حـديدى اللون. كانت عيناها تبدوان صغيرتين جدًا وهما خلف زجاج النظارة الطبية.

- ادخلا - قالتها وفتحت الباب.

دخلتا حـجرة صـغيرة تفـوح منها رائحة مـعتـقة للزهور. قادتهما سـيدة المنزل إلى مقعد خشبى وأشـارت إليهما بالجلوس. جلست الطفـلة، لكن الأم ظلت واقـفـة بلا حـراك وهى تحـمل الشنطة الصغيرة بين يديها، لا تسـمع أية جلبة غير صوت المروحة الكهربائية.

ظهرت سيدة المنزل على الباب الداخلى.

- إنه يقول: عليكما أن تعـودا بعد الثالثة - قالتـها بصوت خافت - لقد خلد للنوم منذ خمس دقائق.

- إن القطار سوف يغادر البلدة فى الثالثة والنصف - قالت المرأة.

كان ردها موجزًا وواثقًا، لكن ظل صـوتها هادئًا، ابتسمت سيدة المنزل لأول مرة.

- حسن - قالت.

عندما أغلق الباب الداخلى مرة أخرى، جلست المرأة إلى جوار ابنتها. كانت صالة الاستقبال الضيقة متواضعة ومنظمة ونظيفة. وعلى الجانب الآخر من أحد الحواجز الخشبية التى كانت تقسم الحجرة. كانت هناك منضدة للعمل، تتسم بالبساطة، يغطيها مفرش من البلاستيك وفوقها ماكينة للكتابة قديمة الصنع، وإلى جوارها كوبًا به بعض الزهور. وخلف ذلك كان أرشيف الكنيسة الصغيرة. ومن الواضح أن المكتب قد رتبته امرأة غير متزوجة.

عندما فتح الباب الداخلى مرة أخرى ظهر القس وهو ينظف زجاج النظارة بمنديل، وعندما وضعها على عينيه بدا من الواضح أنه شقيق السيدة التى فتحت لهما الباب.

- ماذا يمكن أن أفعل لكما؟ سأل.

- مفاتيح المقابر - قالت المرأة.

كانت الطفلة تجلس وهى تحمل الزهور فى حضنها وقد التفت رجليها تحت المقعد.

نظر إليها القس ثم نظر بعد ذلك للمرأة ثم نظر إلى السماء الصافية عبر الشبكة المعدنية للنافذة.

- إن الجو حار جدًا - قال - كان من الممكن أن تنتظرا حتى قبل الشمس قليلاً.

حركت المـرأة رأسها فى صـمت. انتقل القس إلـى الجانب الآخر من الحـاجز الخشـبى وأخذ كراسـة مجلدة بالبلاسـتيك من الدولاب، ثم قلمًـا من البوص ومـحبرة، وجلس إلى المـنضدة. والشعـر الذى كانت رأسـه تفتـقر إليـه كان يزيد عن حـدة على ذراعيه.

- أى مقبرة سوف تزوران؟ - سأل.

- إنها مقبرة كارلوس ثنيتنو - قالت المرأة.

- كارلوس ثنتينو - كررت المرأة.

ظل القس على وضعه وكأنه لم يفهم شيئًا.

- إنه اللص الذى قتلوه هنا خلال الأسبوع الماضى - قالت المرأة بنغمة ثابتة - أنا أمه.

تفـحصـها الـقس جيـدًا، ونظرت إليـه المرأة بثبـات وهى متـماسكة وهادئة. وشـعر الأب بشىء من الخـجل. وطأطأ رأسه ليكتب. وبينما يملأ الورقة بالبـيانات أخذ يطلب من المرأة بياناتها الشخصية، فكانت تجيبه بلا تردد، وتذكـر التفاصيل الدقيقة كأنها تقرأ نـصًا. أخذ الأب يتـصبب عـرقًا، فكت الطفـلة أزرار حذاء قدمها اليسرى ثـم خلعت الحذاء وسندت رجلها إلى رجل المقعد، وفعلت نفس الشىء مع القدم اليمنى.

بدأت الخـيوط الأولى للأحـداث يوم الاثنين من الأسبـوع الماضى فى حوالى الثـالثة فـجراً، وعلى مسـافة قصـيرة من هذا المكان. شعرت السيدة دبيكا - وهى أرملة تعيش بمفردها فى منزل ملىء بالأمتعة المتهالكـة - بأن ثمة صوت يسمع من خلال صوت المطر الخفيـف، وأن أحدًا ما يحاول أن يكسر الـباب من الخارج. فنهضت وبحثـت وسط ملابسها عن مسـدس قديم لم تنطلق منه أى طلقة، منذ أيام العـقيد "أوريليـانو بوين ديا"، ثم اتجهت إلى الصالة دون أن تشـعل النور. وأخذت تتوجه يقـودها خوف تربى داخلها على مدى ثمانية وعشرين عامًا باحثة من خلال خيالها عن المكان الذى فيه الباب وكذا الارتفاع المحدد للمزلاج.

أمسكت السلاح بكلتـا يديها ثم أغمضت عينيـها وضغطت على الزناد ولأول مرة فى حياتها تطلق النار. وبعد هذه الطلقة لم تشعر بشىء على الإطلاق اللهم إلا صـوت قطرات المطر المتساقطة على السقف المصنوع من الزنك. وبعد ذلك سمعت صوت ارتطام معـدنى على الرصيف الأسـمنتى وصوت واهـن ومستـسلم لكنه منهك للغاية.

" آه يا أمى" كـان الرجل الميت والملقى أمـام المنزل، وقـد تهتك أنفـه، يرتدى فانلة مقلمة وبنطلونًا عـاديًا يربطه بحبل بدلاً من الحزام. كـما كان حـافى القدمين. لـم يتعرف عليـه أحد فى القرية.

- إذن كان اسمه "كارلوثنتينو" - همهم الأب عندما انتهى من الكتابة.

- كارلوس ثنتينو أيالا - قالت المرأة - كان الابن الوحيد.

عـاد القس إلى الدولاب. وفي داخل البـاب كـان هناك مفتاحان قـديمان يعلوهما الصدأ معلقان على أحد المسامير، وقد عاشت الطفلة والأم عندما كانت طفلة، وكذلك القس عندما كان صغيراً خيال هذه المفاتيح على أنها مفاتيح القديس بطرس. فأخذها ووضعها على الكراسة المفتوحة وأشار بالسبابة إلى مكان على الصفحة المكتوبة وهو ينظر إلى المرأة.

- وقعي هنا.

نقشت المرأة اسمها وهي تمسك بالشنطة الجلدية تحت أبطها. وأخذت الطفلة الزهور ثم توجهت إلى الحاجز وهي تجر حذاءها وتراقب أمها باهتمام.

تنهد القس.

- ألم تحاولي أن تجعليه يسير في الطريق القويم؟

- فأجابت المرأة بعد أن فرغت من نقش اسمها.

- كان رجلاً طيبًا.

أخذ القس يتنقل بـعينيه بين الأم والطفلة ورأى وهو يشـعر بشيء من الخـجل الرحيم أنهـما لـم تدمـعا. اسـتمـرت المرأة فى حديثها دون أن تتغير نبرتها.

- لقد قلت له بألا يـسرق أبدًا من إنسان يكون فى حـاجة للطعام، وكان يعمل بما أقول لـه. وقبل ذلك، عندما كان يمارس رياضـة الملاكـمـة كـان يقضـى ثلاثة أيام فى السـرير يعـانى من الكدمات وآثار اللكمات.

- اضطر لخلع أسنانه كلها - قالت الطفلة.

- بالفعل - أكـدت المرأة - وكل لقمـة كنت أمضغـها فى تلك الفترة كـان طعمها هو الضربات التى يكيلونهـا لابنى مساء السبت.

- لا راد لقضاء الله - قال الأب.

لكنه نطق العبـارة بشيء فيه بعض من عـدم الاقتناع، ذلك من تجـارب الحياة وكـذلك بتأثـير الحر. طـلب منهمـا أن تحمـيا رأسيهمـا حتى لا تصابا بضربة شمس. أشـار وهو يتثاءب ويكاد ينام إلى الطريقـة التى تستطيعـان من خلالها الـعثور على القـبر. وعندما تعودان ليس من الضرورى أن تناديا عليـه، وما عليهما إلا أن تتركا المفاتيح من تحت الباب وكذلك صدقة للكنيسة إذا ما كان معهما. أنصتت المـرأة للشرح باهتمام بالغ، لكنها شكرته دون أن تبتسم.

وقبل أن يفتح الأب الباب المؤدى إلى الشارع أدرك أن هناك أحد ما ينظر إلى من بالداخل إذ كانت أنفه ملتصقة بالشبكة المعدنية للباب. كانوا مجموعة من الأطفال، وعندما فتح الباب عن آخره تفرقوا. وعادة ما لا يوجد أحد فى الشارع فى مثل هذه الساعة، لكن كان هناك الأطفال ومجموعات من الناس تحت ظلال الجوز. تفحص الأب الشارع الذى تبدلت أحواله - وأدرك ماذا يحدث. ثم عاد لإغلاق الباب فى هدوء.

- انتظره دقيقه - واحدة - قال هذه العبارة دون أن ينظر إلى المرأة.

ظهرت أخته على الباب الداخلى وهى تحمل جاكتة سوداء على قميص نومها، وقد انساب شعرها على كتفيها، نظرت إلى الأب فى صمت.

- ماذا هناك. سأل الأب.

- لقد تنبه الناس - همهمت الأخت.

- من الأفضل أن تخرجا من باب الفناء - قال الأب.

- لا فرق - قالت الأخت - الناس فى كل مكان.

- وحتى هذه اللحظة بدا أن المرأة لم تفهم ما يجرى - حاولت أن تتطلع إلى الشارع من خلال الشبكة المعدنية ثم أخذت

باقـة الزهور من الطفلة واتجـهت صوب البـاب. فسـارت الطفلة خلفها. قال الأب:

- انتظرا حتى تميل الشمس قليلاً.

- سوف تتصـببان عرقًا - قـالت الأخت وهى ساكنة وسط الصالة - انتظرو وسوف أعيركما شمسية.

شكرًا ردت المرأة الأمر أفضل هكذا.

أمسكت ذراع ابنتها وخرجت إلى الشارع.

جنازة الأم الكبرى

(١٩٦٢)

أيها الجاحدون فى هذا العالم، هذه هى القصة الحقيقية للأم الكبرى، العاهل المطلق لمملكة ماكوندو، التى عاشت ولها السيطرة الكاملة طوال اثنين وتسعين عامًا، ثم توفيت وكأنها قديسة، يوم الثلاثاء من الشهر الماضى وحضر قداسة البابا تشييع جنازتها.

لقد استعادت الأمة توازنها بعد الهزة العميقة التى أصابتها. كما أخذ العديد من الناس يلتقطون أنفاسهم بعد فترة ترقب وانتظار طويلين. كان منهم عازفو مزمار القرية ومهربو بلدة "غواخيرا" ومزارعو الأرز فى "سينو" وفتيات الليل فى "غواكامايال" والسحرة فى "سيربى" ومزارعو الموز فى أراكاتاكا. كما عاد رئيس الجمهورية لاستئناف مهام منصبه، وكذلك الوزراء وكل هؤلاء الذين يتولون مناصب عامة، وأولئك الذين يمثلون قوى ما وراء الطبيعة أثناء الفرصة السانحة التى تمثلت فى هذه الجنازة العظيمة التى تسجلها صفحات التاريخ. الآن وقد صعد قداسة البابا إلى الملأ الأعلى جسدًا وروحًا وأضحى من المستحيل التجول فى ماكوندو نظرًا لكثرة ما خلفته الجنازة من زجاجات فارغة وأعقاب السجائر والعظام المكسرة والعبوات المعدنية والخرق

البالية والروث إلى غير ذلك مما خلفته الجموع التى حضرت الجنازة. ها قد حانت ساعة وضع كرسى عالٍ والجلوس على قارعة الطريق والبدء فى سرد تفصيلى لهذا الفورانٍ الوطنى قبل أن يتوفر الوقت لدى المؤرخين.

منذ حوالى أربعة عشر أسبوعًا وبعد اليالٍ طويلة لا تنتهى من الكمادات ولصقات الخردل والحجامة، أمرت "الأم الكبرى"، التى أنهكها هذيان الاحتضار بأن يجلسوها على سريرها الشبكى القديم لتعبر عن طلبها الأخير. وكان ذلك هو الشىء الوحيد السابق على موتها. فصباح ذلك اليوم كانت قد أنجزت كل التفاصيل المتعلقة بروحها من خلال الأب أنطونيو إيسابيل. أما ما بقى فكان توزيع ثروتها على أبناء إخوتها ويبلغ عددهم تسعة وهم الورثة الطبيعيون لها والذين تحلقوا حول سريرها. ظل القس يتكلم بمفرده، كان على وشك إكمال مائة عام من العمر، وبقى فى الحجرة. لكنه حتى يصل إلى حجرة الأم الكبرى كانت هناك حاجة إلى مساعدة عشرة رجال، واستقر الرأى على أن يظل فى هذه الحجرة حتى يوفروا على أنفسهم تعب نزوله وصعوده مرة أخرى فى الدقائق الأخيرة.

ذهب نيكانور ابن الأخت الكبرى - الضخم الجثة، الفظ، الذى يرتدى الكاكى وحذاء ذا رقبة به مهماز ويحمل مسدسًا عيار ٣٨ ذا ماسورة طويلة يضعه تحت القميص - للبحث عن الكاتب

المحلف. توقف كل شيء منذ أسبوع في البيت الضخم المكون من طابقين والذى تنفذ فى أرجائه رائحـة العسل الأسود والكافور وما تحتويه خزائنه من صناديق وحاجيـات قديمة تعود إلى أربعة أجيال مضت وقـد تحولت كلهـا إلى رماد، انتظارًا لهـذه اللحظة. وفى الردهة الرئيسية الممتدة والمليئة بأسياخ الحديد التى كانت تعلق فيها لحوم الخنزير المملحة وتصفى الأيائل من دمها أيام الآحاد من شهر أغسطس، كان العمال ينامـون متراصين على أجولة الملح، وعلى رد عدد العمل فى الحقول انتظارًا للنواح والإعلان بذلك عن الخبر السيئ وسط أرجـاء ذلك المُلك الذى لا حدود له. أمـا باقى أفراد الأسرة فـقد ظلوا فى الصالة. فـالنساء اتشحن بالسـواد وأصابهن الشـحوب مـن جراء القلق علـى الميراث والسـهـاد. كن يرتدين ملابس الحداد المبالغ فيـها وكأنه حداد فوق حداد. ذلك أن "الأم الكبرى" اتسـمت بالتشـدد فى مشاعـر الأمومة وأحـاطت ثروتها واسـمهـا بسـياج مـتين بـداخله كان الأعـمـام يتزوجـون ببنات الأخوات، وأبناء الأعمـام يتزوجون بالعمات، والأخـوة يتزوجون بأصهارهن من النساء حتى أصبح الأمر عبارة عن شبكة معقدة من القـرابة، وبذلك دخلت عمليـة التناسل فى حلقـة مفرغـة. ولم تسـتطع الإفلات من هذا الحـصار إلا "مـاغـدالينا" أصغـر بنات الأخوة. ولما أفـزعها الـهذيان قام برقـياها الأب أنطونيـو إيسابيل وحلقت شـعر رأسـها ورفـضت ملذات الدنيا وسـارت فى طريق الرهبنة. وإلى جـانب أفـراد العائلة الرسـمـيين كـان الذكور قـد

استخدموا حقهم فى فض بكارة عـرائس مخدوميهم المنتشرين فى الأكواخ والعـزب والمنازل، وبذلك كان هناك عـدد كبـير من أبناء السفـاح منتشـرين بين الناس البسطاء وليس لهم ألـقاب اللهم إلا الابن بالتبنى والتابع والمفضل والذى يحظى بحماية الأم الكبرى.

أثار قـرب أجل الأم الكبـرى حـالة ترقب شـديدة. كـان صوت هذه التى تحـتضر والتى تعودت على عـبارات المديح وعلى أن يطيعها الآخـرون واهنًا كأنه أقل درجات آلة الأرغن، لكنه مع كل هذا له صداه فى كافة أرجاء أملاكها. فلم يكن أحد بمعزل أو غير مـبال بحالة الوفاة هذه. كانت الأم الـكبرى طوال هذا القرن بمثابة مـركز الجاذبيـة فى ماكوندو، كـما كان على ذلك أشـقاؤها ووالديها وأجدادها فى الماضى الذى امتـد لقرنين من الزمان. لقد تأســست القرية حـول لقبــهـا، ولم يكن أحد يعـرف الأصل أو الحدود أو القيمة الحـقيقية للتركة، إلا أن الناس جمـيعهم اعتادوا على الظن بأن الأم الـكبـرى هى مـالكة للمـيـاه، الجـارية منهـا والراكدة، الآتية عن أمطار سابقـة أو لاحقة، وأنها مالكة الطرق المجاورة وأعـمدة التلغراف. والسنوات الكبـيسة والحـر، وأن لها الحق الموروث على الحـيـاة والأملاك. وعـندما تجلس فـى شرفـة منزلها بجـسدها الضـخم وسلطانها المحشـورين فى هذا الكرسى الهزاز القديم لتـستمتع بنسمـات ما بعد الظهيرة كـانت تبدو قوية وغنية، أى السيدة الأكثر قوة وغنى فى هذا العالم.

لم يخطر على بال أحد أن "الأم الكبرى" فانية، اللهم إلا أفراد عائلتها، وكذلك هى نفسها بعد أن وخزتها علامات الشيخوخة التى يعانى منها الأب أنطونيو إيسابيل. إلا أنها كانت واثقة أنها سوف تعيش أكثر من مائة عام مثل جدتها لأمها التى استطاعت خلال حرب عام ١٨٧٥ أن تواجه دورية للعقيد "أوريليانو بوين ديا". وقد فعلت ذلك متحصنة فى مطبخ أعزل. إلا أنه أثناء شهر أبريل من هذا العام عرفت الأم الكبرى أن الله لن يساعدها على أن تقوم بنفسها بالقضاء على مجموعة من الماسونيين الفيدراليين.

خلال الأسبوع الأول من مرضها قام الطبيب بتخفيف الآلام من خلال ضمادات الخردل والجوارب الصوفية. كان طبيبًا بالوراثة، تخرج فى مونبيلييه، وكان على قناعة تامة بعدم جدوى التقدم فى مضمار الطب. وقد قامت الأم الكبرى بمنع أى طبيب آخر لإقامة عيادته فى ماكوندو. وفى الزمن الذى مضى كان يطوف بأرجاء القرية ممتطيًا صهوة الجواد، وذلك لزيارة مرضاه فى فترة المساء. كما أن الطبيعة حبته ميزة أن يكون أبًا لأبناء ليسوا من صلبه. لكن التهاب المفاصل جعله يقبع فى مكانه، وانتهى به الأمر ليعود مرضاه دون زيارته لهم، وكان ذلك من خلال المراسيل والافتراضات وتناقل الأخبار المرضية.

وعندما طلبته الأم الكبرى عبر الميدان وهو يرتدى البيجامة متكئًا على اثنين من العصى، واستقر به المقام فى حجرة نوم

المريضة. وعندما أدرك أن الأم الكبرى تعـيش لحظاتها الأخيرة أمر بأن يأتوا له من المنزل بصندوق فيـه بعض الأوانى من البورسلين، وقد كتبت عليها بعض الرموز باللغة اللاتينية. قام بدهان المحتضرة فى الأجـزاء الظاهرة وتحت المـلابس بمجـمـوعـة من اللصـقـات الأكاديمية وماء الورد الطبى والتحاميل العظيمة التأثير. وبعد ذلك وضع على مكان الألم علجـوم مبلل والعلق على الكليتـين حتى فجر ذلك اليوم الذى كان عليـه أن يواجه أحد أمرين: إما أن يتم استـدعاء المتخصص فى الحـجامة، أو يقوم الأب أنطونيـو إيسابل بقراءة بعض التعاويذ.

أمر نيكانو بالبحث عن القسيس، وقـام أفضل عشرة رجال عنده بحمل الرجل من المنزل المخصص للقساوسة حتى مخدع الأم الكبـرى وهوة جالس على الكرسى الهـزاز المصنوع من الخـيزران الذى وضعت عليه شلتـة خاصة للمناسبـات الكبرى. كان توزيع الطعام ذات صبـاح حار من شهر سبتـمبر أول بادرة لإبلاغ سكان ماكوندو. وعندما أشرقت شمس ذلك اليـوم تحول الميدان الصغير المواجه لمنزل الأم الكبرى إلى واحد من مشاهد الأسواق الريفية.

بدا الأمر وكـأنه إحياء لذكرى أزمنة مـضت، وذلك عندما بلغت الأم الكبرى السـبعين من العـمر واحتـفلت بعيد مـيلادها احتفالاً بهيجًا وطويلاً لم يعـرف بمثله من قبل، فقد نصبت أماكن تقـديم المشروبـات الكحوليـة لكل أبناء القـرية وذبح العـديد من

رؤوس الماشيـة فى الميدان العـام. وتم استدعـاء جوقة مـوسيقـية أخـذت تعـزف دون انقطاع لمدة ثلاثة أيام. وتحت ظلال أشـجـار اللوز، التى علا التراب أوراقها، عسـكرت قوات العقيد أوريليانو بوين ديا، وأقـيـمت منافـذ لبـيع خـمـر قصب الـسكر والفطائر والسجق المحـشو بالدم، وشحم الخنزير المقلى، والـفطائر المملحة المحشوة، والسجق والجبن والكعك المقلى والرقاق المحشو والنقانق الأسـبـانيـة وأحـشـاء الذبائح والكعك المصـنوع من جـوز الهند ومشتقـات عصير قصب السكر المخمـر. وإلى جانب ذلك العديد من أماكن بيع أدوات التزيـن الصغيرة والبسـيطة، وكذا أماكن بيع الأوانى وحلقات مصارعـة الديكة ومناضد لعب اليانصيب ووسط ذلك الجـمع الحـاشـد من الأمـاكن والناس كـانت تبـاع الصـور والأوشحة التى تحمل صورة الأم الكبرى.

كانت الاحتفالات تبدأ قبل يوم عـيد الميلاد بيومين، وتنتهى بعـد ثلاثة أيام. وفى اليـوم الثالث تطلق الألـعاب النارية وتقـام حلبات للرقص بـين أفراد الأسر داخل منزل الأم الكبـرى، وكان يقوم على تلبـية وخدمـة المدعويين وباقى أبناء أسـرة الأم الكبرى هؤلاء، أبناء السـفاح. المدعـوون وغيـرهم يرقـصون على أنغـام البيـانولا القديمـة التى تم تزيينها بأشـرطة حديثـة. الأم الكبرى ترأس الاحتفـال وهى جالسة فى عمق الصـالون على كرسى وقد حُشيت حولها الوسائد الصوفيـة. وأثناء الاحتفال تصدر تعليماتها

بطريقـة مستـترة من خـلال تحريك يدها اليـمنى التى تزين كـافة أصابعها خواتم مختلفة. وفى تلك الليلة كانت تقوم بترتيب وعود الزيجـات للعام التـالى، وذلك يتم إما بالاتفـاق مع العـشاق أو انطلاقًا مـن تخمينهـا الشخـصى. كانت الأم الكبـرى تخرج إلى الشرفـة فى تلك الليلة لتعلن انتـهاء الاحتـفالات وهى تضع على رأسـهـا بعض الحلوى والأوراق الملونة وتلقى بـقطع العـملة على جمهور الحاضرين.

كانت هذه الاحـتفـالات قد توقـفت وذلك لفتـرات الحداد المتعاقبـة للأسرة، وكذا لعدم الاستقـرار السياسى الذى لوحظ فى الأعوام الأخـيرة. ولم تشهـد الأجيال السـابقة تلك الاحتـفالات البهيـجة إلا عن طريق الروايات التى يتم تناقلها عبـر الأجيال. إذ لم تسـتطع تلك الأجـيـال أن تشـهد الأم الـكبرى وهى تحـضـر القداس، ويقوم بعض أفراد السلطة المدنية بالتـهوية عليها، وكانت تفخر بميزة أنها لا تركع أثناء القداس حفاظًا على التنورة المصنوعة أدوارها فى هولندا. وحتى لا يتجعـد الثوب المكوى بالنشاء. كان كبار السن يتذكرون الحصير الممتد لمسافة مائتى متر من المنزل وحتى المذبح الكبيـر وكأنهم يهذون بلمـحات من أيام الصبا. يتـذكرون أيضًا ذلك المساء الذى حضرت فيه "مـاريا دل روساريو كاستانبيدا إى مونتيرو" تشييع جنازة والدها ثم عادت بعد ذلك وهى ممشوقة القوام رافعة رأسها ترتدى الحلل البـهية لمركزها الجديد وقد تحولت

إلى الأم الكبرى وهى فى سن الثـانية والعشـرين. وتنسب صورة العـصـور الوسطى هذه لا إلى مـاضى الأسرة فـحـسب، بل إلا ماضى الأمـة أيضًا. ومع مرور الأيام أصبـحت لا ترى إلا قليلاً، وعندما تظهـر كان ذلك قبل المساء فى شـرفتها وقد أحـاطت بها حـرارة الجـو. وبذلـك كـانت صـورة الأم الكبـرى تـأخـذ نمطًا أسطوريًا. تمارس سلطاتها من خلال نيكانور. كـما أن هناك عهداً غير معلن، على أساس التقاليد، يقول بأنه عندما يأتى اليوم الذى تنتهى فيه الأم الكبرى مـن كتابة وصيتها وختمـها بالشمع الأحمر يقوم الأقرباء بإعـلان الاحتفالات الشعبـية لمدة ثلاث ليالى. لكن كان معروف أيضًا أنها قررت عـدم الإفصاح عن آخر رغبة لها إلا عند اللحظات الأخيرة لحيـاتها. ولم يكن أحد يفكر جديًا فى أن الأم الكبرى سـتموت يومًا. لكن عندمـا استيقظ سكان مـاكوندو ذلك الصباح على توزيع طعام الصـدقة اقتنعوا ليس فقط بأن الأم الكبرى فانية بل أنها تحتضر.

كانت سـاعتها أكـيدة. فهى ملقـاة فى سريرها المصنوع من الكتان وقد ضـمـد جسدها حتى أذنيها بالألوة وعلتـها ظلة أهدابها متربة، ولا تكاد عـلامات الحياة تلاحظ من خلال تنفـسها الواهن الذى يلمح عبـر الحركة الضـعيفة لنهـديها الكبيـرين. كانت الأم الكبـرى - التى تقدم لهـا العرسـان من كل صوب وحـدب حتى بلغت سن الخمسين، لكنها رفضتهم جـميعًا - تحتضر وهى عذراء

بلا أبناء. وفى لحظة المسحة طلب الأب أنطونيـو إيسابيل المساعدة ليمسح كف يديها بالزيت ذلك أنه عندمـا بدأت لحظات الاحتضار كـانت تقبض يديهـا. لكن لم تفلح فى شـئ تلك المساعـدة التى قدمها أبناء إخوتها. وطوال أسبوع من المحاولات ضمت المحتضرة يدها المليئـة بالأحجار الثـمينة إلى صدرها وسلـطت ناظريها على بنات الأخـوات لكنها كانـت نظرة لا تحمل أى حرارة، ثـم قالت "أيتـهـا الناهبـات" ثم رأت الأب أنطونيـو إيسـابيل وهو يرتدى مـلابس الجنازة وكذلـك مسـاعده وهـو يحمل أدوات القـداس، فهـمهمت بعـبارة فيـها قناعة الإذعـان : "إننى أموت". وعندئذ نزعت من إصبـعها الخـاتم ذا الماسة الكبرى وأعطتـه "لماغدالينا" على أساس أنـها أصغـر الوريثات. كـان ذلك بمثابة نهاية تـقليد وعـرف: ذلك أن مـاغـــدالينا رفـضت هذا الإرث وتـبـرعت به للكنيسة.

عند شروق الشمس طلبت الأم الكبـرى أن يتركوها وحدها مع نيكانور وذلك لإعطائه آخـر وصـاياها.. ولمدة نصف ساعـة طلبت إبلاغها تفـصيليًا بمسار أمورها الماليـة وهى فى كامل قواها العقلية. وقامت بالإعراب عن رغبتها بالنسـبة لمصير ومثوى جثتها وتركت وصـاياها إلى آخـر الحديث: "عليـك أن تكون واعيًـا - قالت - وعليك أن تحافظ على المقتنيات الثمينة ذلك أن الكثير من الناس يقـصدون الجنازات بغـرض السرقـة". وبعد أن أصـبحت

وحيـدة يرافقهـا القس اعترفت تفـصيليًا بآثامـها وتلا ذلك لحظة التناول، لكن هذه اللحظـة كانت فى حـضور أبناء أخـوتها وقـد طلبت عندئذ أن يجلسوها فى الكرسى الهزاز المصنوع من النباتات المتسلقة لتعبر عن آخر رغباتها.

كان نيكانور قد أعد قائمة من أربعة وعشرين صفحة مكتوبة بخط واضح تضم كـافة ممتلكاتهـا. تتنفس باستكـانة وكان الأب والطبيب شاهدين. قامت الأم الكبرى بـإملاء قائمة ممتلكاتها على الكاتب المحلف، وهذه الممـتلكات هى المصـدر الوحيـد والكبيـر لعظمتهـا وسلطتها. ممتلكاتهـا الفعلية عبارة عن ثـلاث إقطاعيات ممنوحة من خلال مـرسوم ملكى أثناء الفترة الاستـعمارية. وبمرور الزمن، ومن خلال زيجـات المصلحة، آل كل ذلك إلى ملك الأم الكبرى. وعلى هذه الأراضى الواسعة وغير واضحة الحدود، التى كانت تنتـشر عبـر خمسـة قرى والتى لم تزرع فيـها حبـة واحدة لحسـاب الملاك، كانت تعيش ٣٥ أسـرة بصفتهـا مستـأجرة لتلك الأراضى. وكانت الأم الكبـرى قبل يوم الاحـتفال بعـيد اسمـها تمارس سلطة الملـكيـة التى حـالت دون عـودة هذه الأراضى إلى أملاك الدولة. وتمثلت السلطة فى تلقى الإيجـار من المستأجرين. فكانت تجلس فى الردهة الداخليـة لمنزلها وتتلقى بنفـسها حـقوق الإقامة على أراضيها سيرًا على عـادة أسلافها التى امتدت ما يزيد على قرن من الزمان. وبعد مرور أيام التـحصيل الثلاثة كان الفناء

يمـتلئ عن آخـره بالخنازير وديوك الرومى والـدجاج والأعـشـار وحصص الفواكـه، كل ذلك كان الحصاد الوحـيد الذى لم تأخذ الأسـرة بيديهـا أبدًا من أراض مـيـتة منذ البـداية، والتى كـانت مساحتـها تقدر بحوالى مائة ألف هكتار. لكن الـظروف التاريخية أدت إلى أن تنمو وتزدهر داخل هذه المساحـة القرى الست التابعة لماكوندو، وبذلـك كانت كان كل من يسكـن فى إحدى الدور لم تكن حقـوقه تتجـاوز حقوق الآخـرين على الأراضى، ذلك أنها كلها تدخل ضـمن أملاك الأم الكبرى، وإليها يـتم سداد الإيجار مثلما يفعل السكان مع الحكومة عندما يقومون بسداد ما عليهم لها مقابل حق استخدامهم للشوارع.

وفى المناطق المحيطة بالكفور كان هناك عدد من الحيوانات، لم يعرف عددها أبدًا، تسير طليقة فى كل مكان وقد ظهرت على مؤخرتـها علامة - بالكى - تشـبه القفل. هذه العلامـة أضحت مألوفة مع مرور الزمان حتى فى تلـك الأماكن القصية التى كانت تصل إليها الحـيوانات والمشتتة، وقد اشتـد بها العطش. كان هذا الوضع هو أحـد الدعـائم الرئـيـسـية عـلى الأسطورة السـائدة. ولأسباب لم يستطع أحد فهم فحواها كانت الاصطبلات قد خلت من الخيـول منذ آخر حرب أهليـة وأخذت تحل مـحلها فى الآونة الأخيرة نـباتات البوص وبعض معـاصر الزيتون ومصنعًـا لضرب الأرز.

وبالإضافة إلى القـائمة المذكورة فى الوصيـة تم إضافة ثلاثة أوانى ضخمة دفنت فى مكان ما فى الدار أثناء حرب الاستقلال، لكن لم يعـثر عليـها بعـد محـاولات عديدة. ويضـاف إلى حق الاستمـرار فى استغلال الأرض المؤجـرة وتلقى الأعشار وتبـاشير الثمار وكل الأنواع الإضافية الأخـرى، إن الورثة يتلقون جيلاً بعد جيل خـرائط معدلة وتوضـيحيـة تساعد على العـثور على الكنز المدفون.

ظلت الأم الكبرى تقوم بتعـداد البنود المتعلقة بالأراضى لمدة ثلاث ساعات، وكان صوتهـا وسط حرارة حجرة النوم يحبط كل بند من هذه البنود بالأهمـية. وعندما وضعت توقـيعهـا المتلعثم، وكذا وقع مـعها الشـهود سرت هزة غامـضة فى قلوب الجمـهور الذى أخـذ فى النوافذ أمـام المنزل واحـتمـى بظلال شجـر اللوز المترب.

كان ما تبـقى هو إحصاء التركـة غير المنظورة. وبعـد جهد جهـيد - مـثلما فـعل ذلك أجدادها قـبل موتهم من أجل تأكـيد استـمرار سـلالتهم - نهـضت الأم الكبرى عـلى عجز ضـخم. وبصوت واثق ومـسيطر أملت عـلى الكاتب قائمـة ممتلكاتها غـير المنظورة.

إنها الثروة التى يخفيـها باطن الأرض والمياه والقلم والسيادة الوطنيـة والأحزاب التـقليديـة وحقـوق الإنسان وحـرية المواطنين

والقضاء من محاكم الدرجة الأولى والثانية والثالثة وخطابات التوصية والثوابت التاريخية والانتخابات الحرة وملكات الجمال والخطب الهامة والمظاهرات الضخمة والآنسات رفيعات المقام والفرسان الأجلاء والأوسمة العسكرية وصاحب الفخامة والمجلس الأعلى للقضاء والمواد التى تمنع الاستيراد والسيدات الليبراليات ومشكلة اللحم وشفافية اللغة ونقائها وضرب المثل الذى يحتذى. والنظام القضائى والصحافة الحرة، لكنها حرية مسئولة. وأثينا الأمريكية اللاتينية والرأى العام والانتخابات الديمقراطية والأخلاق المسيحية وقلة العملة الحرة وحق اللجوء والحظر الشيوعى وغلاء المعيشة وكيان الدولة والتقاليد الجمهورية وطبقات المعدمين ورسائل التضامن.

لم تستطع الانتهاء من القائمة، فكثرة المحتوى أدت إلى ذهاب آخر أنفاسها. ولما غرقت فى خضم بحر الصيغ المجردة التى ظلت طوال قرنين من الزمان بمثابة المبرر الأخلاقى للسيطرة على العالم صدر عن الأم الكبرى صوت تجشوء، ثم لفظت آخر نفس لها.

فى ذلك المساء رأى سكان العاصمة صورة امرأة تبلغ من العمر عشرين عامًا على صدر الصفحات الأولى للصحف فى طبعة خاصة، وفكروا أنها ملكة جديدة من ملكات الجمال. كانت الأم الكبرى تعيش من جديد الشباب المؤقت فى صورتها التى

نشرت فى الـصحف على أربعة أعـمدة بعـد أن خضعـت لبعض الأصناف وقد ظهرت فى الصورة مصففا شعرها إلى أعلى، وعلى رأسـها مـشط عاجى وجـوهرة تزين عـقدة الشـريط. كان أحـد المصورين الجـوالين الذين مروا بماكوندو فى بداية القرن قـد التقط هذه الصورة وحفظتهـا دور الصحف فى الأرشيف طوال سنوات كثيرة ضمن باب الشخصيات غير المعروفة. كان حظ هذه الصورة هو الاسـتمـرار فى مخـيلة الأجيـال القادمـة. وفى الأتوبيسـات القديمة ومـصاعد الوزارات وصالونات الشاى المظـلمة التى بهتت دهاناتهـا. تناقل الناس همسًـا وبوقار السلطة الميتة فـى إقليمـها المشهور بالحر والملاريا. كان اسمهـا مجهولاً حتى تحول إلى كلمة مطبوعة. بلل رذاذ المطر المارة، وأخذت أجراس كل الكنائس تقرع إيقاع الموت. فـاجأ الخبـر رئيس الجمهورية وهـو متوجه لحـضور حفل تخريج دفعـة جديدة من الضباط، فقام بكتـابة تعليماته إلى وزير الحـرب على ظهـر ورقة التـلغراف التى تـتلخص بأن ينهى كلمته بدقيقة حداد تكريمًا للأم الكبرى.

تأثرت الأوضـاع بهذه الوفـاة لدرجة أن رئيس الجـمهـورية الذى كانت تصل إليه أحاسيس سكان المدينة من خلال فلتر تنقية. أدرك ، وهو فى سيارتـه، من خلال نظرة عابرة لكنها فـاحصة، الصمت المتألم الذى يلـف المدينة، فلم تبق مفتوحة للجـمهور إلا بعض المقـاهى التى تكاد تخلو من الزئابن، وأخذت الكـاتدرائية

الكبـرى تستـعـد لتسـعـة أيام من التكريم الجنائزى، وفى مـبنى الكابيـتول الوطنى، حيث ينـام المتسولون، وقـد التحـفوا بأوراق الصحف، إلى جوار الأعمدة الدورية والتـماثيل المكهفرة للرؤساء الذين ماتوا، أُضيئت الأنوار داخل البـرلمان. وعندما دخل المسئول الأول عن البلاد غرفـة مكتبه وقد بدا عليه التأثر بالعـاصمة وهى فى لباس الحداد، كان وزراءه ينتظرونه وهم واقفون شاحبو الوجوه وقد ارتدوا ملابس الحداد.

وُصِفَـت وقائع هذه الليلة والليـالى التاليـة لها بأنـها درس تاريخى ليس فقط على أنها تمثل الروح المسيحية التى كانت مصدر إلهام كبار الشخصيات فى السلطة - بل أيضًا على أساس أنها تمثل حالة التراضى وتوافق المصالح المتضـاربة ووجهات النظر المتعارضة فيما يتـعلق بكيفية دفن رفات عظيم مثـل هذا. فعلى مدى أعوام طويلة اسـتطاعت الأم الكبرى الحـفاظ على السـلام الاجتـماعى والوفاق السـياسى فى إمـبراطوريتهـا من خلال صناديق الاقـتراع الثلاثة التى كانت تخرج من دوائر انتخابية مزيفة والتى كانت بمثابة إرث سـرى لها. فـالذكـور من أتبـاعهـا، وكـذا من تحـميـهم، والمستأجـرين الصغار منهم والكبـار، يمارسون حقهم الانـتخابى سواء الأحياء منهم أو الأمـوات الذين مضى على وفاتهم قرن من الزمـان. هى صـاحـبـة الأولوية على أسـاس أنهـا تمـثل السلطة التقليدية مـقابل السلطة المعارضة. تمثل هيمنة الطبقـة على العامة

وأهميـة الحكمة الإلهيـة فوق الارتجال الفـانى. وخلال أيام السلم كانت بهيمنتـها تعقد الاتفاقيـات وتفك رباطها بشأن وظائف قليلة العمل جزيلة الراتب وأرزاق الكهنة وأرزاق العـاطلين وتسهر على راحة المرافقين ومن أجل ذلك كانت تلجأ إلى الخداع أو الغش فى الانتخـابات. أما فى أوقات الأزمات فـقد أسهـمت الأم الكبرى سريًا فـى تسليح أنصارها وفى نجـدة ضحـاياها فى العلن. وهذه الغيرة الوطنية رشحتها لتحتل أرقى مراتب الشرف.

لم يكن رئيس الجـمهورية بحـاجة إلى استـشارة مسـاعديه لتـقيـيم حـجم مـسئوليـاته، ففى المنـطقة الفـاصلة بين صـالة الاستقبـالات فى القصر والفناء الصغير المرصـوف الذى كان بمثابة مرآب سـيارات لنواب الملوك، كـانت هناك حديقة داخلـية تملؤها الحشـائش الداكنة اللون والتى كان أحـد الرهبان البـرتغاليـين قد انتحر فيها فى الفترة اللاحقـة للعهد الاستعمارى. ورغم ما يحيط بالرئيس من جهاز أمن مهيب لم يستطع إيقاف رعـشة خفيفة شعر بها وهو يعـبر ذلك المكان بعد مغيب الـشمس. إلا أن الحزن هذه الليلة كـان هـو القـوة المسـيطرة. وعندئذ وعـى تمامًـا بمصـيـره التـاريخى، وأصدر قـرارًا بالحداد الوطنى لمدة تسـعة أيام، وكـذا اتخاذ عدة خطوات لتـكريم يتيم للأم الكبرى بصفتـها البطلة التى ماتت فى ميـدان المعركة من أجل الوطن. وقد عـبر عن ذلك فى كلمـة دراميـة وجهـها فـجر ذلك اليـوم إلى الأمة عـبر الإذاعـة

والتليفزيون مـعلنًا ثقته فى أن تشييع جثمـان الأم الكبرى سيكون مثالاً جديدًا يحتذى به فى العالم.

هذه الغايات العظمـى اصطدمت ببعض الصعـاب الخطيرة. فالسلك القضائى فى البلاد، والذى كان يشغله العديد من الأقرباء الأباعد للأم الكبـرى، لم يكن مهيئًـا لمواقف مثل تلك التى على وشك أن تبـدأ. واستـغـرق جهـابذة القـانون والخـبراء بدهاليـز تفسيـراته، فى البحث عن صيغة تسـمح للرئيس حضور الجنازة. وعاش كبـار شاغلى المناصب السيـاسية والدينية والماليـة أيامًا من الترقب والقلق. وفى قاعة البرلمان الفسيحة التى خلخلتها القوانين والتشـريعات المجردة على مدى قـرن من الزمان والمليئـة بلوحات علية القوم والتـماثيل النصفية للفلاسـفة الإغريق، تردد اسم الأم الكبرى كـثيراً فى الوقت الذى أخذت جـثتها تصاب بالتـعفن فى شهر سبتمبر الشديد الحرارة فى ماكوندو. ولأول مرة يتم التحدث عنها فى هذا المكان، ويتم تصـورها بدون الكرسى الهزاز المصنوع من النباتات المتسلقة. وبدون لحظات الغفوة التى كانت تعتريها فى الثانية ظهراً وبدون الـدهانات التى تغطيها. كانوا يرونها نقيـة فتية وقد رسمتها ريشة الأسطورة.

ولسـاعـات طويلة ترددت الكـلمـات والكلمـات التى ذاع صداها فى أنحاء الجمهورية لدرجة فقدانها لقيمتها من خلال أبواق الصحافـة. ولـم يتوقف سيل هذه الكلمات إلا عـندما نهض أحد

الناس الواقعيين وسط جهابذة القانون، وقطع هذا السيل الكلامى مذكراً بأن جـثة الأم الكبرى فى انتظار قرار يتخـذ ودرجة الحرارة ٤٠ فى الظل. لم يتأثـر أحد من جمـهور القانون المكتـوب بهذا الرأى، وكل مـا فى الأمر هو أن صـدرت الأوامر لتـحنيط الجثـة حتى يتم إيجـاد الصيغـة المطلوبة والتوفيق بين وجـهات النظر أو إضافة تعديلات دستورية تسمح لرئيس الجمهورية حُضور الجنازة.

كان الكلام كثيراً كثيراً لدرجة أنه تجاوز حدود الوطن وانتقل عبر المحيط حـتى وصل إلى الأسماع البابوية فى كاستـيلغادولفو. وبعد أن اسـترد البـابا عافيـته من وعكة ألمت به كـان يجلس إلى جوار النـافذة وهو يتطلع إلى البـحيرة ويـشاهد الغواصـين الذين نزلوا تحت الماء بحثًـا عن رأس الأميـرة التى ضرب عنقهـا. وكان ذلك هو الموضـوع الرئيـسى للصـحف المسـائية خـلال الأسـابيع الأخيـرة، ولـم يكن باستـطاعة قداسـة البابا أن يكون بمـعزل عن مشكلة وقعت على مـقربة من مقره الصـيفى. لكن الصحف فى ذلك المساء غيرت فجأة اهتمامـاتها بصور الضحايا ونشرت صورة امرأة تبلـغ من العمر عـشرين عـامًا ووضع على الصـورة شريط الحداد؛ إنهـا صورة الأم الكبرى. وعندئذ صاح قـداسته متـذكراً ملامح اللوحة القديمة التى أهديت إليه منذ أعوام طويلة، بمناسبة توليه كرسى القـديس بطرس. "الأم الكبرى" ردد ذلك كل أفراد المدرسة الكارديـنالية وهم فى حجـراتهم الخاصـة. وللمرة الثـالثة

على مدى عـشرين قرنًا يحدث ارتبـاك وكرب وركض هنا وهناك فى الإمبراطورية المسيـحية المترامية الأطراف، إلى أن قـام قداسته بركوب الجندول الأسـود الطويل المخصص له مـتوجـهًا إلى هناك للمشاركة فى تشييع هذه الجنازة المهيبة للأم الكبرى.

خلّف وراءه الأضواء المتلألئة وطريق "بيا أبيا أنتيكا" بما فيه من ممثلات السينما وهن يأخذن حمام شمس فى الشرفات قبل أن تصل إليـهن الأخـبار؛ كـمـا خلف وراءه أيضًـا القمـة المعـتمـة لكاستيلسا نـياخيلو فى أفق كبير. وعند مغـيب الشمس اختلطت الخطوط القـوية للكاتـدرائية الـبازيلـكية لـلقديـس بطرس باللون البرونزى لماكـوندو. ومن تحت المظلة الواقية من الشـمس ومرورًا بالمواسير المتشابكة والمستنقعات الصامتة التى كانت بمثابة آخر حدود الإمبـراطورية الرومانية وأملاك الأم الكبـرى، سمع قداستـه جلبة القرود الصـاخبة والناجـمة عن وجود الجمـاهير الغفـيرة. وأثناء جولاته الليلية كانت المركبـة البابوية تمتلئ عن آخرها بأجولة نبات اليوكا وعناقيد الموز الأخضر وأقفاص الدجاج وبرجال ونساء تركوا مشاغلهم اليوميـة وحاولوا الحصول على بعض المال من خلال بيع بعض المنتـجات أثناء جـنازة الأم الكبرى، ولأول مـرة فى تاريخ الكنيسة يعانى البابا فى ذلك المسـاء ارتفاع درجة حرارته من جراء السهر ولدغات الناموس. لكن إشراقة الشمس الرائعة على أملاك العجـوز الكبرى ومشـاهدة مملكة النباتات والحيـوانات أبعدت عن

ذاكرته كل آلام الرحلة، وكانت بمثابة تعويض عن التضحية.

تم إيقاظ نيكانور بواسطة ثلاث ضربات على الباب حيث كانت بمثابة الإعلان عن قرب قدم قداسته. ولقد سيطر الموت على المنزل. كانت الخطابات المتوالية للرئاسة وكذا المناقشات البرلمانية المحمومة التى أدت إلى أن تلتهب الأحبال الصوتية للبرلمانيين ولم يكن أمامهم إلا الحديث بلغة الإشارة، كل هذا أدى بالكثير من الناس فى مختلف أنحاء الدنيا إلى ترك مشاغلهم والحضور إلى المنزل وشغل كل مكان فيه بما فى ذلك الممرات والردهات وكذلك فى الحجرات العلوية ذات السقف الجمالونى. أما من وصلوا متأخرين فقد حاولوا أن يسلكوا لأنفسهم طريقًا إلى الاستحكامات والقلاع والأبراج وغيرها من الحجرات الصغيرة. وفى الصالون الرئيسى كانت جثة الأم الكبرى مسجاة فى انتظار القرارات الكبرى وقد كستها آلاف التلغرافات. وجفت الدموع من المآقى، وكان أبناء الأخوة التسع يتناوبون السهر لحراسة الجسد.

كان على هذا الجمع الحاشد أن ينتظر لأيام طويلة. وفى صالون المجلس المحلى حيث يوجد أربعة كراسٍ مرتفعة من الجلد، ووعاء فخارى مليء بالماء المفلتر وسرير شاطئ من الأرقطيون، عانى قداسته من الأرق مع الكثير من العرق وتسلى بقضاء الوقت وهو يقرأ القرارات والمواد الوزارية فى الليالى الصيفية الحارة. أما أثناء النهار فكان يوزع الحلوى الإيطالية على

الأطفال الذين كانوا يقتربون من النافذة لمشاهدته. وكان يتناول طعام الغذاء تحت البرجولة فى رفقة الأب أنطونيو إيسابيل أحيانًا، وأحيانًا أخرى مع نيكانور. ظل هكذا لأسابيع وشهور طويلة يعيش حالة الترقب تحت الحر حتى جاء باستور باسترانا وتوقف وسط الميدان وهو يحمل الطبلة، ثم قرأ نص القرار. يُعلن أنه قد تعكر صفو الأمن العام، تررن تررن، وأن رئيس الجمهورية، تررن تررن، له كافة الصلاحيات، تررن تررن، التى تهيئ له حضور جنازة الأم الكبرى، تررن ترن رن رن.

جاء اليوم الأعظم، كانت الشوارع قد امتلأت بألعاب الروليت وموائد اليانصيب ورجال يحملون ثعابين وقد لفوها حول رقابهم وأخذوا يروجون لبيع الترياق الذى يشفى من العضات السامة ويؤكد الحياة الأبدية. وفى الميدان الصغير قام الكثير من الناس بنصب مظلاتهم وفردوا حصائرهم، وقام رجال مهرة بفتح الطريق للسلطات.

كانت غسالات سان خورخى وصيادى اللؤلؤ فى كابودى بيلا فى انتظار اللحظة الحاسمة، وكان كذلك كل من صيادى الجمبرى فى تاساخيرا والحواة فى مواخانا ومستخرجو الملح فى ماناورى، وعازفوا الأكورديون فى سان بيلايو ومربو الديوك فى لاكويب والمرتجلون فى ساياس دى بوليفار وفى ريبولو وفى ماغدالينا وأصحاب المصانع فى مومبوكس، وإلى جانب كل هؤلاء

ما سبق أن ذكرناهم فى بداية هذا التقـرير، وآخرين غيرهم. كما أتى أيضًا قدامى رجال العقـيد أوريليانو بوين ديا - وعلى رأسهم دون مارلبوروح بـلباسه الجلدى وأظافره وأسنانه التى تشـبه أسنان الفهـد، وتناسوا أحـقادهم القـديمة على الأم الكبـرى وأهلها - لحضـور الجنازة، ومن أجل أن يطلبـوا من رئيس الجمهـورية دفع معاشات الحرب التى ظلوا ينتظرونها لمدة ستين عامًا.

وقبل الحادية عـشر بقليل صدر عن هذا الجمع الغـفير الذى خنقـتـه حرارة الشـمس، والذى يسـيطر عليـه ثلة من المحـاربين الأشـداء، وقد ارتـدوا لباس الجندية، ووضعـوا على رؤوسـهم خوذات ضخـمة، صدر عن هذا الجمع صـوت غبطة مهيـبة. أما رئيس الجـمـهورية ووزرائه فكـانوا فى وضع مهـيب وقـد ارتدوا ملابسهم الرسمية.

حضر أيضًا كل من اللجان البرلمانية ومجلس القضاء الأعلى ومجلس الدولة والأحزاب التقـليدية والسلطة الدينية وممثلى البنوك والتجارة والصناعـة، وقد كان مكان كل هؤلاء على ناصيـة مركز التلغراف. كان رئيس الجمهورية العجوز أصلعًا

وقصـير القامة بدينًا يسـير أمام نظرات اسـتغراب جمـهور الحاضرين الذين نصبوه رئيسًا دون أن يعرفوه، وهم الآن يمكن أن يتأكدوا من وجوده بين الأساقفة الذين أخذتهم خطورة مسئولياتهم

والعسكريين من ذوى القامات الممشوقة وقد علت رؤوسهم الخوذات. كان المسئول الأول عن الأمن يتنفس ويتذوق طعم السلطة.

يأتى بعد ذلك فى ملابس من "الكريب" الأسود كل الملكات فى الوطن. وهن المسيطرات على كافة أنواع الأنشطة الآتية والقادمة، وقد خلعن لأول مرة كل ما يتعلق بزينة الحياة الدنيا، كانت تتقدمهن الملكة الكبرى ملكة المانجو وملكة الخضروات وملكة التفاح الغينى وملكة اليوكا الناعمة وملكة الجوافة وملكة الأناناس وملكة الفاصوليا ذات الحبة السوداء وملكة ما يزيد على ٤٢٦ كيلومتراً من عقود بيض الأيجوانا، وكل هؤلاء اللاتى لم نذكرهن حتى لا نطيل من صفحات هذا التقرير.

كانت الأم الكبرى موضوعة فى نعشها وقد غطيت بطبقات من القماش الأرجوانى، وتم فصلها عن الواقع بثمانية أجراس من النحاس، وغرقت حتى الثمالة فى غمرة الخلود، ولم تعد تستوعب حجم عظمتها. وكل ما حلمت هى به من أبهة أثناء جلساتها فى شرفة منزلها بعد الظهر، ها هى تتحقق حيث حضرت كافة رموز العظمة فى العصر لتكريمها. فها هو قداسة البابا الذى تصورته فى هذيانها، الذى ولّى، وهو جالس على محفة متلألئة وسط حدائق الفاتيكان، قد قاوم الحرارة واستخدم مروحة مصغرة من جريد النخيل وشرفت به أضخم جنازة فى الدنيا.

لقد ملك مشـهد السلطة لب العامة الذين لم يسـتطيعوا أن يميـزوا ماهية الحـركة الدؤوبة التى دارت تحت السقف الجـمالونى للمنزل وذلك عندما فـرض الاتفاق نفسـه على خلافات المشـاهير وتم إخراج النعش إلى الشارع مـحمولاً على أكتـاف علية القوم. ولم ير أحـد الظل الحارس للرمـاح الملكى الذى تابع الجنازة وهو يسير فـى الشوارع الحارة لماكوندو. كـما لم يستدع انتـباه أحد أن علية القـوم عندما مروا كانت الـشوارع قد بقى بها مـخلفات من الروث. ولم يلاحظ أن أبناء الأخوة والأبناء بالتبنى والخدم والذين يحظون بحـماية الأم الكبرى كـانوا قد أغلقـوا الأبواب عندما تم إخـراج الجثـة وقامـوا بخلع الأبواب وفك المناضد للحـفر حـول الأساسات حتى يوزعوا المنزل ومحـتوياته فيما بينهم. لكن الشىء الوحيـد الذى لم يغب عن ذهن أحد فى هذه الجنازة هو التنهـيدة المزلزلة شعوراً بالراحة والتى صدرت عن الجماهير بعد أربعة عشر يومًـا من الصلوات والمدائح. وتم بعدها تغطيـة القبـر بطبقـة من الرصاص. كان بعض الحاضرين يحظى ببصيرة نافذة فهم منها أن الجميع يشهـد ميلاد عهد جديد. ويمكن لقداسـة البابا أن يصعد إلى السمـاء روحًا وجسدًا وقـد أتم مهمـته على الأرض، ويمكن لرئيس الجـمهورية أن يجلـس على كرسى الحكم ويصـدر أوامره طبقًا لما يرى، ويمكن للملكات كل ما كـان وما سيكون أن يتزوجن ويصبحن سعيدات وينجبن الكثـير من الأطفال، ويمكن للجماهير

أن ترفع مظلاتها طبقًا لما تعلمته وأدركته طوال سيطرة الأم الكبرى ذلك أن المرأة الوحيدة التى يمكن أن تعترض وتجعل اعتراضها فاعلاً. ها هى الآن تتحلل تحت غطاء من الرصاص. وما بقى هو أن يقوم أحد الناس بالجلوس على كرسى أمام الباب ليقص هذه الحكاية وهذا الدرس وهذه العبرة للأجيال القادمة وألا يبقى أحد من الجاحدين فى هذه الدنيا إلا وقد وصلته أخبار الأم الكبرى، وسوف يأتى الكناسون غداً الأربعاء لتنظيف الشوارع من القمامة التى خلفتها الجنازة إلى أبد الآبدين.

الموت الدائم فيما وراء الحب

(١٩٧٠)

بقيت ستة أشهر وأحد عشر يومًا حتى يموت السناتور/ أونيسيمو سانشيث وذلك عندما التقى بالمرأة التى كان يحلم بها فى حياته. تعرف بها فى "روسال دل بيرى" وهى قرية متخيلة - كانت أثناء الليل مرفأ للسفن الخاصة بالمهربين التى كانت تجوب أعالى البحار. أما فى النهار فكانت تبدو بمثابة منعطف غير ذى قيمة فى الصحراء الممتدة أمام بحر قاحل لا قرار له وبعيدًا عن كل شىء لدرجة أن أحدًا لم يكن يخالجه شك فى أنه يوجد هناك من قد يستطيع التأثير فى مصير إنسان آخر حتى اسم القرية كان مثيراً للسخرية فالوردة الوحيدة التى كانت موجودة فيها قطفها السناتور/ أونيسيمو سانشيث فى نفس الأمسية التى تعرف فيها على "لاورافارينا".

كانت وقفة لا غنى عنها أثناء الحملة الانتخابية التى كانت تجرى كل أربعة أعوام. ها قد وصلت سيارات نقل الركاب الصغيرة ، تلتها سيارات النقل وهى تحمل هنوداً تم استئجارهم ليكونوا جزءاً من الجمهور الذى يحضر الخطب التى تلقى. وقبل الحادية عشرة بقليل بدأ عزف الموسيقى وأخذت تطلق الصواريخ النارية، وبعدها وصلت السيارة الوزارية بلون الفراولة. كان

السناتور/ أونيسيمو مبتسمًا وهو جالس داخل السيارة المكيفة. لكنه بمجرد أن فتح الباب لفحته نسمة هواء نارية وغرق قميصه، المصنوع من الحرير الطبيعى، فى بحر من العرق وشعر عندئذ بأنه قد شاخ عدة سنوات وأصبح أكثر عزلة عن أى وقت مضى. لم يكن عمره إلا اثنين وأربعين عامًا، وكاد قد تخرج بمرتبة الشرف ليكون مهندسًا للحديد والصلب فى "غوتيغا" كما كان من أكثر الناس حرصًا على القراءة رغم أنه لم يقرأ الكثير للمؤلفين باللغة اللاتينية والذين ترجمت أعمالهم بشكل ردىء. تزوج من ألمانية جميلة أنجبت له خمسة أبناء وكان الجميع سعداء فى منزلهم، هو أكثرهم سعادة حتى جاءت لحظة وقالوا له قبل هذا الوقت بثلاثة أشهر أنه سيموت فى عيد الميلاد المجيد القادم.

فى الوقت الذى تجرى فيه الاستعدادات لإلقاء خطبته، استطاع السناتور أن يظل بمفرده طوال ساعة كاملة فى المنزل الذى أُعد لراحته. وقبل أن ينام وضع فى مياه الشرب وردة طبيعية استطاع أن يحملها وسط الصحراء دون أن تذبل. تناول غذاءه المكون من حبوب الحنطة حسب تعليمات الطبيب، وكان قد أتى بها معه حتى يتفادى أكل التحميصة وهى الطعام الذى كان ينتظره بقية اليوم. وبعد ذلك تناول بعض الحبوب المسكنة قبل الساعة المحددة لها بحيث يسبق تأثيرها معاودة الآلام. ثم قام بتشغيل المروحة الكهربائية القريبة من الشبكة وتمدد عريانًا لمدة خمسة عشر

دقيقة فى ظل الوردة. وأثناء هذه اللحظات، حاول جاهداً مباعدة ذهنه عن فكرة الموت. لم يكن أحد يعرف أنه سيموت فى وقت محدد إلا الأطباء، ذلك أنه قرر أن يتألم وحده مع سره دون أن يدخل حياته أى تغيير. وقد فعل ذلك ليس كبرياء بل خجلاً.

كان يشعر بالسيطرة الكاملة على قواه العقلية عندما عاود الظهور على الملأ حوالى الثالثة بعد الظهر وقد أكمل هندامه وارتدى بنطلونًا من الكتان الخالص وقميصًا ملونًا برسوم الزهور، وقد هدأ روعه من جراء تناوله الحبوب المسكنة. ومع ذلك فإن الموت أخذ يحدث تآكلاً فيه بشكل أفظع مما كان يتصور. فعند صعوده إلى المنصة شعر باحتقار غريب نحو هؤلاء الذين أخذوا يتزاحمون ليصافحوه، ولم تأخذه الشفقة مثلما حدث مرات سابقة بهؤلاء الحضور الحفاة الذين لا يكادون يتحملون حرارة البلاط فى هذا الميدان القاحل. أسكت التصفيق بإشارة آمرة كأنها تعبر عن حنق. ثم أخذ يتحدث دون أن يحرك يديه، وناظريه مثبتان على البحر الذى كان يتنهد من الحر. كان صوته رتيبًا وعميقًا كأنه مياه ساكنة، لكن الخطاب الذى حفظه عن ظهر قلب وكرره كثيراً لم يخطر على باله أن يقول الحقيقة إلا من أجل مقابلة مصير محتوم فى الكتاب الرابع لذكريات ماركو أوريليو.

إننا هنا حتى نهزم الطبيعة - بدأ خطابه بشكل غير تقليدى على الإطلاق - ولن نكون بعد اليوم لقطاء الوطن أو يتامى الله

فى مملكة العطش والضياع، ولن نكون المنفـيين ونحن نعيش على أرضنا - سنكون أناسًـا آخرين أيـها السـيدات والسـادة، سنكون عظماء وسعداء.

كانت هـذه هى الصيغ التى تقـال فى السيـرك الخاص به، وفى الوقت الذى كان يتحـدث فيه كان المساعدون يقـومون بإلقاء حفنات من عصـافير ورقية فى الهـواء فتبدو كأن بهـا حبًا وتدور حول المنصة المرتفعة وتذهب لتسـقط فى البحر. وفى الوقت نفسه يقوم آخـرون بإخراج أشجـار صناعية مخـصصة للمـسرح - من السـيارات - ويقـومون برصـهـا خلف الجمـهور. وأخـيرًا قـام المساعدون بتركـيب واجهة كرتونية بها صـور منازل مبنية بالطوب الأحـمر ونوافـذ زجاجـية وبذلك غطـوا الملامح البائسـة للحيـاة اليومية.

استـمر السناتور يلقى خطابه وأطال الإلقـاء بذكر عـبارتين باللغة الـلاتينية وذلك حتى يـوفر الوقت للملهـاة. وعد بأن يأتى لهم بماكينات المطر والوحدات المتنقلة لتـربية الحيوانات الداجنة وأن يأتى لهم بزيت السعـادة الذى سيساعد على زيـادة نمو البقول فى الأصص، وكذا زهور البنفسج المعلقـة على النوافذ. وعندما أدرك أن عالمه الخيالى أوشك على الاكتمال أشار إليه بإصبعه.

- هكذا سنكون أيهـا السيدات والسـادة - قالها صـائحًا - هكذا سنكون.

نظر الجمهور إلى الوراء فوجد سفينة عابرة المحيطات وقد رسمت وهى تمر من خلف البيوت كما كانت أكثر ارتفاعًا من أعلى المنازل فى المدينة المتخيلة. وقد لاحظ السناتور - وحده - أن كثرة الفك والتركيب لهذه اللوحة والانتقال بها من مكان لآخر أدى إلى إصابتها بالتهالك والفناء وأصبح يعلوها التراب وتملؤها الكآبة مثلها مثل قرية روسال دل بييرى.

ولأول مرة طوال اثنا عشر عامًا لم يذهب نلسون فارينا لتحية السناتور، فضل الاستماع للخطاب وهو يتمدد على سريره تعتريه غفوة القيلولة تحت سقف منزل تكسوه الخضرة، وهو منزل مبنى من الألواح غير الناعمة، بناه بنفس الأيدى التى كان يعمل بها صيدلانيًا وهى نفسها التى قطع بها زوجته الأولى إربًا. كان قد هرب من سجن كايينا ثم ظهر فى روسال دى بيرى قادمًا على متن سفينة محملة بالببغاوات البرية وترافقه امرأة سوداء جميلة وسليطة اللسان، كان قد التقى بها فى باراماريبو وأنجبت منها طفلة -، لكن المرأة توفيت بعد قليل، لكن لم يكن حظها مثل الأولى التى قطع جسدها إربًا من أجل تسميد حديقته، بل دفنها كاملة فى مدافن القرية ووضع اسمها ذا الأصل الهولندى. كانت الابنة قد ورثت عن أمها لون بشرتها وقامتها وورثت عن الأب عينيه الصفراوين والمستغربتين. هذا الأب كانت له أسبابه ليظن أنه يربى أجمل امرأة فى العالم.

ومنذ أن تعرف نلسون فارينا على السناتور أونسيمو سانشيث فى أول حملة انتخابية له، توسل إليه أن يساعده فى الحصول على بطاقة تحقيق شخصية مزيفة تنفذه من يد العدالة. وكان رد السناتور رقيقًا وواثقًا لكنه رافض للطلب. ولم يستسلم نلسون فاريتا مع مرور السنين وكان كل مرة يرى السناتور فيها يكرر طلبه بشتى الطرق. لكن الإجابة كانت واحدة. وعلى هذا ظل هذه المرة فى نفس المكان وقد شعر بأنه سوف يهلك حيًا فى ملجأ القراصنة ذلك. وعندما سمع التصفيق الختامى أطل برأسه من فوق السياج المحيط فرأى المشهد الخلفى للملهاة : المسامير الساندة للمبانى المصورة وهياكل الأشجار والرجال الذين اختبئوا وهم يدفعون عابرة المحيطات. فبصق غيظًا. وقال:

– زبالة.

وبعد الخطاب قام السناتور – كما هى العادة بالتجول فى شوارع القرية على قدميه ترافقه الموسيقى والصواريخ النارية ويحيط به أهل القرية الذين كانوا يقصون عليه آلامهم، وكان السناتور يستمع إليهم باهتمام ودائمًا ما كان رده عبارات العزاء والمواساة دون أن يعد بالكثير. كانت هناك أم تصيح وهى فوق منزلها ويحيط بها أبنائها الستة، واستطاعت أن تصل بصوتها رغم الضجيج وصوت الفرقعات النارية.

- إننى لا أطلب الكثير أيها السناتور - قالت - لا أطلب إلا حماراً لأحمل عليه الماء من بئر أوركادو.

نظر السناتور نظرة فاحصة للأطفال الستة النحفاء وسأل:

- ماذا يعمل زوجك . سأل.

- ذهب ليبحث عن الرزق فى جزيرة أروبا - أجابت المرأة بمرح - وما وجده هناك هو امرأة من تلك اللاتى يضعن الماس فى أسنانهن.

أثارت هذه الإجابة ضحكات مجلجلة.

- حسن - قال السناتور مقرراً - سوف يكون لك حمارك.

وبعد ذلك بقليل كان أحد مساعديه يذهب إلى منزل المرأة ومعه الحمار الذى كتبت على ظهره أحد الشعارات الانتخابية حتى لا ينسى أحد أنه كان هدية السناتور.

وفى المسافة القصيرة المتبقية من الشارع صدرت عنه إيماءات وإشارات ومنها أنه أعطى ملعقة صغيرة لأحد المرضى الذى كان قد خرج من منزله وهو على سريره حتى يرى السناتور. وعلى الناصية الأخيرة رأى نلسون فارينا بين ألواح السياج وبدا له رمادى اللون ذابلاً فحياه تحية ليس فيها حرارة.

كيف حالك.

تحرك نلســون فارينا فى سريره المعلق وتركــه وهو غارق فى خضم نظرته الحزينة.

- أنا، أنتم تعرفون - قال

خرجت ابنته إلى الفناء عندما سمعت التحية، كانت ترتدى جلبابًا باليًا من جــلاليب الفلاحات، وكان شعــرها ملفوفًا بكرات ذات ألوان متعددة، ووجههــا مدهون اتقاء لأشعة الشمس، ورغم أنها على هذا الوضع كان من الممكن تصور أن ليس هناك من هى أجمل منها فى هذا العالم. وقف السناتور جامدًا.

- عجبًا - تنهد باستغراب - تبارك الله فيما خلق!

فى هذه الليلة قــام نلســون فارينا بإلبــاس ابنتــه بأفضل مــا عندها من ثياب وأرسلها إلى السناتور. طلب منه اثنان من الحرس المسلحين الجــالسين على الباب وقد انتــابتهما غفــوة الحر أن ينتظر على الكرسى الوحيد الموجود فى الدهليز.

كان الــسناتور يجتــمع فى الحجــرة المجاورة مع الكبــار من أهالى القرية والذين جمعهم خصــيصًا ليحكى لهم بعض الأسرار التى كان يحجم عن البوح بها فى خطبه. كان الحاضرون شديدى الشبه بهــؤلاء الذين يحضرون مثل هذه الجلســات من أبناء القرى الصحراويــة لدرجة أن السناتور كان يشعــر بالملل الشديد من نفس الجلسة التى تتكرر كل ليلة. كان قمــيصه يذوب فى العرق وحاول

أن يخفف القميص وهو على جسده عن طريق تعريض نفسه للهواء الساخن الذى تحركه المروحة الكهربائية التى كان طنينها ينتشر فى كالة أرجاء الحجرة.

- نحن بالطبع لا نأكل عصافير ورقية - قال - تعرفون حضراتكم أنه فى اليوم الذى توجد فى أشجار وزهور فى حظيرة ذكور الماعز هذه، وفى اليوم الذى تختفى فيه الديدان والحشرات من الآبار، فلن يكون لنا جميعًا وجود هنا. هل أقول الحقيقة؟

لم يجب أحد، وفى الوقت الذى أخذ يتحدث فيه جذب ورقة من أوراق نتيجة العام وصنع فراشة ثم ألقى بها تجاه الهواء الذى تدفعه المروحة دون اكتراث فطارت الفراشة فى أنحاء الحجرة وخرجت بعد ذلك من الباب الموارب. وظل السناتور يتحدث وهو متماسك أمام فكرة الموت.

- حينئذ - قال - ليس من الضرورى أن أكرر على مسامعكم ما تعرفونه جيدًا: إن إعادة انتخابى هى أفضل شىء بالنسبة لكم أكثر منى، فها أنا متعب ومثقل إلى أبعد الحدود، أما أنتم فهذه حياتكم.

شاهدت لاورافارينا الفراشة الورقية وهى تخرج ولم يرها أحد غيرها، ذلك أن الحارسين المتواجدين فى الردهة قد غرقا فى النوم وهما جالسان على الكرسى وقد احتضنا سلاحيهما.

وبعد عـدة لفات تفككت الفـراشة الضخـمة ثم اصطدمت بالحـائط والتصـقت به. حاولت لاورافـارينا نزعهـا مسـتخـدمة أظافرها. كان أحد الجنود الذى استيـقظ على صوت التصفيق فى الحجرة قد لاحظ محاولة فارينا غير المجدية.

- لا يمكن نزعـها - قـال العـبارة وهو شـبه نائم - إنهـا مرسومة على الحائط.

عادت لاورافارينا للجلوس من جديد عندما بدأ الحضور فى الخروج من الاجتماع. وظل السناتور على باب الحجرة ويده على السقاطة ولم يدر بوجود فارينا إلا عندما خلت الردهة من الناس.

- ماذا تفعلين هنا؟

- هذا ما أمرنى به والدى - قالت.

فـهم السناتور. تمعن فى الحـرس شـبه الـنائم ثم تمعن فى لاورافارينا وفى جمالها الأخاذ الذى يتجاوز حدود آلامه. وعندئذ أراد أن يتولى الموت اتخاذ القرار نيابة عنه.

- ادخلى - قال لها.

فغـدت لاورافارينا فاها وهى علـى الباب : هناك آلاف من الأوراق النقدية وهى تطير فى هواء الحجرة وكـأنها مثل الفراشة، لكن السناتور أطفأ المروحـة فأصبـحت الأوراق بلا هواء وسقطت متناثرة فوق محتويات الغرفة.

- ها أنت ترين - قال مبتسمًا - ها هى القذارة تطير أيضًا.

جلست لاورافارينا وكأنها تجلس على مقعد مدرسى. بشرتها ناعمة ومشدودة ولونها مثل لون البترول الخام، وكان شعرها مصففًا على شكل عرف، نظراتها أكثر شفافية من النور. تابع السناتور خط بصرها ووجد الوردة التى زال عنها بريقها بسبب النطرون.

- إنها وردة.

- نعم - قالت وقد علت وجهها ملامح الحيرة - لقد رأيت مثلها فى "ريوأتشا"

جلس السناتور على سرير منطبق وأخذ يتحدث عن الورود وهو آخذ فى فك أزرار قميصه، وعلى أضلاعه اليسرى، حيث تصور أن القلب وراءها، هناك وشم عبارة عن قلب قد اخترقه سهم. ألقى بالقميص المبلل على الأرض وطلب من لاورافارينا أن تساعده فى خلع الحذاء ذو الرقبة. جلست على ركبتيها أمام السرير بينما ظل السناتور يتأملها وهو يفكر، وبينما تقوم هى بفك رباط الحذاء، كان يتساءل أى واحد من الاثنين سيكون بمثابة الحظ السيئ للآخر فى هذا اللقاء.

- إنك لا زلت صغيرة.

- لا تظن ذلك - قالت - سوف أكمل التاسعة عشرة من عمرى فى أبريل.

فأبدى السناتور اهتمامه.

- أى يوم؟ فقالت :

- الحادى عشر.

شعر السناتور بالتحسن "كلانا من برج الجدى" ثم أضاف مبتسمًا.

- إنه برج الوحدة والعزلة.

لم تبد لاورافارينا اهتماماً بما يقول إذ كانت مشغولة بكيفية فك أربطة الحذاء. كما أن السناتور نفسه لم يكن يدرى ما الذى يفعله مع لاورا فارينا فهو غير معتاد على أنواع الحب المفاجئ، كما أنه كان واثقًا أن ذلك النوع من الحب مؤسس على اللاجدارة. وحتى يجد لديه متسعًا من الوقت ضغط على لاورافاريتا بركبتيه واحتضنها من خصرها واستلقى بظهره على السرير. وعندئذ أدرك أنها لا ترتدى شيئًا من الملابس الداخلية. فقد صدرت عن جسدها رائحة غامضة لحيوان جبلى لكن كان قلبها يرتعد خوفًا ويعتلى بشرتها عرق بارد.

- لا أحد يريدنا - تنهد.

أرادت لاورافارينا أن تقول شيئًا لكن لم يسعفها الهواء إلا فى التنفس. جذبها إلى جواره حتى يساعدها ثم أطفأ الأنوار

وبقى المكان فى ظل الوردة. تركت هى نفسها تحت رحمة قدرها. قام السناتور بتحسسهـا ببطء وبحث عنها باليد دون أن يلمسها إلا بالكاد، لكن يده اصطدمت بقطعة حديدية فى المكان الذى فكر أنها فيه.

- ماذا تحملين؟

- إنه قفل - قالت.

- يا له من تناقض! قال السناتور - وهو غاضب وسأل عن الشىء الذى يعرفه جيدًا : وأين المفتاح؟

تنهدت لاورافارينا بارتياح.

- إنه مع والدى - أجابت - لقد قال لى أن أقفل. وعلى سيادتك أن ترسل فى البحث عنه وأن ترسل أيضًا وعدًا كتابيًا بأنك ستساعده فى حل مشكلته.

انتابت السناتور حالة توتر. "يا له من ديوث فرنسى" غمغم باستياء. ثم أغمض عينيه ليسترخى والتقى بنفسه فى الظلمة. تذكر - تذكر - أنت أو غيرك ستموتون فى غضون وقت قصير، وبعد ذلك بقليل لن يتبقى منكم شيئًا بما فى ذلك الاسم. انتظر حتى تنتهى الرعشة.

- قولى لى شيئًا - سألها - ماذا سمعت عنى؟

-أتريد الحقيقة، ولا شيء غيرها؟

- نعم الحقيقة ولا شيء غيرها؟

- حسن - تجرأت لاورافارينا - إنهم يقولون بأنك أسوأ من الآخرين لأنك مختلف.

لم يبد على السناتور أى تغيير. صمت طويلاً وعينيه مغلقتين، وعندما عاد لفتحهما كان يبدو أنه عائد من غرائزه المخفية.

- يا للعجب - قال مقرراً - قولى للديوث والدك أننى سوف أساعده فى مشكلته.

- إذا ما كنت تريد فإننى سأذهب بنفسى للبحث عن المفتاح - قالت لاورافارينا.

أمسك بها السناتور.

- إنسى المفتاح - قال - ونامى معى بعض الوقت، فمن الطيب أن يكون هناك رفيق عندما يشعر المرء بالوحدة.

وعندئذ قامت هى بجعله ينام على كتفها وعيناه موجهتان نحو الوردة فاحتضنها السناتور وأمسك بخصرها ودفن رأسه تحت إبطها الذى تفوح منه رائحة الحيوان الجبلى واستسلم للفزع. بعد ستة أشهر وأحد عشر يومًا سيموت فى نفس هذا الوضع، وقد أخذت فضيحة لاورافارينا تطارده، وسيبكى غيظًا من موته وحده بدونها.

الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب

"إيريندير" وجدتها القاسية

(١٩٧٤)

كانت إيريندير تقوم بمساعدة الجدة على الاستحمام عندما هبت رياح تعاستها. تعرض المنزل الضخم - المبنى وسط سكون الصحراء والذى يبدو كأنه شامة - لهزة عظيمة زلزلت كيانه مع أول الهجمات. لكن إيريندير وجدتها كانتا مهيأتين لمجابهة أخطار الطبيعة ولم تلحظا مدى شدة الرياح وهما فى البانيو المزين بصفوف الطاووس والموزايك المكون من رسوم صبيانية مثلما هو الحال فى الحمامات الرومانية.

كانت الجدة تبدو فى عرقها وضخامة جثتها كأنها سبع بحر جميل ذو لون أبيض يسبح فى حمام من الرخام. أما الحفيدة فلم تكد تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، كانت نحيفة وطرية العظام وبها طيبة تتجاوز حدود سنها. تقوم بصب الماء على الجدة بخفة ورقة يصحبهما دقة تصل إلى القدسية. كانت قد غلت الماء وأضافت إليه بعض النباتات بغرض التنقية وبعض الأوراق الأخرى حتى تكون ذات رائحة طيبة، وقد تعلقت تلك الأوراق بتجاعيد الظهر وبالشعر القوى المنسدل وعلى الكتف القوى الذى يحمل وشمًا قويًا وضع بلا رحمة وهو عبارة عن مسوخ من البحارة.

- لقد حلمت فى المساء أننى أنتظر رسالة - قالت الجدة.

أما إيريندبرا التى لم تكن تنطق بكلمة إلا عند الضرورة فقد سألت:

- أى يوم فى هذا الحلم؟

- كان الخميس.

إذن كانت رسالة تحمل أنباء سيئة - قالت - لكنها لم تصل أبدًا:

عندما انتهت من إعطاء الحمام لجدتها أخذتها إلى حجرة نومها. الجدة ضخمة لدرجة لا يمكن معها أن تسير إلا مستندة على كتف الحفيدة أو متكئة على عصا تشبه عصا الأسقف. ورغم هذه الصعوبات يبدو عليها أنها صاحبة سلطان قديم. وعلى السرير الذى يضم الكثير من التفاصيل فى مكوناته بدرجة تزيد عن الحد لتصبح كأنها هذيانًا، كانت الحفيدة بحاجة إلى ساعتين أخريين حتى تجعل الجدة تبدو مهذياناً فقامت بفك شعرها خصلة خصلة ثم قامت بتعطيرها وتصفيف شعرها وألبستها فستانًا مشجرًا بألوان استوائية ووضعت بودرة التلك على وجهها ووضعت لها أحمر شفاه ثم وضعت لها أحمر الخدود، وخططت لها حواجبها بالمسك وطلت لها أظافرها بلون الصدف اللامع. وعندما أصبحت أمامها كأنها عروس - لعبة - أكبر حجمًا من الإنسان. ذهبت بها إلى حديقة صناعية من الزهور الخانقة مثل المرسومة على فستانها

وأجلستها على كرسى بمسند كان كأنه العرش بشكل الظهر والأجناب ثم تركتها لتستمع إلى اسطوانات وضعتها على الجرامافون.

وفى الوقت الذى أخذت فيه الجدة تطوف فى مستنقعات الماضى كانت إيريندىرا تقوم بكنس المنزل الذى كان معتمًا وممتلئاً بقطع الأثاث الفخمة وتماثيل قياصرة من وحى الخيال وثريات تتدلى منها الأذرع وملائكة مصنوعة من الألباستر وبيانو مذهب والعديد من الساعات ذات الأشكال والأنماط المختلفة. وفى فناء البيت هناك مستودع لتخزين المياه التى تصل عبر مزاريب من عيون المياه البعيدة. وعلى أحد جوانب الخزان هناك نعامة واهنة، وهى الحيوان الوحيد من الحيوانات ذات الريش الذى أمكنه مقاومة هذه الطبيعة العاتية. كانت النعامة بعيدة عن كل شىء، أى فى قلب الصحراء فى عزبة ذات شوارع حزينة وساخنة حيث تموت ذكور الماعز رعبًا عندما تهب رياح ....

كان هذا الملجأ غير المفهوم مكانه قد بناه زوج الجدة وهو رجل كان يعمل دائمًا فى التهريب، ونال شهرة أسطورية. اسمه أماديس، وكان له ابن منها سمى بنفس الاسم أيضًا وهو والد إيرنديرا. لم يعرف أحد أصل هذه الأسرة أو فصلها. والرواية الأكثر شهرة التى تذكر بلغة الهنود تقول بأن أماديس، الوالد، كان قد افتدى زوجته الجميلة من بيت دعارة فى أنيتاس بأن قتل رجلاً

بطعنات سكين ونقلها لتكـون فى حماية الصحراء. وعـندما مات كل أفراد عائلة أماديس، أحدهم بسـبب حمى الكدر والآخر قتلاً أثناء تصفية حسابات بين المتنافـسين، قامت المرأة بدفن الجثتين فى الفناء وقامـت بإقالة الأربع عشـرة خادمة وأخـذت تجتـر ذكريات عظمتـها فى ظلال هذا المنزل بفـضل تضحيـات الحفـيدة المولودة سفاحًا والتى قامت الجدة بتربيتها منذ مولدها.

كانت إيريندیرا فى حاجة لست ساعات لتقوم بملء الساعات وضبطها. وفى اليوم الذى بدأت فيه تعاستها لم تقم بهذا العمل، ذلك أن الساعات كـانت مملوءة لتعمل حتى صبـاح اليوم التالى، ومع ذلك قـامت بمساعـدة الجدة لأخـذ الحمام وارتـداء ملابسـها وتنظيف الأرضية بالمياه وإعداد طـعام الغذاء وتلميع الزجاج. وفى الحادية عشرة قـامت بتغيير المياه للنعامـة ورى الحشائش والنباتات الصحراوية الموضوعة على المقابر المجـاورة الخاصة "بالأماديسيين" كان عليهـا أن تقاوم شدة الرياح التى لم تعد محـتملة. لكنها لم تتصور أبدًا أن هذه ستكون رياح تعاستها. وفى الثانية عشرة كانت تلمع آخـر كؤوس الشـمبـانيا. فـى هذه اللحظة أحست برائحـة شوربة وفعلت المستحيل لتصل عدوًا إلى المطبخ دون أن يتأتى عن ذلك أى كسر للأوانى الزجاجية الواردة من فيينا.

اسـتطاعت بالكـاد أن ترفع الحلة التى أخـذت تفـور فـوق الشعلة ثم قـامت بوضع طبيخ آخـر، على النار كانت قـد أعدته

مسبقًا، وانتهزت الفرصة لترتاح بعض الشيء على كرسى فى المطبخ. أغمضت عينيها ثم فتحتهما بعد ذلك لكن لم يبد عليها التعب وأخذت تفرغ الشوربة فى السلطانية وتؤدى هذا العمل وهى نائمة.

كانت الجدة تجلس بمفردها على حافة مائدة لتناول الطعام أثناء الاحتفالات عليها الشمعدانات الفضية وأطقم السفرة لاثنى عشر فردًا. قرعت الجرس الصغير وفى الحال ظهرت إيرينديرا وهى تحمل السلطانية مملوءة بالشورية. وفى اللحظة التى كانت تغرف لها الشوربة لاحظت الجدة أن الفتاة تبدو عليها ملامح النعاس، فمررت كفها أمام عينيها وكأنها تقوم بتنظيف الزجاج. لم تر الطفلة يد الجدة التى تابعتها بنظراتها، وعندما أدارت إيريينديرا ظهرها لتعود إلى المطبخ صاحت فيها الجدة.

- يا إيرنديدا

استيقظت فجأة فسقطت سلطانية الشوربة من يديها على السجادة.

- لا شىء يهم يا ابنتى - قالت الجدة بحنان صادق - لقد عدت للنوم وأنت تمشين.

- إنها عادة الجد - قالت إيريينديرا وهى معتذرة.

ركعت لتستعيد السلطانية ولا زالت آثار النوم عليها وحاولت تنظيف السجادة من البقعة.

- اتركيـها هكذا - قالت الجـدة وهى تنهرها - وعليك أن تغسليها هذا المساء.

الأمر هو أن إيريندبرا أضافت إلى أعبـاء المساء المعتادة عبء غسل سجادة حـجرة السفرة. أضف إلى هذا أنها انتـهزت عملية الغسيل هـذه لتقوم بغسل الملابس التى ترتديهـا يوم الاثنين. بينما تضرب الرياح ضـرباتها حول المنزل وتبحث عن منفـذ للدخول. كانت أعـباء الفـتاة كـثيرة لـدرجة أن الظلام حل عليـها دون أن تدرى، وعندما انتهت من سجادة حجرة الطعام كانت ساعة النوم قد حانت.

كانت الجدة تحاول العزف على البيانو بالضرب على أصابعه طوال المساء، وتحـاول أن تغنى وتترنم بأغـانى أيام الشبـاب وبقايا المسك لا زالت عـالقة بأهدابهـا وبها آثار الدمـوع. لكنها عنـدما استلقت فى سريرها وهى ترتدى قميص نومها المصنوع من قماش "الموسلين" زالت عنها مرارة تذكر الأيام الخوالى.

- انتـهزى يوم الغـد فى تنظيف سـجـادة الصالة - قـالت لإيريندبرا- فهى لم تر الشمس منذ أيام الهرج والمرج.

- حاضر يا جدتى - أجابت الطفلة.

أخذت مروحة من الريش وأخذت تحـرك الهواء على السيدة التى لا ترحم والتى بدأت تعـدد مفـردات الواجبات الليـلية وهى تخلد للنوم.

- عليك كى كافة الملابس قبل أن تخلدى للنوم حتى يرتاح ضميرك.

- حاضر يا جدتى.

- وأن تفحصى دواليب الملابس جيداً ذلك أن العتة تنشط فى المساء.

- حاضر يا جدتى.

- وعليك فى الوقت المتبقى أمامك أن تخرجى أصص الزرع إلى الفناء لتتنفس.

- حاضر يا جدتى.

- وعليك أن تضعى للنعامة طعامها.

أخذت تغرق فى النوم ومع ذلك لا تزال تصدر أوامرها. وقد ورثت الطفلة الحفيدة عنها صفة الاستمرار فى الحياة أثناء النوم. خرجت إيريندبرا من الحجرة دون جلبة وقامت بباقى الأعمال الليلية مستجيبة دائمًا لما تأمر به الجدة النائمة.

- وعليك أن تسقى الزرع الموجود على المقابر.

- حاضر يا جدتى.

- وقبل أن تنامى تأكدى من أن كل شىء على ما يرام، فالأشياء كثيراً ما تتألم عندما لا تكون فى موضعها السليم.

- حاضر يا جدتى.

- وإذا ما حضر "الأماديسيون" أبلغيهم ألا يدخلوا - قالت الجدة - ذلك أن عصابة بورفيديوغالالان - تترقبهم للقضاء عليهم.

لم تجبهـا إيريندِيرا بعد ذلك فهى تعرف أنـها أخذت تدخل فى مرحلة الهـذيان. ومع ذلك لم تخالف أية تعليمـات. وعندما انتهت من مـراجعة مزاليج النوافذ وأطفـأت باقى الأنوار، أخذت شمعدانًا من حـجرة الطعام لتستضىء به حـتى تصل إلى حجرتها فى الوقت الذى تملأ فـيـه أنفاس الجـدة النائمـة جـو المكان عند اللحظات التى تهدأ فيها حدة الرياح.

لها حجرتها فاخرة أيضًا لكن ليس بنفس الدرجة التى عليها حجرة الجـدة. كانت مليئة بالـعرائس المحشوة ولعبًـا أخرى على شكل حيوانات جـاءتها فى آخر فتـرات طفولتها. ولما كـان إعياء العمل يغالب إيريندِيرا لم تجـد متسعًا من الوقت لتخلـع ملابسها فـقامت بـوضع الشمـعـدان على "الكومـودينو" واسـتلقت فى سريرها. وبعد ذلك بـقليل استطاعت رياح تعاستـها أن تنفذ إلى حجـرة نومها دفعـة واحدة كأنها مـجموعـة من الكلاب فانقلب الشمعدان فوق الستارة.

وفى صـباح اليـوم التالى كـانت الرياح قد توقـفت وبدأت تتـساقط قطرات المطر التـى أطفأت الجـمرات الأخـيرة وجـعلت

الرمـاد، فى المنزل، يتصلب. حـاول أهل القـرية، الذين هم فى أغلبهم من الهنود إنقاذ ما تبقى من الكارثة، أخـرجوا جثة النعامة وقد تفحمت وهيكل البيانو المذهب والجزء الخلفى لأحد التماثيل. كانت الجدة تتأمل كسيرة رماد ثروتها. أما إيريnديرا فكانت جالسة بين المقبـرتين بعدمـا توقفت عن البكاء. وعندمـا أصبـحت الجدة على قناعـة بأن بقى لها القليل من الحـريق نظرت إلى الطفلة بألم نابع من القلب.

- يا طفلتى المسكينة - تنـهدت - لو عشـت حياتك كـلها فلن تستطيعى أن تدفعى لى ثمن هذا.

أخذت تسـدد لها ذلك منذ هذا اليـوم تحت المطر وذلك بأن أخذتها إلى تاجر القرية وهو رجل مـاتت زوجته، نحيف الجسم، يعرفه كل من فى الصحـراء وذلك لأنه يدفع ثمنًا مناسبًا للعذرية. وأمـام ناظرى الجدة التى أخـذت ترقب وهى رابطة الجأش، قـام الرجل بفـحص إيريnديرا بتقـشف علمى: أخذ فى الاعـتبـار قوة ساقـيها وحجم ثدييـها ومحـيط أردافها. ولم ينبس بكلمـة حتى استطاع تقدير قيمتها.

- لا زالت صـغيـرة بعد - قـال فى هذه اللحظة - ولهـا نهدان صغيران.

وبعد ذلـك طلب منها أن تصـعد على الميـزان ليتـأكد من صحة تقديره، كانت إيريnديرا تزن ٤٢ كجم.

- لا تزيد عن مائة بيزو - قال الرجل الأرمل.

- مائة بيزو فقط مقابل مخلوقة جديدة تمامًا ! قالت بصوت فيه صياح - لا يا رجل إن هذا هو مخالفة صريحة للحقيقة.

- يمكن أن يصل السعر إلى مائة وخمسين - قال.

- لقد ألحقت الطفلة بى أذى بليغًا يقدر بحوالى مليونى بيزو - قالت الجدة - وعلى هذا فهى فى حاجة إلى مائتى عام لتدفع لى ما عليها.

- فقال : لحسن الحظ فإن أفضل شىء لديها هو صغر سنها.

كانت العاصفة تهدد بالقضاء على المنزل، كما أن المطر يتسرب من السقف من أماكن كثيرة كأنها تمطر بشكل متقارب فى الداخل والخارج، شعرت الجدة أنها وحيدة وسط عالم من الركام. فقالت:

- ليتك ترفع السعر إلى ثلاثمائة.

- مائتان وخمسون.

وفى النهاية اتفقا على سعر مائتين وعشرين بيزو على أن تدفع نقدًا بالإضافة إلى بعض الأطعمة، وعندئذ أشارت الجدة على الطفلة بأن تذهب مع العجوز الأرمل، بينما أمسك هو بيدها وأدخلها فى مؤخرة المحل وكأنه يأخذها إلى المدرسة.

- إنى أنتظرك هنا - قالت الجدة.

- حاضر يا جدتى - قالت إيريندیرا.

الجزء الخلفى من المحل عبارة عن منطقة مظلمة قائمة على أربعة أعمدة من الطوب الأحمر، أما السقف فكان من سعف النخيل المتهالك وسياج جدارى من الطوب الأخضر يبلغ ارتفاعه مترًا حيث توضع فوقه البقايا الناجمة عن العواصف. وفوق هذا الساتر من الطوب وضعت أيضًا أصص الصبار والنباتات الصحراوية الأخرى، كما كان هناك سرير معلق مربوط إلى عمودين يتأرجح فى الهواء كأنه شمعة. لم يكن للسرير لون معين، وبالإضافة إلى صفير العاصفة وصوت قطرات المطر كانت تسمع صرخات آتية من بعيد وأصوات حيوانات واستغاثة غريق.

عندما دخلت إيريندیرا والعجوز فى هذا المكان اتكأ كل منهما على الأخر حتى لا تلقى بها زخة مطر تركتهما مبللين تمامًا. لم تكن أصواتهما مسموعة، كما أن حركاتهما كانت مختلفة من جراء المطر. وفى أول محاولة قام بها العجوز صاحت إيريندیرا بصوت غير مسموع وحاولت الفرار. فكان رد العجوز عليها بلا صوت، بأن قام بليٍّ ذراعها وأخذها من معصمها وجرها إلى السرير، قاومته بأن خربشته فى وجهه وعادت لتصيح فى صمت، فكان رده هو صفعة قوية على وجهها رفعتها عن الأرض وجعلتها تطير فى الهواء للحظة وشعرها الطويل يتموج

فى الفـراغ. وقام بالإمـساك بهـا من خـصرها قـبل أن تنزل إلى الأرض وألقى بها فى السرير دفعة واحدة ملؤها الفظاظة، وأمسك بركبتها حتى أصبحت بلا حراك. أذعنت إيريندرا فى هذه اللحظة للرعب وفقدت وعيها وتحولت إلى حالة من إصابة الذهول، بينما يقوم العـجوز بنزع ملابسـها وكأنه يقلع الحـشائش ويقذف ببـقايا الملابس فكانت تطير فى الهواء متأرجحة.

ولما لم يتـبق فى القـرية أى رجـل آخر يـمكن له أن يدفع مـقابل ممارسـة الحب مع إيريندرا، ذهبت بهـا الجدة فى شـاحنة متجهة إلى الأماكن التى تتم فيها عمليات التهريب. كانت الرحلة فى صندوق الشاحنة وقد أحاطت بهما أجولة الأرز وصفائح دهن الخنزير وما تبـقى من الحريق: مقـدمة سرير ملكى ومـلاك حرب والعرش المحتـرق وبعض الأشياء الأخرى غير ذات القـيمة. وفى الصندوق المرسـوم عليه صليـبـين بريشة عـريضة حـملتا رفـات الأماديسيين.

كانـت الجدة تحـتمى من الشـمس القوية بأن فـردت مظلة متهالـكة فوق رأسها. تتنفس بصعوبة من جـراء العرق والتراب. ورغم هذه الحالة تحـتفظ ببـعض سلطانها. خلف صف الصـفائح وأجـولة الأرز قامت إيريندرا بسـداد ثمن الرحلة ونقل الأمـتعـة وذلك بممـارسة الحب مع عـمال الشاحـنة مقابـل عشرين بـيزو. وكانت دفاعاتها - فى البداية - مـشابهة للدفاع الذى اتخذته عند

اعتداء العجوز، لكن طريقة الحمال كانت جد مختلفة إذ اتسمت بالبطء والخبرة، وانتهى به الأمر إلى تطويعها باللين. وعندما وصلت الشاحنة إلى أول قرية بعد يوم ثقيل كانت إيريندرا والحمال يستريحان من ممارسة الحب الجيد خلف الشحنة الساترة.

صاح سائق الشاحنة فى الجدة :

- العمار هو ابتداء من هذا المكان فصاعداً.

راقبت الجدة الشوارع البائسة وهى لا تكاد تصدق. لم يكن هناك أحد من المارة فى شوارع هذه القرية الكبيرة بعض الشىء، لكنها كانت حزينة بنفس الدرجة التى كانت عليها القرية السابقة.

- لا يلاحظ شىء.

- إنها أرض إرساليات دينية - قال السائق.

- أنا لا يهمنى الحصول على الصدقات بل ما يهم هو التهريب - قالت الجدة.

كانت إيريندرا تستمتع إلى الحوار الدائر بينما تحاول وضع إصبعها فى أحد أجولة الأرز، وسرعان ما وجدت فتلة جذبتها فأخرجت عقداً من اللؤلؤ الحر. تأملته وهى تشعر بالفزع وأخذته بين أصابعها وكأنه حية ميتة. فى هذه اللحظة كان السائق يرد على الجدة:

- لا تحلمى أحلام اليقظة - يا سيدتى. لا يوجد هناك مهربون.

- وكيف لا - قالت الجدة - قل لى أنت ذلك!

- ابحثى عنهم وسترين - قالها السائق حازماً - إن كل الناس تتحدث عنهم لكن لا أحد يراهم.

أدرك الحمال أن إيريندירا قد استخرجت العقد فسارع بأخذه منها ووضعه مرة أخرى فى جوال الأرز. وعندئذ قررت الجدة البقاء فى هذه القرية رغم فقرها فنادت على الحفيدة لتساعدها فى النزول من الشاحنة . ودعت إيريندירا الحمال بقبلة سريعة لكنها عفوية وحقيقية.

انتظرت الجدة وهى جالسة على العرش وسط الشارع حتى انتهوا من إنزال الأمتعة، وكان آخرها الصندوق الذى به رفات "الأماديسيين" .

- إنه صندوق ثقيل الوزن كأنه ميت - ضحك السائق.

- إنهما اثنان - قالت الجدة - وعليك أن تعاملهما باحترام.

- أراهن على أنها تماثيل من العاج - ضحك السائق.

وضع الصندوق الذى يحمل الرفات كيفما اتفق وسط قطع الأثاث التى أصابها الحريق ومد يده مفتوحة إلى الجدة.

- خمسين بيزو - قال.

أشارت الجدة إلى الحمال.

- لقد تم السداد لعبدك باليد اليمنى.

نظر السائق مندهشًا إلى الحمال وصدرت عن هذا إيماءة تؤكد القول، فعاد إلى كابينة القيادة حيث كانت هناك امرأة تسافر وهى ترتدى ملابس الحداد ومعها طفل تحمله على ذراعيها وهو يبكى من الحر. كان الحمال واثقًا من نفسه جدًا وتوجه إلى الجدة بالقول:

- سوف تأتى إيرينديرا معى. إلا إذا رغبت سيادتك فى شىء آخر. إننى أقول ذلك بنية صادقة.

تدخلت الطفلة مفزوعة.

- أنا لم أقل شيئًا !

- أنا الذى أقول فهذه فكرتى - قال الحمال.

تفحصته الجدة وهى تراه بقامته كاملة دون أن تقلل منه بل تحاول أن تدرك الحجم الحقيقى لبنيته.

- لا مانع عندى - قالت الجدة - إذا ما دفعت لى ما خسرته بسبب إهمالها. المبلغ هو ٨٧٢٣١٥ بيزو، ولما دفعت لى

مسبقًا ٤٢٠ بيزو، أى أن المبلغ المطلوب هو ,٨٧١٨٩٥

أخذت الشاحنة تتحرك.

- صدقينى ! إننى على استعداد لأسدد لك هذا المبلغ الضخم إذا ما توفر لدى - قال الحمال جادًا - فالطفلة تساوى ذلك.

شعرت الجدة بارتياح لقرار الفتى.

- إذن عد عندما يتوفر لك هذا المبلغ يا بنى - ردت عليه بلهجة فيها ظرف - أما الآن فعليك بالذهاب لأننى إذا ما عدت لمحاسبتك مرة أخرى ستكون مدينًا لى بعشرة بيزو.

قفز الحمال على مؤخرة الشاحنة التى أخذت تبتعد. ومن هناك ودع إيريนديرا ملوحًا لها بيده، ولما كانت لا تزال تشعر بالفزع لم ترد عليه.

على نفس الأرض البوار التى تركتها الشاحنة قامت إيرينديرا والجدة بارتجال كشك مصنوع من ألواح الصفيح والسجاد الآسيوى للعيش فيها وضعتا حصيرتين على الأرض، ونامتا براحة كأنهما فى المنزل الكبير، ومكثتا نائمتين حتى نفذت الشمس بين ثقوب السقف ولفحت وجهيهما.

الجدة هى التى قامت بإصلاح هندام إيرينديرا هذا اليوم عكس ما كان يحدث دائمًا. فوضعت المساحيق على وجهها

بشكل مبالغ فيه طبقًا للموضة التى كانت سائدة أيام شبابها، وتلت ذلك بوضع أهداب صناعية وربطت شعرها بشريط بدا كأنه فراشة.

- سوف ترين نفسك فى شكل فظيع - قالت - لكن هذا أفضل : الرجال قساة جداً فى معاملتهم للنساء.

عرفت كلتا المرأتين صوت حوافز اثنين من البغال قادمين من الصحراء، وقد وصل الصوت إلى سمعيهما قبل رؤيتهما بوقت طويل. وبناء على أوامر الجدة استلقت إيريندرا على حصيرة وكأنها ممثلة مسرح مبتدئة أخذت وضعها عند رفع الستار، واتكأت الجدة على عصا الأسقف ثم خرجت من هذه الحجرة المرتجلة وجلست على العرش فى انتظار مرور البغال.

كان رجل البريد يقترب. لم يكن عمره يتجاوز العشرين رغم أن المهنة قد أضافت إلى عمره سنوات، يرتدى الكاكى وغطاء رأس من الفلين، ويحمل مسدسًا خاصًا بالجنود يضعه فى حزامه المعد لحمل الطلقات. كان يمتطى بغلة جيدة ويسحب أخرى لا زالت أقل حجمًا من التى يمتطيها وقد وضع عليها أجولة و"خرج" البريد المصنوع من القماش.

قدم التحية للجدة ملوحاً بيده عند مروره بها، وواصل سيره، لكنها أشارت إليه حتى يلقى نظرة على ما بداخل الكشك.

فتوقف الرجل ورأى إيريندير ا وهى مستلقيـة على الحصيرة مهندمة وقد ارتدت فستاتاً مزخرقاً بالألوان الحمراء.

- هل تروق لك - سألت الجدة.

لم يدرك رجل البريد حتى هذه اللحظة ما تريدانه.

- ليس الأمر بسيئ على غير إفطار - ابتسم.

- السعر خمسون بيزو - قالت الجدة.

- عجبـاً هل هى من ذهب! قـال - هذا المبلغ هو المطلوب لطعامى طوال شهر.

- لا تكن بخـيلاً - قـالت الجدة - فـالبريد الجـوى دخله أفضل من دخل القساوسة.

- أنا من البريد الوطـنى - قال الرجل - أما البـريد الجوى فهو ذلك الذى ينقل على شاحنة صغيرة.

- على أى الأحوال، الحب هو أمر هام مثله مثل الطعام - قالت الجدة.

- لكنه لا يغذى.

أدركت الجدة أن ذلك الرجل الذى يعـيش على آمال الناس سيكون لديه الوقت الكافى للفصال.

- كم معك ؟ سألته.

نزل الرجل من على البغلة وأخرج من جيبه بعض الأوراق النقدية المتآكلة وأبرزها للجدة فأخذتها جميعها كالكرة بأصابعها الخمسة وكأنها مخلب إحدى الطيور الجوارح.

- سوف أخفض لك السعر - قالت - لكن بشرط : أن تذيع الخبر فى كل مكان.

- سوف أفعل ذلك حتى الطرف الآخر من الدنيا - قال رجل البريد - فأنا أكثر نفعًا فى مثل هذه الأمور.

لم تكن إيريندىرا قد تمكنت من تحريك أهدابها وعندئذ نزعت الرموش الصناعية وأخذت جانبًا من الحصيرة لتخلى مكانًا للخطيب المؤقت. وعندما دخل الكشك قامت الجدة بإغلاق المدخل بأن جذبت الستارة بقوة.

كان الاتفاق الذى تم ذا فاعلية فقد كان الرجال معلقون بصوت وصول البريد فجاءوا من كل حدب وصوب ليعرفوا الخبر الجديد الخاص بإيريندىرا. وخلف الرجال جاءت ترابيزات القمار ومنافذ بيع الطعام. ووراء كل هؤلاء قدم المصور على دراجته واستقر به المقام أمام المعسكر فوضع الكاميرا اليدوية ذات القماش الأسود وكذا الستارة الخلفية وعليها رسمت بحيرة مليئة بالبجع الذى لا حياة فيه.

كانت الجدة تحرك الهواء بالمروحة وهى تجلس على العرش. بدا أنها غير مبالية بهذا التجمع، فما يهمها هو النظام فى طابور الزبائن الذين أخذوا أدوارهم، وكذا حقيقة المبلغ الذى يدفعونه مقدمًا ليدخلوا على إيرينديرا. كانت حادة فى البداية لدرجة أنها رفضت زبونًا جيداً كان المبلغ الذى يقدمه أقل خمسة بيزو من المطلوب. لكن بمرور الشهور أخذت تتعلم دروس الواقع وانتهى بها الأمر لقبول سداد باقى المبالغ المتفق عليها من خلال ميداليات تحمل صور القديسين أو بعض المقتنيات القديمة للأسرة وخواتم الزواج وكل شيء تتأكد من أنه ذهب جيد العيار، عندما تضغط عليه بأسنانها، رغم أنه لم يكن يلمع.

وبعد وقفة طويلة فى تلك القرية الأولى، كانت الجدة قد جمعت المال الكافى لتشترى حماراً وبدأت تبحث داخل الصحراء عن أماكن أخرى أكثر مناسبة من أجل قبض الدين المستحق لها. كانت تسافر على بردعة مرتجلة وضعت على ظهر الحمار، وكانت تحتمى من الشمس باستخدام الشمسية المتهالكة التى كانت إيرينديرا تمسك بها. كان يسير خلفهما أربعة هنود من الحمالين وهم يحملون معهم مكونات العسكر: العرش الذى تم إصلاحه وعدة النوم والملاك المصنوع من الألباستر والصندوق الذى يضم رفات الأماديسيين. وكان المصور يسير وراء القافلة وهو يركب دراجته لكنه كان بعيداً عنهما وكأنه ذاهب إلى مهرجان آخر.

كان قـد مضى على الحريق سـتة أشهـر، وفى هذه اللحظة كان للجدة تصور كامل عن هذه التجارة.

- إذا مـا ســارت الأمـور هـكذا - قـالت لإيـريندبرا - فسـتكونين قد وفيت بـالدين خلال ثمانى سنوات وسـبعة أشـهر وأحد عشر يومًا.

أخذت تراجع حساباتها وهى مـغمضة العينين وتمضغ بعض الحبوب التى كانت تخرجها من كيس قماش تحتفظ فيه بالمال أيضًا ثم قالت :

- وهذا دون أن نأخذ فى الاعـتبار أجر الهنود وطعـامهم، بالإضافة إلى نفقات أخرى غير كبيرة.

لم تعـترض إيريندبرا، وهى تسـير إلى جـوار الحمـار وقد أنهكها الحر والـتراب، على الحسابات التى تقـوم بها الجدة، لكن حاولت ضبط نفسها حتى لا تنهمر دموعها.

- إن عظامى تتكسر - قالت.

- حاولى أن تنامى.

- حاضر يا جدتى.

أغمضت عينيها ثم أخذت شهيـقاً عميقاً من الهواء الساخن وواصلت سيرها وهى نائمة.

* * *

ظهرت فى الأفق المترب شـاحنة صغيرة محـملة بالأقفاص وقد أخـذت ذكور الماعـز تفر هنا وهناك، ثـم كان ظهور الـطيور بمثابة الميـاه العذبة فى يوم أحـد حار للقديس مـيخـائيل، قديس الصحراء. يقـود السيارة مزارع هولندى ضخم الجثـة اكتوى جلده بالطقس المستـعـر، وله شنب رمـادى اللون ورثه عن أحـد آباء أجداده. أما ابنه "عليس" الذى يجلس إلى جواره فهو شاب يافع ذهبى اللون عيناه زرقاوين تنطقان بالعزلة، وهيـئته هى هيئة ملاك هبط عرضًا. استرعى انتباه الهـولندى وجود خيمة يقف أمـامها على شكل طابور كل جنود الحامـية المحلية. كـانوا يجلسون على الأرض ويشربون من نـفس الزجاجة التى تنتـقل من فم إلى فم، ويضعون على رؤوسهم أغصان شجر اللوز وكأنهم يريدون التمويه إيذانًا بالدخول فى معركة. سأل الهولندى بلغته.

- ما الذى يباع هنا بحق الشياطين؟

- إنها امرأة - أجابه الابن بتلقائية - اسمها إيريندира.

- وكيف عرفت

- كل الناس فى الصحراء يعرفون ذلك - أجاب عليس.

نزل الهولندى بالفندق الصغير فى القرية وأبطأ عليس بعض الشيء في الشـاحنة وقـام بأصـابعه الماهرة بـفتح حـافظة النقـود والأوراق التى تركـها والده على المقـعد وأخـذ رزمة من الأوراق

الماليـة ووضع بعضـًا منها فى جـيوبه ثم عـاد وترك كل شىء فى مكانه، وانتـهـز حلول الظلام، وعندمـا كـان والده نائمًـا تسلق خارجًا من نافذة الفندق وذهب ليأخذ دوره أمام خيمة إيريนديرا.

كـانت الحفلة فى أوج ازدهارهـا. الجنود سكارى يرقصـون وحدهم حتى يفيدوا من مجانيـة الموسيقى. والمصور يلتقط الصور الليليـة مستـخدمًـا ورق الماغنسيـوم للإضاءة. وفى الوقت نفـسه تشرف الجـدة على التـجارة وتقوم بـعد النقـود فى الخفاء وتـقوم بتوزيع الأوراق كـل فئة على حـدة ثم تقوم بتـرتيب كل ذلك فى سلة. لم يتبق إلا اثنى عشر جنديًا، غير أن طابور المساء كان يضم بعض المدنيين، وكان عليس آخر فرد فى الطابور.

وقع الدور على جندى كئيب الشكل، فباعدته الجدة وزادت من هذا بأن باعدت نفسها عن لمس نقوده.

- لا يا بنى - قـالت له - لن تدخل ولو كان مـعك ذهب الدنيا - إنك إنسان ثقيل.

شعر الجندى بالمفاجأة فهو ليس من هذه النواحى.

- ما معنى هذا؟

- إنك مُعـدى بثقلك - قـالت الجدة - وهذا بمجـرد النظر إلى وجهك.

أبعدته بإشارة من يدها. وأذنت للجندى الثانى بالدخول.

- أدخل أنت أيها الضخم - قالت له بمزاجية - وعليك ألا تتأخر كثيراً فالوطن فى انتظارك.

دخل الجندى، لكنه خرج فى الحال ذلك أن إيرينديرا كانت تريد التحدث مع جدتها. فقامت بوضع سلة النقود على صدرها ودخلت الخيمة ضيقة المساحة لكنها كانت مرتبة ونظيفة. كانت إيريند يرا ممددة على السرير الشبكى وهى غير قادرة على أن تتحكم فى رعشة سرت بجسدها. فقد عوملت بقسوة وملأتها قذارة الجنود.

- يا جدتى - وفى صوتها حشرجة البكاء - إننى أموت.

وضعت الجدة يدها على جبهتها وعندما تأكدت أن حرارتها ليست مرتفعة حاولت تهدئتها.

- لم يبق إلا عشرة من الجنود - قالت.

أجهشت إيريند يرا باكية بصوت حيوان يشعر بالغيظ. عرفت الجدة حينئذ أنها تجاوزت حدود الرعب، فقامت بملاطفتها بأن ربتت على رأسها لتساعدها على استرجاع هدوئها.

- كل ما فى الأمر أنك تعبت - قالت لها - هيا لاتبكِ أكثر من ذلك قومى بالاستحمام بماء الرضاب حتى يسرى الدم فى عروقك.

خرجت من الخيـمة فى اللحظة التى أخذت فيـها إيريندير تستـعيد هدوءها. فـأعادت النقود للجندى الذى كـان عليه الدور "لقد انتـهينا اليوم - قـالت له - عد غـداً وسوف تكون فى أول الطابور.

ثم صاحت فى باقى الطابور.

- انتهـينا اليوم أيهـا الفتـية. إلى اللقاء غـداً فى التاسـعة صباحًا.

خرج الجنود والمدنيون من الطابور وهم يصيحون احتجاجاً.

واجهتهم الجدة بذكاء لكنها خففت من وقع هراواتها.

- أنتم لا تضعون اعـتباراً لما يحدث أيها الحـمقى - كانت تصـيح - هل تـظنون أن هذه المخلوقـة من حـديـد، أه لو كنتم مكانها، أيها الفاسدون يا روثاً بلا وطن

فكان رد الرجال عليـها بشتـائم أقذع لكن انتـهى الأمر بأن سيطرت على الموقف وظلت تترقب وهى تحـمل الهراوة حتى رفع البائعـون موائد بيع شـحم الخنزير المقلى وانفض أصحـاب موائد القمار. وبينما كانت تستـعد لدخول الخيمة رأت عليس وحده فى المسـاحة الخالـية والمظلمـة التى كان الطابور يصطف فـيهـا شكله يوحى بهيـئة غـير واقعـية لكنه بدا مـرئياً فى هذه الظلمـة بفضل وميض وسامته.

- وأنت - قالت له الجدة - أين تركت أجنحتك؟

- كان جدى هو صاحب الأجنحة - أجاب عليس بتلقائية - لكن لا أحد يصدق ذلك.

عادت الجدة لتفحصه باهتمام كأنها مسحورة " أنا أؤمن بذلك - قالت - وعليك أن تأتى غداً وقد وضعت الأجنحة " .

دخلت الخيمة وتركت عليسًا وهو يغنى فى مكانه.

شعرت إيريندير بالتحسن بعد الحمام، وقد ارتدت ملابس قصيرة مزركشة، وأخذت تجفف شعرها لتنام، ومع ذلك تغالب الدموع، استغرقت الجدة فى النوم.

ومن وراء سرير إيريندير أطل عليس برأسه بخفة وحذر فرأت هى العينين الشغوفتين الرقراقتين، لكنها - قبل أن تنطق بكلمة - قامت بدعك وجهها بالفوطة للتأكد أن ما تراه حقيقة، وعندما طرف عليس بعينيه لأول مرة سألته إيريندير بصوت هامس.

- من تكون أنت؟

ظهر عليس بجزء من جسده حتى الأكتاف - "أنا أسمى عليس" - قال، وأظهر لها الأوراق المالية التى سرقها من والده، ثم أضافت :

- هات النقود.

وضعت إيريندرا يديها على السرير ثم اقتربت بوجهها من وجه عليس وواصلت حديثها معه كأنهما تلميذان فى مدرسة ابتدائية.

- كان عليك أن تكون فى الطابور - قالت له.

- لقد انتظرت الليل بطوله - قال عليس.

- والآن عليك الانتظار حتى الصباح - قالت إيريندرا - إننى أشعر وكأنى قد تعرضت للضرب على كليتى.

فى هذه اللحظة بدأت الجدة تتحدث وهى نائمة.

- لقد مضى عشرون عامًا منذ آخر مرة أمطرت - قالت - كانت زوبعة رهيبة إذ اختلط المطر بماء البحر وأصبحنا فوجدنا المنزل مليئًا بالسمك والكاراكول، أما جدتك يا أماديس رحمها الله فقد شوهدت مضيئة وهى تسبح فى الفضاء.

عاد عليس ليهرب خلف السرير، ابتسمت إيريندرا ابتسامة لذيذة.

- اهدأ - قالت له - إنها تبدو مجنونة وهى نائمة لكنها لا يوقظها زلزال.

عاد عليس ليطل من جديد. تأملته إيريندير بابتسامة ماكرة وفيها شيء من الود وقامت برفع الملاءة المستخدمة من على الحصيرة.

- تعال - قالت له - ساعدنى على تغيير الملاءة.

عندئذ خرج عليس من خلف السرير وأخذ الملاءة من أحد أطرافها. ولما كانت أكبر بكثير من حجم الحصيرة فقد استغرقا وقتاً فى طيها أكثر من مرة، وفى كل مرة يصبح عليس أكثر اقترابًا من إيريندير.

- جن جنونى لأراك - قال سريعاً - الجميع يقولون بأنك جميلة للغاية وهذا حقيقى.

- لكننى سأموت - قالت إيريندير.

- تقول أمى أن من يموتون فى الصحراء لن يصعدوا إلى السماء بل سيذهبون إلى البحر - قال عليس.

- قالت : أنا لا أعرف البحر.

-قال عليس: إنه مثل الصحراء لكن به ماء.

- إذن لا يمكن السير فيه.

- عرف والدى أحد الناس الذى كان يسير فى البحر - قال عليس - لكن ذلك كان منذ زمن طويل.

كانت إيريندرا سعيدة لكنها كانت بحاجة للنوم فقالت:

- إذا ما أتيت غداً فى الصباح الباكر سوف تكون أول الطابور.

-فقال عليس: سوف أرحل مع والدى فجر هذا اليوم.

- ألن تعود إلى هنا مرة أخرى؟

- لا أحد يدرى متى - قال عليس - إننا نمر بهذه القرية بمحض الصدفة لأننا فقدنا الاتجاه الصحيح فى الطريق إلى الحدود.

نظرت إيريندرا، مفكرة، إلى الجدة النائمة.

- حسن - قالت مقررة - هات ما معك من نقود.

أعطاها عليس النقود، فنامت إيريندرا فى السرير لكنه ظل يرتعش فى مكانه، وفى اللحظة الحاسمة خارت عزيمته، فأخذته إيريندرا من يده لتنتهى بسرعة وعندئذ أدركت رهبته، كانت تعرف هذا الخوف.

- أهذه أول مرة؟ سألته.

لم يجب عليها لكن ظهرت على وجهه ابتسامة خيبة الأمل، فتغيرت إيريندرا.

- تنفس بهـدوء - قالت له - الأمـر صعب فى البـداية - لكن ستتعود عليه بعد ذلك.

جعلتـه ينام إلى جوارها، وبينمـا تساعده فى خلع مـلابسه كانت تربت عليه بمداعبات فيها أمومة.

- ما اسمك؟

- عليس.

- إنه اسم أجانب - قالت إيريندیرا.

- لا، إنه اسم بحار.

كشـفت إيريندیرا عن صدره وقبـلته قبـلات مثل تلك التى تعطى لليتامى، ثم أخذت تشمه.

- تبـدو كـأنك ذهب - قـالت - ذلك أن رائحـتك هى الزهور.

- لابد وأنها رائحة البرتقال - قال عليس.

وبعد أن عاد إليه الهدوء ابتسم ابتسامة ماكرة.

- إننا نحمل الكثير من الطيور للتمويه - أضاف - لكن ما نحمله فى السيارة ونتجه به إلى الحدود هو تهريب البرتقال.

- البرتقال لا يهرب - قالت إيريندیرا.

- هذا النوع نعم يتم تهريبه - قال عليس - فكل واحدة تساوى خمسين ألف بيزو.

كانت إيريNديرا تضحك لأول مرة منذ وقت طويل.

- إن أفضل شيء يعجبنى فيك - قالت - هو هدوءك وأنت تخترع هذه الترهات.

استعادت إيرينديرا تلقائيتها وكأن براءة عليس أثرت فى تغيير مزاجها وتوجهاتها.

كانت الجدة وهى على مسافة قصيرة منهما لا زالت تتكلم وهى نائمة.

- فى هذه الأزمنة، أى فى بداية مارس أتوا بك إلى المنزل - قالت - كنت تبدو أنك سلحفاة صغيرة ملفوفة فى القطن. أما أماديس والدك الشاب الوسيم فقد كان سعيداً فى ذلك المساء لدرجة أنه أرسل فى البحث عن عشرين عربة صغيرة محملة بالزهور. ثم وصل وهو يصيح ويلقى بالزهور فى الشارع حتى أصبح اللون الذهبى هو المسيطر على القرية وكأنها البحر.

أخذت تهذى عدة ساعات بصوت مرتفع وبشغف فيه إصرار. لكن لم يسمعها عليس ذلك أن إيرينديرا أحبته كثيراً وبصدق. عادت لتمارس معه الحب بنصف السعر فى الوقت الذى

ظلت الجدة تهذى فيه. وظلت تمارس معه الحب حتى الصباح بدون مقابل.

كانت هناك مجموعة من المبشرين يرفعون الصلبان إلى أعلى قد تراصوا جنباً إلى جنب وسط الصحراء. كانت الرياح العاتية، مثل رياح التعاسة، تعصف بملابسهم المصنوعة من الخيش وبلحاهم الخشنة لدرجة أنهم لا يكادون يصمدون على أقدامهم. كانت دار التبشير خلفهم وهى عبارة عن مبنى من العصر الاستعمارى بها برج صغير للأجراس يقوم على حوائط خشنة عليها طبقة من الجير.

أشار المبشر الأصغر سنًا والذى كان يقود المجموعة بسبابته إلى وجود شرخ طبيعى فى الأرضية الطينية اللامعة.

- لا تعبروا هذا الخط - صاح فيهم.

توقف الحمالون الأربعة من الهنود الذين كانوا يحملون الجدة على محفة خشبية عندما سمعوا هذه الصيحة. ورغم أن الجدة كانت تجلس جلسة غير مريحة على المحفة، كما أن مزاجها غير طبيعى بسبب الصحراء وترابها، إلا أنها كانت تحتفظ بتعاليها. إيرينديرا تسير إلى جوارها. وخلف المحفة هناك ثمانية من الحمالين الهنود، المصور على دراجته فى المؤخرة.

- الصحراء ليست ملكًا لأحد - قالت الجدة.

- إنهـا لله - قال المبـشـر - وأنتم تعتـدون على القـوانين المقدسة بما تحملون من قذارة.

عرفت الجدة أن المبشر قـادم من شبه جزيرة أيبريا وذلك من خلال لكنته فى الحـديث. فحاولت تفادى مـواجهة مباشـرة معه حتى لا تصطدم بعناده. استعادت رباطة جأشها وقالت.

- لا أفهم ألغازك يا بنى.

أشار المبشر إلى إيريند يرا.

- هذه المخلوقة لا زالت قاصراً.

- لكنها حفيدتى.

- هذا أسوأ - رد المبشر - عليك أن تضـعيها تحت وصايتنا بالحسنى، وإلا لجأنا إلى أساليب أخرى.

لم تكن الجدة تنتظر أن تصل الأمور إلى هذا الحد.

- حسن ليكن ذلك - تنازلت وهى تشـعر بالفزع - لكننى سأعود آجلاً أم عاجلاً وسوف ترى.

ظلت الجدة وإيريند يرا تـنامان لمدة ثلاثة أيام فى قرية قـريبة من الدير، وعندئذ دخلت أجـساد صـامتـة وهى تزحف، كأنـها مجـموعة اقتـحام، داخل الخيمـة. كانت هذه الأجساد لسـتة من المبـتـدئات فى الرهبنة مـن الهنديات اللائى يتـمـتـعن بالحـيـوية

والشباب، وهن يرتدين الملابس الخشنة التى يبدو ومـيضها، كأنها فسفـورية، تحت ضوء القمـر المتقطع. ودونما جلبة، قمن بتـغطية إيريندرا بقماش سميك وأخذنها دون إيقـاظها وكأنها سمكة كبيرة الحجم وضعيفة تم اصطيادها فى شبكة فضية.

لم يكن هناك مخرج أمـام الجدة لتنقذ حفيـدتها من وصاية المبشرين. وعنـدما أعيتهـا الحيل، سواء المباشرة منـها أو الملتوية، لجأت للسلطات المدنية التى يرأسهـا أحد العسكريين، فوجدته فى فناء منزله والجزء العلوى من جـسده عريان، ويصوب ببنـدقية من بنادق الحرب صـوب سحابة سوداء تعـبر الشمس المشتـعلة. كان يحاول فـتح ثقب فى السحابة حـتى تفرغ ما فـيها من مـياه لكن طلقـاته ذهبت أدراج الريـاح ومع ذلك كـان يصـمت بين الحـين والآخر للاستماع إلى الجدة.

– أنا غير قادر على فعل شىء – شرح لها عندما انتهى من الاستماع إليـها – فهؤلاء الآباء من حقهم طبـقًا للاتفاق الموقع أن يأخذوا الفتاة حتى تبلغ سن الرشد. أو حتى تتزوج.

– لماذا إذن تشغل سيادتك وظيفة العمدة؟ سألت الجدة.

– حتى أجعل المطر يسقط – قال العمدة.

وبعد أن رأى أن السحابة قد ابتعـدت عن مرماه قطع مهامه الرسمية وأبدى كل اهتمامه بالجدة..

- إن ما تحتاجينه يا سيدتى هو إنسان له وزن كبير يستطيع الدفاع عنك - قال لها - أنت فى حاجة لأحد يضمنك فى حسن السير والسلوك من خلال مستند كتابى. ألا تعرفين السناتور أونيسيمو سانشيث؟

كانت الجدة تجلس تحت أشعة الشمس الحمراء الحارقة على كرسى صغير على عجزها الضخم فأجابت قائلة:

- إننى امرأة مسكينة فى هذه الصحراء الشاسعة.

تأملها العمدة بعينه اليمنى وقد أغمضها قليلاً بسبب الحر وكانت نظرة متعاطفة.

- إذن لا تضيعى الوقت يا سيدتى - قال لها - لقد ذهبت مع الريح.

لم يذهب الريح بها بالطبع. فقد أقامت الخيمة أمام دير التبشير وجلست تفكر كأنها محارب وحيد يقوم بحصار مدينة محصنة. أما المصور الجوال الذى يعرفها جيداً فقد حزم الماكينة على دراجته واستعد للذهاب عندما رآها وهى تحت الشمس وعيناها مثبتتان على الدير.

- لنر من سيصاب بالإجهاد أولا - قالت الجدة - هل أنا أم هم.

- إنهم هناك منذ ثلاثمـائة عام ولا زالوا يتـحملـون - قال المصور - أما أنا فذاهب.

فى هذه اللحظة رأت الجدة الدراجة محملة.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى حـيث تأخـذنى الرياح - قال المـصور ثم مـضى - الدنيا واسعة.

تنهدت الجدة.

- ليس بنفس الشكل الذى تتصور أيها التعس.

لكنها لم تحرك رأسها رغم الغـيظ حتى لا يبتعد ناظرها عن الدير - وظلت على هذا الحـال طوال أيام كثـيرة كان الحـر فيـها شديداً. وطوال ليـالى كثيـرة تضرب الرياح فى أرجـائها. وطوال أوقات التأمل لم يخرج أحـد من الدير. قام الهنود ببناء عشة من السعف إلى جوار الخيمة وعلقوا فيها حاجياتهم، لكن الجدة كانت تسهر حـتى ساعة متأخـرة من الليل يغالبها النعـاس وهى جالسة على العرش وتلوك الحبـوب، التى أخرجتها من كيـسها، بإصرار ثور يرقد ويجتر طعامه.

وذات ليلة، مـرت بالقرب منهـا مجـموعة من الشـاحنات المغطاة؛ كانت تسير ببطء، وكانت الأضـواء الوحيدة المشتعلة هى

كشافات ملونة تجعل من الإضـاءة كأنها ألوان طيف. عرفت الجدة نوعيـة السيارات عـلى الفور فهى مماثلة لشـاحنات الأماديســيين. تأخرت آخر سيارة فى هذا الرتل ثم توقفت ونزل منها رجل ليقوم بإصلاح شيء مـا فى صندوق السيارة. كان يبـدو أنه صورة طبق الأصل من الأماديسيين إذ كان يلبس قبعة ملتوية أطرافها وحذاء ذا رقبة طويلة وحـزامين من الخراطيش متعاقـدين على منطقة الصدر وبندقيـة من بنادق الجيش بالإضـافة إلى مسـدسين. ولما كـان قد غلبتها قناعة لا تقاوم نادت الجدة على الرجل.

- ألا تعرف من أنا؟ سألته

وجـه إليهـا الرجل ضوء البطاريـة التى يحملهـا بشكل لا رحمـة فيه وتأمـل للحظة الوجه الذى أصابه الإعـياء من السـهاد والعينين المتعبتين والشعر الذابل لامرأة كان يمكن أن تكون أجمل امرأة فى الدنيا رغم تقـدم عمرها. وعندما تفحصهـا جيداً ليكون على يقين من أنه لم يرها قط قبل ذلك أطفأ البطارية.

- الشيء الوحيد الذى أعرفه ومـتأكد منه - قال - هو أنك لست عذراء دى لوس ريميديوس.

- على العكس تمامـاً - قالت الجدة بصـوت فيـه عذوبة - إننى السيدة.

وضع الرجل يده على المسدس بحركة غريزية.

- أى سيدة !

- زوجة أماديس الكبير.

- إذن لست من هذا العالم - قال بتوتر - ما الذى تريدين؟

- أن تساعدونى فى إنقاذ حفيدتى، حفيدة أماديس الكبير، ابنة ابننا أماديس فهى أسيرة فى هذا الدير.

غالب الرجل خوفه.

- لقد أخطأت العنوان - قال - إذا ما تصورت أننا قادرون على التدخل فى الأمور الدينية، فلست أنت يا سيدتى التى تقولين هذا، ولست تعرفين الأماديسيين وليست لديك أى فكرة عن ماهية التهريب.

نامت الجدة فى ذلك الفجر وقتًا أقل من الليالى السابقة، وقد قضت الليل وهى تلوك الحبوب وقد لفت نفسها ببطانية من الصوف، وتولى وقت السحر إضعاف ذاكرتها وأخذ الهذيان المكبوت يصارع من أجل الخروج إلى النور رغم أنها يقظة وكان عليها أن تضغط على قلبها بيديها حتى لا تطاردها ذكريات منزل يطل على البحر تملؤه الزهور من مختلف الألوان حيث كانت تعيش سعيدة وظلت على هذا الحال حتى دق جرس الدير وأضيئت الأنوار الأولى فى النوافذ وملأت الصحراء رائحة الخبز الطازج. وعندئذ تركت نفسها نهبًا للإرهاق وقد خدعها الأمل فى

أن إيريندير قد نهضت من نومها وتحاول أن تجد الوسيلة للهروب.

أما إيريندير فلم تضيع ليلة واحدة إلا ونامت وذلك منذ أن حملوها إلى داخل الدير. فقاموا بقص شعرها باستخدام مقص تقليم النباتات وتركوا رأسها كأنها فرشاه وجعلوها تلبس القفطان الخشن الذى عادة ما ترتديه المبتدئات فى الرهبنة وسلموها دلواً من الجص للماء وكذا مقشة لتقوم بتنظيف درجات السلم كلما مر عليه أحد. هو عمل لا يتحمله إلا البغال ذلك أن صعود السلم ونزوله كان مستمراً إذ تواصل صعود المبشرين والمبتدئات اللائى تقمن بأعمال الحمالين. لكن إيريندير شعرت بذلك وكأنها تقضى يوم الأحد فى كل يوم. أى تخلد بعد العملية المهلكة إلى السرير. كما أنها لم تكن الوحيدة التى تصاب بالإرهاق من كثرة العمل عند حلول الليل ذلك أن الدير لم يكن مسخراً لمحاربة الشيطان بل لمحاربة الصحراء.

كانت إيريندير ترى المبتدئات الهنديات وهن يحكمن سيطرتهن على الأبقار لحلبها فى الزرائب، وكن يقضين أياماً كاملة وهن يتقافزن فوق صناديق خشبية من أجل تصفية الجبن. وكن يساعدن الماعز فى لحظات المخاض الصعبة. لقد رأتهن وهن يتصببن عرقاً، كأنهن عمال شحن وتفريغ، وهن يخرجن المياه من البئر ويقمن برى حديقة ترتعد من الخوف قامت بفلاحتها مبتدئات

أخريات استخدمن فى ذلك الفأس البقول فى قلب الصحراء. لقد رأت الجحيم الدنيوى فى أفران الخبز وحجرات الكى. شهدت أيضًا إحدى الراهبات وهى تقوم بمطاردة خنزير فى الفناء ورأتها وهى تتزحلق ممسكة بالخنزير من أذنيه وتسقط به فى منطقة موحلة فتهب لنجدتها اثنتان من المبتدئات وهن يرتدين مرايل من الجلد ويسيطرن على الخنزير، وقامت إحداهن بذبحه مستخدمة سكين جزارة وتلطخت ثلاثتهن بالطين والدم. رأت فى أحد الأروقة الجانبية للمستشفى بعض الراهبات المصابات بمرض السل وهن يرتدين قمصان الموتى الذين ينتظرون قضاء الله، وهن يقمن بتطريز ملاءات الأسرة وجالسات فى الشرفات بينما يقوم رجال الإرسالية بالتبشير فى الصحراء.

كانت إيريندبرا تعيش مع نفسها وهى تكتشف أنماطًا جديدة للجمال والفظاعة لم تتصورها أبدًا فى هذا العالم الضيق للسرير. لكن لم تستطع أى واحدة من المبتدئات سواء الخشنات الطبع منهن أو العنيدات أن تجعلها تنطق بكلمة منذ أن حملوها إلى الدير. وذات صباح وعندما كانت تقوم بوضع الماء فى الجردل سمعت صوت آلة موسيقية وترية بدت وكأنها نور ساطع وسط ضوء الصحراء. لقد استأثرت المعجزة بلبها وجعلتها تطل على صالون ضخم وخال، ليس على حوائط شىء له نوافذ ضخمة، كانت أنوار شهر يونيو تدخل منها بقوة وتظل واقفة هناك. ورأت فى

وسط الصالون راهبة عظيمة الجمال لم ترها قبل ذلك، وهى تعزف مقطوعة موسيقية دينية على آله Claviembalo وهى طراز قديم من البيانو. استمعت إيريندبرا للموسيقى دون أن تطرف لها عين وروحها فى حالة تسامى حتى رن الجرس لتناول الطعام. وبعد الغذاء، وبينما تقوم بتلميع السلم باستخدام الفرشة المصنوعة من الحلفاء، انتظرت حتى تصعد جميع المبتدئات وتنزل بعد ذلك. وبقيت وحيدة لم يسمعها أحد، وعندئذ تكلمت لأول مرة منذ أن دخلت الدير. وقلت:

- أنا سعيدة.

فقدت الجدة آمالها فى أن تحاول إيريندبرا الهرب والذهاب معها، ورغم ذلك ظلت تعيش حالة الحصار الحديدى دون أن تتخذ أى قرار، وظلت هكذا حتى يوم الأحد الذى يوافق عيد العنصرة. وخلال هذه الفترة من العام كان المبشرون يقومون بتمشيط الصحراء للبحث عن العشيقات الحبليات من أجل تزويجهن. كانوا يذهبون حتى العزب المجهولة البعيدة وهم يركبون شاحنة متهالكة ويرافقهم أربعة من الجنود جيدى التسلح وجوال به بعض الحاجيات الضئيلة القيمة. وأصعب شىء فى عملية الاصطياد هذه يتمثل فى إقناع النساء اللاتى يحاولن الهروب من الكرم الإلهى بحجة قوية تقول بأن الرجال يشعرون بأنهم أصحاب حق فى أمرهم الزوجات الشرعيات بالقيام بأعمال

أكثر غلظة وقسوة من أن تطلب من العـشيقات، وفي الوقت نفسه ينامـون ملء جفـونهم على الأسرة المعلقـة. كان الأمـر يقتـضى اللجـوء إلى وسائل خـداعـية وذلك بتـذويب دواء إرادة الله فى شراب من نفس المعين الذى يستخـدمنه حتى لا يشعرن بوطأتها. وكان الأمـر ينتهى بهن، بما فى ذلك أكثـرهن مقاومـة، بالاقتناع وقبـول أقراط من النحاس. أمـا فى حالة الرجال فكان تصـرفهم عكسيًـا إذ عندما تقبل النساء يـقوم الرهبان بإخراجـهم بالقوة من على الأسـرة المعلقـة ويذهبوا بهم مـقـيدين إلـى أماكن الشـحن والتفريغ لتزويجهم بالقوة.

وطوال عدة أيام كـانت الجدة ترى الشـاحنة الصغـيرة وهى تدخل الدير محملة بالنساء الهنديات الجبليات لكن لم تجد الفرصة السـانحـة، لكن هذه الفـرصـة كانت سـانحـة يوم الأحـد (يوم العنصرة) وذلك عندمـا سمعت الصواريخ الناريـة وقرع الأجراس وشاهدت أعداداً من جمهور البؤساء الفرحين تدخل للمشاركة فى الحفلة، ورأت نسـاء حبليات وهن يضعن على رؤوسـهن الطرحة وتاج الزفاف ويتـأبطن أذرع أزواج الصدفة حتى تكتـسب العلاقة صبغة شرعية فى هذا الزفاف الجماعى.

كان آخـر واحد فى هذا الطابور شاب برئ القلب ذو شـعر هندى وقد قـصه على هيئـة ثمرة الـ **Totuma** ويرتدى لباسًا من الأسمال ويحـمل فى يده شمعة طويلة عليهـا شريط من الحرير. نادته الجدة.

- قل يا بنى، أود أن تقول لى شيئًـا - سألته بصوف ناعم - ماذا أنت فاعل فى هذا الهرج والمرج.

كان الفـتى يشعر بالخوف وهو يـحمل الشمعـة، ولما كانت أسنانه قوية كأنها أسنان الحمار، كان يجد صعوبة فى إغلاق فمه.

- الأمر هو أن الآباء سـيقومـون بعمل التناول الأول لى - قال.

- كم دفعوا لك؟

- خمسة بيزو.

أخرجت الجـدة من كيس نقـودها حزمة مـن الأوراق المالية نظر إليها الفتى وقد شعر بالدهشة.

- سوف أعطيك عـشرين بيزو - قـالت الجدة - لكن ذلك ليس من أجل التناول الأول بل حتى تتزوج.

- وممن أتزوج؟

- من حفيدتى.

بهـذه الطريقة تزوجت إيرينـديرا فى فناء الدير وهى ترتدى قـفطان السـجـينات وتضع على رأسـهـا طرحة أهديـنها إليـهـا المبـتدءات، ودون أن تعـرف ما هو اسم الزوج الذى اشـترته لهـا الجدة، تحملت بأمل غـير واثق عملية الركـوع على الأرض المليئة

بالحصى الكريهة التى تشبه رائحة جلد ذكر الماعز المنبعثة عن المائتى عروس الحبليات. وتحملت طول رسالة القديس بابلو التى ألقيت باللغة اللاتينية فى هذا القيظ المحرق وذلك لأن المبشرين لم يجدوا لديهم الأسباب لمعارضة مصيدة الزواج غير المتوقعة، إلا أنهم وعدوها بآخر محاولة للإبقاء عليها فى الدير، ومع كل هذا فعند نهاية حفل عقد القران، وفى حضور كل من الممثل الرسولى والعمدة العسكرى الذى كان يطلق النيران على السحب ووجود الزوج الذى هلّ حديثًا، وجدتها اللامبالية وجدت إيريnديرا نفسها تحت السحر الذى سيطر عليها منذ مولدها. وعندما سئلت عن رغبتها الحرة والحقيقية والنهائية لم تتردد لحظة واحدة.

- أريد الذهاب من هنا - قالت، وأوضحت مشيرة إلى الزوج - لكنى لن أذهب معه، بل أنا ذاهبة مع جدتى.

قضى عليس الأمسية بالكامل محاولاً سرقة برتقالة من مزرعة والده الذى لم تفارقه عيناه وهما يقومان بتقليم الأشجار المريضة، أما أمه فكانت تحرسه وهى فى المنزل. وفى النهاية تخلى عن عزمه، فى هذا اليوم على الأقل، وأصبح عكر المزاج وهو يساعد والده حتى انتهيا من تقليم باقى أشجار البرتقال.

كانت المزرعة الفخمة ساكنة وبعيدة عن الأعين، أما المنزل الخشبى ذو السقف المصنوع من ألواح الصفيح، فقد كانت توضع على نوافذه شباك نحاسية وله شرفة ضخمة أقيمت على دعامات

ووضعت فيـها نباتات برية ذات زهور نفاذة الرائـحة. كانت والدة عليس فى الشرفـة مستلقـية على كرسى هزاز وقـد وضعت على صدغيها بعض الأوراق المدخنة لمقاومة الصداع. أما نظراتها الثاقبة التى يتميـز بها الهنود الأُصلاء فكانت تتابع الابن وحركـاته كأنها حـزمة ضـوء غيـر مرئى حـتى فى الأمـاكن المنزوية من حديقـة البرتقال. جمالها أخاذ، وهى أصغر سنًا بكثير من الزوج. ترتدى القميص القبلى كمـا كانت على علم ودراية بالأسرار القديمة لبنى جلدتها.

عندما عاد عليس إلى المنزل وهو يحـمل عدة التقليم طلبت منه والدته أن يأتى لها بالدواء الـذى يجب أن تتناوله فى الرابعة، والموجـود على منضـدة صغـيـرة قريبـة. وبمجـرد أن لمس الدواء والكوب تبدل لونهـما. وبعد ذلك لمس على سـبيل اللعب، إناءً من الزجاج كـان موضوعًا على المنضـدة مع أكواب أخرى فتـغير اللون إلى اللون الأزرق.

كانت أمه تراقبه وهى تتنـاول جرعة الدواء، وعندما تأكدت أن ما تراه ليس سحر عين أو هذيان سألته بلغتها المحلية:

- منذ متى يحدث لك هذا؟

- منذ أن عدنا من الصحراء - قال عليس متحدثاً بلغة الأم - وهذا يحدث لى مع كل ما هو زجاجى.

وحتى يبـرهن على ذلك أخذ يلمس الأكواب الواحـد بعد الآخر، فأخذ كل كوب لوناً مختلفاً.

- هذه الأمور تحـدث فقط من جـراء الحب - قالت الأم - من هى؟

لم يرد عليس، أمـا والده الذى لم يكن يعـرف هذه اللغـة المحلية فكان يمر فى الشرفة وهو يحمل فرعًا به ثمار البرتقال.

- عم تتحدثان؟ - سأل عليسًا بالهولندية.

- مجرد كلام - أجاب عليس.

لم تكن والدة عليس تعرف الهولندية. وعندما دلف زوجها إلى الداخل سألت ابنها باللغة المحلية.

- ماذا قال لك؟

-فقال : لا شيء ذو قيمة.

اختـفى والده داخل المنزل ثم عاد ليراه وهو فى مكتـبه من خلال إحدى النوافذ، انـتظرت الأم حتى تكون بمفردها مع عليس وعندئذ أصرت.

- قل لى من هى؟

- لا يوجد أحد - قال عليس.

أجاب بلا اهتمام ذلك أنه كـان يراقب تحركات والده داخل المكتب فـرآه يضع البـرتقال فـوق الخزنة وذلـك حتى يقـوم بحل الشفرة، وفى الوقت الذى أخذ يراقب فيـه والده كانت أمه تراقبه هو.

- منذ زمن طويل وأنت لا تأكل الخبز - لاحظت الأم.

- لا أرغب.

سرعـان ما اعـتلت وجه الأم حيـوية غريبـة "هذا كذب - قالت - الموضـوع هو أنك تعانى من الحب ومن هـم على الجانب الآخر لا يسـتطيعون تناول الخبـز" وتحول صوتها مـثل عيناها من ملامح التضرع إلى نغمة التهديد.

- الأجدر بك أن تـقول لى من هى - قـالت - أو أن أقوم بإعطائك حماماً بالقوة لتطهيرك.

قام الهولندى بفتح الخزانة ووضع البرتقالات فى الداخل ثم عـاد لإغلاق البـاب المصفح. ابتـعد عـليس فى هذه اللحظة عن النافذة وقام بالرد على والدته بنغمة غير صبورة.

- لقد قلت لك أن لا أحد هناك - قال - وإذا لم تصدقينى فاسألى والدى.

ظهر الهولندى على باب المكتب وهو يقـوم بإشعال الغليون كما كـان يحمل الإنجيل الذى تفسخت جلدته تحت إبطه. فـسألته المرأة بالأسبانية:

- على من تعرفتم فى الصحراء؟

- لا أحـد - أجاب الـزوج وهو ذاهل بعض الشيء - وإذا لم تصدقينى فاسألى عليسًا.

جلس آخر الممـشى وهو يدخن غليونه حتى نفـذ ما به من تبغ؛ وبعد ذلك فـتح الإنجيل كيفـما اتفق وأخذ يقرأ فـقرات من مواضع مختلفة على مدار ساعـتين، كان يقرأ بالهولندية وبصوت مسموع.

كان عليـس - حتى منتصف الـليل - لا زال يفكر بتركـيز لدرجـة أنه لم يستطـع النوم، أخذ يتـقلب فى سـريره المعلق لمدة ساعة مـحاولاً السيطرة على آلام الذكريات التى أعطتـه فى النهاية حافز اتخاذ القرار. وعندئذ نهض وارتدى البنطلون الجينز وقميص "كاروهات" اسكتلندى والحذاء المخصص لركـوب الخيل، ثم قفز من النافذة وهرب من البيت وقـد أخذ معه سيارة النقل الـصغيرة المحملة بالعصافير. وعندما مـر بحديقة البرتقال قطف البرتقالات الثلاثة الناضجة التى لم يستطع سرقتها فى المساء.

وظل يسير فى الصحـراء باقى الليل، وعند شروق الشمس أخذ يسـأل فى القرى والعزب عن الاتجـاه الذى سلكته إيريندرا، لكن لا أحد يشفى غليـله، وأخيرًا قالوا له إنها تسـير خلف فريق الحملة الانتخابية للسناتور أونيسيمو سانشيث وأنها يمكن أن تكون

فى هذه المرحلة فى قشتالة الجديدة، إلا أنه لم يجدها هناك بل كانت فى القرية التالية. لكن إيريندира لم تكن مع فريق الحملة ذلك أن الجدة استطاعت أن تجعل السناتور يشهد لها بحسن السير والسلوك من خلال ورقة كتبها بخط يده واستطاعت بهذه الورقة أن تفتح مغاليق الأبواب الموصدة أمامها فى الصحراء. وفى اليوم الثالث التقى برجل البريد الوطنى فساعده على معرفة العنوان الذى يبحث عنه.

-إنهما متجهتان نحو البحر - قال له - وأسرع فى سيرك ذلك أن القحبة العجوز تريد العبور إلى جزيرة "أروبا".

وجد عليس فى الاتجاه الذى سلكه بعد نصف يوم من السفر الخيمة الكبيرة التى قامت الجدة بشرائها من سيرك كان فى طريقه للتفكك. المصور الجوال عاد ليرافقها، وهو هذه المرة على قناعة بأن الدنيا ليست واسعة كما كان يتصور، وعدته مهيأة للعمل بالقرب من الخيمة، كما كانت هناك مجموعة من الموسيقيين من عازفى الآلات النحاسية تخلب لب زبائن إيريندира بفالس مهيب.

أخذ عليس دوره للدخول، وأول شىء لفت انتباهه كان النظافة والنظام داخل الخيمة. سرير الجدة قد أصبح على سابق عهده من الفخامة، ووضع تمثال الملاك فى مكانه المناسب بجوار

الصندوق الجنائزى للأماديسيين، كما كان هناك (بانيو) معدنى يقوم على أرجل بهيئة أرجل الأسد. أما إيريندير فهى مستلقية على سريرها الجديد ذى الظلة، عريانة وهادئة وتشع منها ملامح الطفولة وهى تحت حزمات الضوء النافذة إليها عبر الخيمة. تنام وعيناها مفتوحتان، توقف عليس إلى جوارها وهو يحمل البرتقالات فى يده ولاحظ أنها كانت تنظر نحوه دون أن تراه، وعندئذ مرر يده أمام عينيها ونادى عليها باسم ابتكره ليفكر فيها :

– يا أَرِيدنِيرى.

استيقظت إيريندير، شعرت أنها عريانة أمام عليس، صاحت صيحة مكتومة وغطت نفسها بالملاءة حتى رأسها.

– لا تنظر إلىّ – قالت – أنا غير مهندمة.

– إنك بلون البرتقال – قال عليس، وقام بوضع الفاكهة على مستوى عينيها لتقوم هى بالمقارنة – انظرى.

كشفت إيريندير عينيها وتأكدت أن البرتقالات لها نفس لونها.

– الآن لا أريدك أن تبقى – قالت.

– إننى دخلت إلى هنا لأريك هذا – قال عليس – تصورى.

قام بتقشير برتقالة طازجة بأظافره وقسمها بكلتا يديه وبين لإيرينديرا عما بداخل البرتقالة: ففى داخل البرتقالة كانت هناك ماسة حرة.

- هذه هى البرتقالات التى نأخذها إلى الحدود - قال.

- لكنها برتقالات حية - قالت باستغراب.

- بالطبع - ابتسم عليس - يقوم والدى بزراعتها.

لم تصدق إيريندبرا ذلك فكشفت عن وجهها وأخذت الماسة بأصابعها وأخذت تتأملها وهى مندهشة. قال عليس:

- بثلاثة من هذه يمكن أن نطوف حول العالم.

أعادت إليه إيريندبرا الماسة وهى تشعر بقليل من الحماس، أصر عليس.

- أضف إلى ذلك عندى سيارة نقل صغيرة - قال - ثم ... انظرى !

أخرج من تحت القميص مسدساً قديمًا.

- لا يمكن لى أن أغادر المكان قبل عشر سنوات - قالت إيريندبرا.

- سوف تذهبين - قال عليس - هذه الليلة سوف أنتظرك فى الخارج وعليك انتهاز الفرصة عندما ينام سبع البحر الأبيض،

وسوف تكون كلمة السر هى تقليد صوت البومة. قام بتقليد صوت البومة، ولأول مرة تضحك عينا إيرينديرا.

- إنها جدتى.

- البومة؟

- سبع البحر.

ضحكا. لهذا اللَّبْس لكن إيرينديرا استأنفت الحوار.

- لا أحد يستطيع أن يذهب إلى أى مكان دون إذن من جدته.

- لا يجب أن يقال لها شىء.

- هى ستعرف على أى الأحوال - قالت إيرينديرا: إنها تحلم بما يحدث.

- عندما تبدأ تحلم بأنك سوف تذهبين، فإننا سنكون على الجانب الآخر من الحدود، وسوف نعبرها مثل المهربين.. قال عليس.

أمسك بالمسدس كأنه بطل سينمائى وقلد صوت الطلقات ليقنع إيرينديرا بإقدامه. لم تقل نعم أو لا لكن عينيها تنهدتا وودعت عليس بقبلة، كان عليس قد عاش الانفعال، ثم قال مغمغمًا.

- غداً سوف نرى السفن وهى تمر.

وبعد السابعة بقليل من تلك الليلة كانت إيرينديرا تقوم بتمشيط الجدة عندما عادت رياح تعاستها لتهب من جديد. وفى حماية الخيمة، هناك الهنود الحمالون وكذا مدير الفرقة الموسيقية فى انتظار قبض الأجر، انتهت الجدة من عد النقود فى صندوق قريب منها، وبعد أن اطلعت على دفتر الحسابات قامت بدفع الأجر لكبير مجموعة الهنود.

- ها هو مبلغ عشرون بيزو قيمة عمل الأسبوع يخصم منها ثمانية مقابل الأكل وثلاثة مقابل الشرب، ويخصم منها نصف بيزو لحساب القمصان الجديدة والباقى هو ثمانية بيزو ونصف، قم بعد المبلغ جيداً.

قام كبير الهنود بعد المبلغ وذهبوا جميعًا وهم يؤدون تحية الاحترام.

- شكراً يا بيضاء.

أما التالى فكان مدير الموسيقيين، عادت الجدة لتطلع على دفتر الحسابات وتوجهت إلى المصور الذى كان يحاول لصق الكم القماش الأسود للكاميرا مستخدمًا بعض الصمغ الهندى.

- علام اتفقنا؟ قالت له - هل ستدفع ربع مستحقات الموسيقيين أم لا؟

لم يرفع الموسيقى رأسه ليجيب على سؤالها.

- الموسيقى لا تظهر فى الصور.

لكنها تجعل الناس فى حالة نفسية جيدة للتصوير - قالت الجدة.

- على العكس من ذلك - قال المصور - إنها تذكرهم بالموتى، وبعد ذلك يظهرون فى الصورة وعيونهم مغمضة.

تدخل مدير الفرقة الموسيقية.

- الموسيقى لا تجعل العيون مغمضة - قال - بل إنها فلاشات التصوير ليلاً.

- إنها الموسيقى - أصر المصور.

أنهت الجدة الجدال "لا تكن بخيلاً" - قالت للمصور - تأمل جيداً فى الوضع الممتاز الذى عليه السناتور أونيسمو سانشيث وهذا بفضل مجموعة الموسيقيين المرافقين له. وبعد ذلك قالت بلهجة حادة:

- عليك أن تدفع الجزء الذى يخصك أو أن تذهب بعيداً عنا، وليس من العدل أن تتحمل هذه المخلوقة الضعيفة كل النفقات.

- إننى أسير نحو مصيرى بمفردى - قال المصور - فأنا لست إلا فناناً.

هزت الجدة كتفيها وانشغلت مع الموسيقى وسلمته حزمة أوراق مالية طبقًا للرقم المدون فى الدفتر.

- الحساب هو مائتان وأربعة وخمسون ورقة، قالت له - فئة كل واحدة خمسون سنتًا، وأضف إلى ذلك اثنين وثلاثين عن أيام الآحاد وأيام الأعياد بمعدل ستين سنتًا كل واحدة يكون الإجمالى مائة وستة وخمسون بيزو وعشرون سنتاً.

لم يأخذ الموسيقى المبلغ.

- المبلغ المطلوب هو مائة واثنتان وثمانون بيزو وأربعون سنتًا - قال - ذلك أن الفالس أغلى.

- ولماذا؟

- ذلك أنه أكثر حزنًا - قال الموسيقى.

- إذن فعليك أن تعزف لنا هذا الأسبوع مقطوعتين مرحتين مقابل كل فالس أدين لك به. ونسوى الحساب بهذا الشكل.

لم يفهم الموسيقى منطق الجدة لكنه قبل بالحساب هكذا وهو يقوم بفك رزمة الأوراق المالية. وفى هذه اللحظة كانت الرياح العاتية على وشك أن تخلع الخيمة، وبعد أن سكنت سمع فى الخارج الصوت الحزين للبوم.

لم تدر إيريندیرا ماذا تفعل حتى تخفى توترها. قامت بإغلاق صندوق النقود ووضعته تحت السرير، لكن الجدة أدركت

ما بها من خوف من خلال يدها وهى تسلمها المفتاح - لا تخافى - قالت لها - هذه الطيور عادة ما تكون موجودة فى ليالى الزوابع، ومع ذلك لم تبد منها بادرة اقتناع وخاصة عندما رأت المصور وهو يحمل الكاميرا على كتفه ويغادر المكان.

- ابق حتى الصباح إذا ما أردت - قالت له - فالموت طليق السراح فى هذه الليلة.

سمع المصور صوت البومة، لكنه لم يغير من نيته.

- ابق يا بنى - أصرت الجدة - ولو كان هذا بفضل معزتك عندى.

- لكن لن أدفع للموسيقى شيئًا - قال المصور.

- ما عدا هذا - قالت الجدة - إلا هذا.

- أترين؟ - قال المصور - إنك لا تحبين أحدًا.

- إذن ابتعد - قالت - يا من ولدت يوم نحس!

كانت تشعر أنها مستغلة، ولهذا ظلت تصب عليه اللعنات فى الوقت الذى تساعدها فيه إيريندريا على النوم " ابن الأم الملعونة، ما الذى يعرفه ابن الساقطة هذا عن قلوب الآخرين" لم تهتم إيريندريا وذلك لأن صوت البومة كان ينادى عليها بإصرار فى اللحظات التى تسكن فيها الرياح. كانت تشعر بالرهبة من

جـراء الحيـرة. الجدة دخـلت السرير سـيـراً على نفس الخطوات المعهودة فى المنزل الكبير القـديم. وفى الوقت الذى كانت الحفيدة تقوم فيه بالتهوية عليـها تجاوزت الجدة حالة الحنق والغيظ وعادت تسترد تنفسها الطبيعى.

- عليك بالاستـيقاظ مبكراً - قالت - وذلك حـتى تقومى بغلى مياه الحمام الخاص بى وبه الأعشاب قبل أن يأتى الناس.

- حاضر يا جدتى.

- وفى الوقت الباقى أمامك عليـك بغسل الملابس الداخلية المتسخة الخاصة بالهنود وبذلك نخصم المزيد من حسابهم للأسبوع القادم.

- حاضر يا جدتى - قالت إيريندیرا.

- ونامى ببطء حتى لا تتـعبى فغداً الخـميس هو أطول يوم فى الأسبوع.

- حاضر يا جدتى.

- وعليك أن تضعى الطعام للنعامة.

- حاضر يا جدتى - قالت إيريندیرا.

تركت المروحة عند رأس السرير وقامت بإشعال شمعتين من الشموع أمام الصندوق الذى به رفـات الموتى، ولما كانت الجدة قد نامت فقد أصدرت لها هذا الأمر متأخرة.

- لا تنسى إشعال شموع الأماديسيين.

- حاضر يا جدتى.

كانت إيريندرا تعرف أنها لن تستيقظ، ذلك أنها بدأت تهذى. سمعت عواء الرياح حول الخيمة، لكنها لم تعرف هذه المرة أيضًا زوبعة تعاستها. أخذت تحملق فى الظلام حتى أخذ صوت البومة يتردد من جديد، وأخيراً تغلب حبها للحرية على الأسر السحرى لجدتها.

لم تكد تسير خمس خطوات خارج الخيمة حتى وجدت المصور الذى يحزم حاجياته على الشبكة الخلفية للدراجة. كانت ابتسامته الماكرة مثاراً لتهدئتها.

- أنا لا أعرف شيئًا - قال المصور - وأنا لم أر شيئاً ولن أدفع للموسيقيين شيئاً.

ودعها ودعا لها بالبركة بإيماءة معروفة، اتجهت إيريندرا جريًا نحو الصحراء وقد حزمت أمرها بشكل نهائى. واختفت فى ظلمة الرياح متجهة صوب صوت البومة.

فى هذه المرة لجأت الجدة إلى السلطة المدنية على الفور. وعندئذ قفز قائد الحامية المحلية من على سريره المعلق، فى السادسة صباحًا عندما أظهرت له رسالة التوصية التى وقعها السناتور. كان والد عليس ينتظر على الباب.

- كيف تريدين منى قراءتهـا، اللعنة - صاح القائد - إننى لا أعرف القراءة.

- إنها رسالة توصية من السناتور أونيسمو سانشيث - قالت الجدة.

قام القـائد بسحب بندقـية مـعلقة بالقرب من الـسرير ولم يوجه المزيد مـن الأسئلة، وأخذ يصـيح موجهًـا أوامره لأتبـاعه، وبعد خمس دقائـق كان الجميع على متن شاحنة حربيـة صغيرة، أخذت تنهب الأرض متوجهة إلى الحدود، وكانت الرياح تهب فى الاتجـاه المعـاكس، الأمـر الذى أدى إلى إزالة أى آثار للهـاربين. القـائد يجلس فى المقـعد الأمـامى إلى جوار السـائق وخلفـهمـا الهولندى ومعه الجدة. وفى كل مقعد من مقاعد العربة هناك أحد الجنود المسلحين.

أوقفوا قافلة الشاحنات المغطاة بالقماش العازل، بالقرب من القرية عندئذ قـام عدد من الرجال الذين يسافـرون مختبـئين تحت الأغطية بتصـويب مدافعهم الرشاشة وبنادق القـتال على الشاحنة العسكرية، سأل القائد سائق الشاحنة الأولى عن المكان الذى وجد فيه شاحنة زراعية صغيرة محملة بالعصافير.

استأنف القائد سيره قبل الإجابة.

- لسنا جواسيس على أحد - قال باستياء - إننا مهربون.

رأى القـائد المدافع والدخـان يخرج من فـوهاتهـا وهى تمر بالقرب من أمام عينيه فرفع ذراعيه وابتسم.

- عليكم أن تسـتحـوا بعض الشىء - صـاح فيـهم - ولا تسيروا هكذا فى وضح النهار.

كانت الشاحنة الأخيرة تحمل لافتة علقت على الجزء الخلفى تقول : "أفكر فيك يا إيرينديرا" . الرياح تزداد قوتها كلما تقدموا نحو الشمال، وأخـذت حرارة الشمس ترتفع ووصل الأمر إلى أن أصـبح من العسـير التنفس بـسبب الحـر والتراب داخل الشـاحنة المغلقة.

كـانت الجدة هى أول من لمح المصـور: كان يغـالب الرياح فهو يأخذ الاتجاه الذى هم فيـه، ولـم يكن معه أى وسيلة للحماية إلا منديلاً ربطه على رأسه.

- ها هو هناك - أشارت إليـه - إنه متواطئ معـهما، هذا الذى ولد يوم شؤم.

أمر القائد واحداً من أتباعه بأن يتولى أمر المصور.

- أمسك به وانتظر فى هذا المكان - قال - سوف نعود.

قفـز الجندى من مكانه ونادى على المصور مرتين ليـتوقف. لم يسـمعـه المصور نظراً لأن الـرياح كانت تهب فى اتجـاه عكس

الصوت، وعندما مرت به الشاحنة لوحت له الجدة بإشارة فيها ألغاز، إلا أنه فسرها على أنها تحية، فابتسم ولوح لها بيده مودعاً، لم يسمع الطلقة، طار فى الهواء وسقط ميتاً على الدراجة وقد تهشم رأسه برصاصة بندقية لم يعرف من أين أتت.

قبل منتصف النهار، بدأوا يلاحظون وجود الريش الذى يطير فى الهواء، كان ريش عصافير جديدة، تعرف عليها الهولندى لأنه يخص عصافيره التى نتفت الرياح ريشها، فقام السائق بتصحيح المسار وداس على بدال البنزين بقوة ليزيد من سرعة السيارة، وقبل أن تنقضى نصف الساعة لمحوا الشاحنة الصغيرة فى الأفق.

ولما رأى عليس ظهور السيارة العسكرية فى مرآة الشاحنة بذل جهده لزيادة فارق المسافة، لكن الموتور كان قد وصل إلى أقصى طاقته. كانا قد رحلا دون نوم وقد استسلما للإرهاق والعطش. كانت إيرينديرا تنام على كتف عليس، فاستيقظت مذعورة. إذ رأت السيارة العسكرية التى أصبحت قاب قوسين منهما، وبعزيمة بريئة أخذت المسدس من الشنطة الأمامية فى الكابينة.

- لن يفيد شيئًا - قال عليس - إذ كان يخص فرانسيس دراك.

قـامت بالدق عليـه عـدة مـرات ثم ألقت به من النافـذة. تقدمت الدوريـة العسكرية الشاحنـة الصغيـرة المتهالـكة والمحملة بالعصافـير التى تنتف الرياح ريشها، ثم قامـت الشاحنة العسكرية بالدوران قليلاً لتغلق الطريق أمام الشاحنة الصغيرة.

* * *

تعرفتُ عـليها فى هذه الفـترة التى كـانت تعتـبر من أزهى عصورهما رغم أنه لم يكن من المستحب التعرض تفصيليًا لحياتهما إلا بعد ذلك بأعوام طويلة. كـان هذا عندما غنى رفائيل إسكالونا أغنية تعرض فيها للنتيجة الرهيبة للدراما، وبدا لى أن من المناسب سرد ذلك. لقـد كنت أبيع الموسوعات وكتب الطب فى مـحافظة "ديو أتشا"، كما أن البارو ثيبيدو ساموديو هو الآخر يطوف بتلك النواحى لبيع ماكـينات الجيلاتى المصنوع من البيرة، فأخـذنى معه فى الشاحنة التى يقودها وطفت معه بقـرى الصحراء، وكان هدفه أن يحدثـنى عن شىء ما. وتحدثـنا كثيـراً عن أمور لا قـيمـة لها وتناولنا الكثيـر من البيرة دون أن نعرف المكان والزمـان الذى نعبر فيـه الصحـراء ونصل إلى الحدود، ها هى خيـمة الحب المتـجولة هناك وقد علقت عليها لافتات تقول: "إيرينديراهى الأفضل" كان الطابور الطويل والمتعرج والذى يضم رجالاً من مختلف السلالات والطبقـات يبدو كأنه حـية مكونة من فـقرات إنسانيـة، نائمة فى المناطق الخلوية والميـادين وبين المحـلات المتـراصة والأسـواق التى

يملؤها ضجيج البشر ثم تخرج من شوارع تلك المدينة الوعرة المليئة بالمهربين الذين حطوا فيها بصفة مؤقتة. كان كل شارع كأنه مكان مفتوح للمغامرة، وكان كل منزل بمثابة (كانتين)، وكل باب ملجأ للمتهربين من التجنيد. كانت أصوات المقطوعات الموسيقية غير المفهومة والنداءات بصوت مرتفع كلها تشكل ضجيجًا مزعجًا وسط الحر المهلك.

بين هذا الجمع ممّن لا وطن لهم، وهؤلاء الذين يطلبون الرزق أيًا كان مصدره كان "بلاكمان" الطيب، يتكئ على منضدة وهو يطلب حية حقيقية ليجرب على نفسه الترياق الذى اخترعه. كانت هناك المرأة التى تحولت إلى عنكبوت لأنها عصت والديها، وكانت تقبض من كل من يريد لمسها خمسين سنتًا حتى يتأكدوا أن ليس هناك خدعة. وترد على الأسئلة التى توجه إليها حول سبب شقائها. كان من بين الجمهور أيضًا أحد مبعوثى الحياة الخالدة، وكان يعلن قرب مجيء الوطواط النجمى الطيار وبما ينفثه من كبريت سوف يؤثر على نظام الطبيعة وسوف يجعل أسرار البحار تطفو على السطح.

كان المكان الوحيد الذى يتميز بالهدوء هو حى التسامح الذى يأتى إليه بقايا ضجيج المدينة، هناك نساء قد أتين من مختلف الجهات يتثاءبن وهن جالسات فى صالونات الرقص المهجورة. كن قد نمن القيلولة وهن جالسات دون أن يوقظهن أحد

ليـمارس الحب مـعهـن، وظللن ينتظرن الخـفاش النجـمى تحت المراوح ذات الأجنحة والمعلقة فى السمـاء المنبسطة. نهضت واحدة منهن فجأة وتوجهت إلى إحدى الطرقـات الممتلئة بزهور البنفسج التى تطل على الشـارع. كان الراغـبون فى لقاء إيريـنـديرا يمرون هناك.

- لنر - صاحت فيهم - ما هو الذى عند تلك وليس عندنا نحن؟

- إنها رسالة توصية من السناتور - صاح أحدهم.

خرجت نساء أخريات إلى الطرقة وقد شد انتباههن الصياح والضحكات.

- منذ أيام الطـفـولة وهذا الطابور لا زال هـناك - قـالت إحداهن - تصورى أن يقوم كل واحد منهم بدفع خمسين بيزو.

- فقالت التى خرجت أولاً مقررة :

- بالنسبـة لى سوف أذهب لأرى ما الذى عليه ابنة السـبعة أشهر هذه.

- وأنا أيضًـا - قالت أخرى - وهذا أفـضل من البقـاء هنا وتسخين مكان الجلوس مجانًا.

انضم إليهـن نساء أخريات وهن فى طريق الـذهاب وعندما وصلن إلى خيمة إيريندارا كن قد كـوّنَ فرقة مليئة بالجلبة ودخلن

عليها دون إذن. وأفزعن بضرباتهن الرجل الذى وجدنه وهو يقوم بالتمتع بأفضل شىء يمكن أن يجلبه له المال الذى دفعه، وأمسكن بسرير إيريnديرا وخرجن به كأنه محفة إلى الشارع.

- إن هذا عدوان - كانت الجدة تصيح - أيتـها القافلة غير الأمينة يا لكن من هجامات.

ثم توجـهت إلى الرجال الذبين كـانوا فى الطابور - وأنتم أيها الذكـور، أين هى رجولتكم التى سمحت بهـذا العدوان على مخلوقة ضعيفة - إنكم مخنثون.

ظلت تصيح بـأقصى ما يصل إليـه صوتها وتـقوم بتوجـيه ضربات بهراوتها لهؤلاء الذين هم بالقـرب منها، لكن غضبها تاه وسط صيحات الجمهور واستهزائه.

لم تستطع إيريnديرا الفرار من هذه المهزلة والسخرية ذلك أن جـدتها كـانت تربطها بسلسلـة كلب فى أحد أجناب السـرير منذ محاولة الفـرار. لكن لم يمسسها أحد. لقـد طافوا بها وهى على سريرها المغطى بالنامـوسية فى الشوارع المزدحمـة وكأنهم يطوفون رمزيًا بالتـائبة المقيدة بالسلاسل ثـم يضعونها فى النهـاية فى غرفة للحريق وسط الميدان الكبـير. كانت إيريnديرا منكفئة على نفـسها وتغطى وجـهـــهـا لكن دون أن تبكى، وهكـذا ظلت تحت وطأة حرارة الشمس وهى تعض - خـجلاً وغيظًا- سلسلة الكلب التى

تمثل مصيرها المؤلم حتى جاء أحد الناس وترفق بها ووضع قميصًا عليها.

كانت هذه هى المرة الوحيدة التى رأيتهما فيها، لكننى عرفت بعد ذلك أنها بقيت فى هذه المدينة المطلة على الحدود تحت حماية السلطات المحلية حتى أنفقت الجدة كل ما لديها من أموال وعندئذ تركتا الصحراء واتجهتا صوب البحر. كان من النادر أن يرى وفرة هائلة من ممالك الفقراء. كان الأمر عبارة عن طابور طويل من العربات التى تجرها الثيران حيث وضع فوقها نسخ مقلدة وغير جيدة من الأشياء التى لم تنج من الكارثة التى حلت بالمنزل الكبير. ولم يقتصر الأمر على التماثيل النصفية الإمبراطورية والساعات الغربية بل أيضًا كان هناك بيانو، وكذلك ماكينة ذات مقبض ومعها اسطوانات الزمن الذى مضى. تولت قافلة من الهنود عملية الحمل كما تولت فرقة موسيقية الإعلان عن وصولها المظفر إلى القرى.

كانت الجدة تسافر وهى موضوعة على محفة مزينة بزهور ورقية وهى تقوم بمضغ الحبوب التى تستخرجها من كيسها وتحميها من الشمس مظلة كنسية. كان حجمها الضخم قد زاد وذلك لأنها كانت تضع تحت البلوزة صديرى من قماش قلوع المراكب تحفظ فيه سبائك الذهب كأنها طلقات مرصوصة فى حزام لحمل الذخيرة. كانت إيريndيرا إلى جوارها ترتدى لباسًا زاهى الألوان

ومعلقة حولها شرائط الزينة، لكن لا زالت سلسلة الكلب مربوطة في خلخال رجلها.

- ليس من حقك الشكوى - قالت لهـا الجدة عند الخروج من المدينة الحدودية - فعندك ثياب كأنك الملكة وسرير فاخر وفرقة موسيقية خاصة وأربعة عشر هنديًا في خدمتك، ألا يبدو لك هذا رائعًا؟

- بلى يا جدتي.

- وفي اليوم الذي أقضي نحبي فيه - واصلت الجدة - فلن تكوني تحت رحمة الرجال فـسوف يكون لك مسكنك الخاص في مدينة هامة، سوف تكوني حرة وسعيدة.

كانت رؤية جديدة وغير متوقعة للمستقبل، إلا أنها لم تعد تتـحدث عن الدين القـديم الذي تتعـقد تفـاصيله وتـزداد قيـمة أقسـاطه، كما تـعرضت التجـارة لبعض العـثرات، ومع ذلك لم تتنهد إيريـنديرا بشكل يعكس ما تفكر فـيه. لقد أذعنت صـاغرة لعذاب السـرير وسط الملاحات ووسط سـبات القـرى المطلة على البـحيرات وعلـى السرير النقـال المصنوع من القمـاش في مناجم التلك، بينما تقوم الجدة بتعداد ملامح رؤيتهـا المستقبلية كأنها تقرأ الطالع من خلال أوراق الكوتشينة. وذات مـساء، بعد الخروج من شعب ضيق، تنسما رياحًا تحمل أكاليل الغار القديمة وسمعا جلبة

تشبه الحوار الذى يدور فى جامايكا وشـعرتا بشغف بالحياة وبعقدة فى القلب. ها هما قد وصلتا إلى البحر.

- ها هو أمامك - قالت الجدة وهى تتنفس الضوء الشفاف للكاريبى بعد أن قضينا نصف الحياة فى المنفى - ألا يطيب لك؟

- بلى يا جدتى.

قاموا بنصب الخيمة، قـضت الجدة ليلتها وهى تتحدث دون أن تحلم وأحيانًا تخلط ذكرياتهـا بشفافية رؤيتها المسـتقبلية ونامت على غير العادة ثم استيـقظت وقد هدأت بصور البحر، ومع ذلك فعندما كانت إيريندیرا تقوم بمساعدتها فى حـمامها عادت لتتحدث عن تصوراتها للمستقبل، وكـان حديثًا شغوفًا لدرجة أنه بدا وكأنه هذيان السهاد والأرق.

- ستكونين مالكة عظيمة الشأن - قالت لها- وسيدة عريقة النسب، ويحـرمك من تحـمينهن، وسـوف تحظين بتـقدير وكـرم الكبار فى السلطة - وسـوف يقوم قباطنة السـفن بإرسال "كروت بوستال" لك من كل موانئ العالم.

لم تكن إيريندیرا تسـمعـهـا، كانت الميـاه الدافئـة والمعطرة بالأعشاب تنساب فى البانيو عـبر قناة تتغذى من الخارج، وكانت إيريندیرا تأخذ المياه بكوب من ثمرة التوتوم دون أن تتنفس وتصب الماء على الجدة بيد وتقوم بتصبينها باليد الأخرى.

- وسوف تطوف سمعة منزلك بكل مكان ابتداء من الكاريبى حتى ممالك هولندا - كانت تقول الجدة - وسوف يكون أكثر أهمية من منزل الرئاسة ذلك أنه فى هذا البيت سوف تتم مناقشة الشئون الحكومية وسوف يتم تحديد مصير الأمة.

وفجأة انقطعت المياه الآتية من الخارج فخرجت إيريندیرا من الخيمة لتستطلع الأمر، فوجدت أن الهندى المكلف بصب المياه فى المزراب كان يقوم بتقطيع الأخشاب فى المطبخ.

- لقد انتهت المياه، ويجب تبريد المزيد منها.

توجهت إيريندیرا إلى الفرن حيث كانت هناك حلة أخرى كبيرة الحجم وبها الأوراق المعطرة بعد غليها، فغطت يديها بخرقة من القماش وتأكدت من إمكانية رفع الحلة دون مساعدة الهندى.

- اذهب أنت - قالت له - سوف أقوم أنا بصب الماء.

انتظرت حتى خرج الهندى من المطبخ وعندئذ دفعت الحلة وهى تغلى من على النار وكلفها ذلك الكثير من الجهد حتى وصلت إلى المكان الذى تصب فيه المياه، وعندما تهيأت لصب المياه المغلية فى المجرى المؤدى إلى البانيو صاحت جدتها من داخل الخيمة.

- يا إيريندیرا

صاحت وكأنها تراها، فزعت الحفيدة من الصيحة وندمت على فعلتها فى الحال.

- أنا قادمة يا جدتى - قالت - إننى أقوم بتبديد المزيد من المياه.

فى هذه الليلة ظلت تفكر حتى ساعة متأخرة من الليل، بينما تغنى الجدة وهى نائمة مرتدية الصديرى المحشو بالذهب، تأملتها إيريندير وهى فى سريرها بعينين نفاذتين كأنهما عينا قط فى الظلام، ثم قامت كأنها غريق بوضع يدها على صدرها وعيناها مفتوحتين ثم نادت بأعلى صوت.

- يا عليس.

استيقظ عليس فجأة وهو فى المنزل المحيطة به حديقة البرتقال. كان قد سمع صوت إيريندير بوضوح شديد لدرجة أنه بحث عنها فى ظلمة الحجرة. وبعد هنيهة من التأمل قام بلف ملابسه وأخذ حذائه ثم غادر غرفة النوم، كان قد عبر الشرفة عندما فاجأه صوت والده.

- إلى أين أنت ذاهب؟

رآه عليس وكأنه معرض لضوء أزرق تحت ضوء القمر.

- إلى هذه الدنيا - أجاب.

- أنا لن أمنعك هذه المرة - قال الهـولندى - لكنى أحذرك من شيء: سوف تحل عليك لعنتى فى أى مكان تذهب إليه. فقال عليس:

- ليكن هذا.

شعـر الأب بمفاجأة فى رد ابنه، وشـعر بشيء من الفـخار لعزيمته وتصميمه فتابعه وهو يسير فى حديقة البرتقال التى يغمرها ضوء القمر بنظرة أخذت تنفرج أساريرها شيئًا فشيئًا. كانت امرأته خلفه جمـيلة كعادة بنات جلدتهـا من الهنديات، تكلم الهولندى عندما أغلق عليس الباب الكبير.

- سوف يعود - قـال - وقد علمته الحـياة، وسوف تكون عودته أسرع مما تتصورين.

- إنك شديد الفظاظة - تنهدت - لن يعود أبدًا.

لم يسـأل عليس هذه المرة عن الوجـهة التـى ذهبت إليهـا إيريندیرا فعـبر الصحـراء وهو يختـبئ فى شاحنات مرت عـرضًا وأخذ يسرق ليأكـل وينام، وكثيرًا ما سرق لمتعـة المخاطرة - حتى وجد الخـيمة فى قـرية أخرى من القرى المطلة على البـحر، ومن هناك كانت ترى المبـانى الزجاجيـة الفخمـة لمدينة تملؤها الأضواء حيث تسمع أصوات التحية الليلية التى تصدرها السفن المبحرة إلى جـزيرة "أروبا". كـانت إيريـنديرا تنام وهى مـربوطة بالـسلسلة

وتأخذ فى رقدتهـا وضع الغريق الذى يطفو على السطح تتـقاذفه الأمواج، وهو نفس الـوضع الذى كانت عليه عنـدما نادته. ظل عليس يتأملهـا لمدة طويلة دون إيقاظهـا لكنه تأملها بتمـعن شديد حتى استيقظت. وعندئذ تـبادلا القبلات فى الظلام وأخذ يداعب أحدهمـا الآخر دون عجلة من الأمر. وأخـذا يخلعان ملابسهـما رويدًا رويدًا ويعيشان الحنان الصامت والسـعادة البريئة لدرجة كانا معها يشبهان الحب نفسه أكثر من أى وقت مضى.

فى الطرف الآخـر من الخـيمـة تقلبت الجـدة وهى نائمـة وأخذت تهذى.

- كان ذلك فى الأيام التى وصلت فـيه السفينة اليـونانية - قال - كان طاقمًـا مجنونًا يجعل النساء سعـيدات، ومقابل الحب هو قطع الإسفنج وليس المال. كـانت قطعا إسفنجية حـية أخذت تسير بعد ذلك وحدها فى أرجاء المنازل وهى تئن مثل المرضى فى المستشفيات وتدفع الأطفال للبكاء حتى تشرب دموعهم.

بعد ذلـك تحركت كأن هـناك دافع داخلى ثم جلست على السرير.

- كان ذلـك عندما وصل هو - يا إلهى - صـاحت - إنه أكثر قوة وضخامة وأكثر رجولة من أماديس.

أما عليس الذى لم يبد اهتمامًـا بهذيانها حتى تلك اللحظة فقد حاول الاخـتباء عندما رأى الجدة جالسـة فى السرير. فهدأت إيريندير من روعه.

- اهدأ - قـالت له- إنها عنـدما تصل إلى هذا الجـزء من الحلم تجلس فى السرير لكنها لا تستيقظ.

نام عليس على جانبه.

- أنا كنت أغنى فى تلك الليلة مع البحارة وفكرت أن ذلك ربما كان هزة أرضية.

- استـمرت الجـدة - وظن كل الناس هذا الأمر ذلك أنـهم فروا وهم يصيحون، وقد ملكت الضحكات لُبهم. لكن لم يبق إلا هو تحت سقف. إننى أتذكره كأنه بالأمس وكنت أنا أغنى الأغنية التى كان جميع الناس يرددونها فى ذلـك الزمان بما فى ذلك الببغاوات فى أفنية المنازل.

ولما كـان من الممكن الغناء فقط فى الأحـلام، فإنهـا غنت سطور مرارتها:

سيدى، سيدى، أعد إلىّ براءتى القديمة

حتى أتمتع بحبك مرة أخرى من البداية

فى هذه اللـحظة أخـذ عليـس يصـغى لذكـريات الجـدة وحنينها.

- ها هو هناك - كانت تقول - وهو يحمل ببغاءً على كتفه وبندقية من الطراز القديم لقتل آكلى لحوم البـشر، كان مجيئه مثل

مـجيئ "غـواترال" إلى "لاس غواياناس" أمـا أنا فقـد شعـرت برائحة المـوت فيه عندمـا وقف أمامى ورأيت كل النـساء من كل الأمم، وبذلك لا يمكن أن أقول لـك من واقع خبرتى أنك أكـثر النساء رفعة وودّاً وجمالاً على هذه الأرض.

ثم عـادت لترقـد من جديد وبدأ يصـدر عنها صـوت بكاء ورأسـها على المخـدة - ظل عليس وإيريندیرا فـترة طويلة وهمـا صامـتان غارقـان فى الظلمة بسبب التنـفس غير المنتظم للعـجوز النائمـة. وفجـأة سألت إيريندیرا بصـوت واضح ونبـرة لا خوف فيها.

- هل تجرؤ على قتلها؟

أخذته المفاجأة، فلم يعرف بماذا يجيب.

- من يدرى - قال - هل تجرؤين أنت؟

- أنا لا أستطيع - قالت إيريندیرا - ذلك لأنها جدتى.

وعندئذ لاحظ عليس مرة أخرى الجسم الضخم النائم وكأنه يقوم بقياس حجم الحياه فيه ثم قال مقرراً.

- من أجلك يمكننى أن أفعل أى شىء.

* * *

اشترى عليس رطلاً من مبيد لـقتل الفئران وأذابه فى كريمة ومربى الفراولة ثم أفرغ هذه الكريمة القاتلة فى قالب للحلوى كان

قد أخــرج منه حشــوته الأصلية، وبعــد ذلك وضع فوق الــقالب طبقــة سميكة من الكريمة وأخــذ يسويها بالمعلقة حــتى أضاع كل الآثار المتعلقة بالعملية. وأكمل الخدعة باثنين وسبعين شمعة وردية اللون.

اعتدلت الجدة على العرش وأخذت تلوى الهراوة عندما رأته يدخل الخيمة وهو يحمل قالب الحلوى الخاص بالحفلة.

– أيها الوقح – صــاحت – كيف تجـرؤ أن تضع قدمك فى هذا المنزل اختبأ عليس خلف وجهه الملائكى.

– أنا هنا من أجل طلب الصفح – قال – يوم عيد ميلادك.

خارت قوى الجدة أمام كذبته الحقـيقية فأمرت بإعداد المائدة وكأن الأمر هو عــشاء حفلة عرس. وأجلست عليس عــلى اليمين بينما إيريnديرا تقوم بخدمتهمــا. وبعد إطفاء الشموع بنفخة واحدة قوية قطعت قالب الشيكولاتة إلى قطع متماثلة وقدمت قطعة منها لعليس.

– إن الرجل الذى يستطيع أن يجـعل الآخرين يسامــحوه له نصف الجنة – قالت – أقدم لك أول قطعة فهى للسعادة.

– أنا لا أحب الحلويات – قال – بالهناء والشفاء لك.

قدمت الجــدة قطعة أخــرى لإيريnديرا فأخذتهــا إلى المطبخ وقذفت بها فى صندوق الزبالة.

أكلت الجدة باقى قالب الحلوى وحدها، فكانت تضع القطع بكاملها فى فمها وتبلعها بدون مضغ وهى تتلذذ بالطعام وتنظر إلى عليس من علوية المتعة، وعندما لم يتبق شىء فى الطبق الخاص بها أخذت القطعة التى رفض عليس تناولها. وبينما تقوم بمضغ آخر قطعة كانت تأخذ البقايا والفتافيت بأصابعها وتضعها فى فمها.

كانت قد أكلت زرنيخًا يكفى لإبادة جيل كامل من الفئران، ومع ذلك بدأت تعزف على البيانو وأخذت تغنى حتى منتصف الليل ثم نامت سعيدة وعاشت الحلم المعتاد. أما الشىء الجديد فقد كان بعض الحشرجة فى التنفس.

كانت إيرينديرا وعليس يراقبانها وهما فى السرير الآخر وكانا ينتظران آخر أنفاسها، لكن الصوت ظل حيًا كعادته عندما بدأت تهذى.

- لقد أطار صوابى، يا إلهى لقد أطار صوابى - صاحت - كنت أضع نبوتين غليظين خلف باب غرفة النوم حتى لا يستطيع الدخول، كما وضعت التسريحة والمنضدة أيضًا خلف الباب وفوقها الكراسى، لكن ضربة واحدة بخاتمه كانت كافية للإطاحة بكل هذا، فقد نزلت الكراسى وحدها من فوق المنضدة، أما المنضدة والتسريحة فقد ابتعدتا، وكذلك خرج النبوتان من بين الفتحات.

كـانت إيريندیرا وعليس يتـأملانهـا وقد أخـذت علامـات الاستـغراب تزداد رويداً رويداً توافقاً مـع عمق الهذيان ودراميـته وتحول إيقاع الصوت إلى إيقاع حميم.

- كنت أشـعر أننى سـأموت وأنا غـارقة فى عـرق الخوف وأتضرع وأنا فى الـداخل أن يفتح الباب دون فـتح وأن يدخل هو دون دخول وألا يذهب أبداً لـكن ألا يعود مطلقًا حـتى لا أضطر لقتله.

ظلت تجسـد الدراما الخـاصة بهـا لعدة سـاعات، وصلت خلالها إلى سـرد أدق التفاصيل كأنها عـادت لتعيش نفس الموقف فى الحلم، لكنهـا قبل شـروق الشمس تقلبت فى الـسرير لتـأخذ وضعـًا مريحًا فكانت حركـتها كأنهـا هزة أرضية وتهدج صـوتها إيذانًا بوشوك بكائها.

- لقد حـذرته، وضحك منـى - كانت تصـيح - وعدت للتحذيـر وعاد للضحك حتى فـتح عينيه المفزوعـتين وقال: آه يا ملكة آه يا ملكة، لكن الصـوت لم يكن يخرج من فـمه، بل كان يخرج من ضربة السكين التى فى حنجرته.

شعـر عليس بالرعب لهـذا الاستـدعاء الرهيب للذكـريات الذى تقوم به الجدة فأمسك بيد إيريندیرا.

- أيها العجوز القاتلة صاح متعجبًا.

لم تولى إيريندیرا أى اهتمام ذلك أنه فى هذه اللحظة أخذت خيوط الفجر تظهر ودقت الساعة الخامسة فى مختلف الساعات.

- اذهب قالت إيريندیرا - سوف تستيقظ.

- إنها حية ومليئة بالحياة كالفيل - تعجب عليس - هذا مستحيل

حدجته إيريندیرا بنظرة قاتلة

- الموضوع - قالت - هو أنك لا تجدى فى محاولة قتل أى إنسان.

تأثر عليس كثيراً بقسوة التأنيب وخرج هارباً من الخيمة، استمرت إيريندیرا فى مراقبتها للجدة النائمة وهى تكن لها الكراهية الخفية وتشعر بالغيظ من الإحباط كلما زادت خيوط نور الصباح وازدادت شقشقة العصافير ثم رمقتها بابتسامة راضية.

- حفظك الله يا ابنتى.

والتغيير الوحيد الذى لوحظ هو عدم الانتظام فى الخطوات اليومية المعتادة. كان يوم أربعاء إلا أن الجدة أرادت أن ترتدى لباس الأحد وقررت ألا تستقبل إيريندیرا أى زبائن قبل الحادية عشرة وطلبت منها أن تطلى لها أظافرها بلون أحمر قانى وأن تقوم بتصفيف شعرها على طريقة الأحبار والأساقفة.

- لم أعش قبل ذلك مثل هذه الرغبـة فى التقاط صورة لى
- قالت متعجبة.

بدأت إيرينديرا فى تصفيف شعر الجدة لكنها عندما وضعت على رأسـها المشط ذا الأسنان الواسـعة وجـدت بينها خـصلة من الشعـر، وقامت مفزوعـة بإظهارها للجدة التـى قامت بفحصـها وحاولت أن تنتزع خصلة أخرى بأصـابعها، وبقيت خصلة طويلة من الشعـر فى يدها فألقت بهـا على الأرض، ثم عادت لتـجرب مرة أخرى منتزعة خصلة أكبر بكلتا يديها وهى تكاد تموت ضحكًا وتقوم بإلقاء الشـعر فى الهواء بفرحة وسـعادة غير مفهـومة حتى أصبحت رأسها كأنها ثمرة جوز مقشرة.

لم تعرف إيرينديـرا أى شىء عن عليس إلا بعد أسبـوعين عندما سمـعت صوت البوم خارج الخيمة، كـانت الجدة قد بدأت تعزف على البـيانو وكانت مستـغرقة فى ذكرياتهـا لدرجة أنها لم تكن تعى ماحـولها حولها. وتضع على رأسهـا باروكة من الريش ذى الألوان الزاهية.

لبّت إيرينديرا النداء، وعندئذ لاحـظت الفتيل الـذى يخرج من صندوق البـيانو ويمـتد عبـر الأعشـاب والحشائش ويـتوه فى الظلام، جـرت إلى حـيث علـيس واختـبـأت إلى جـواره بين الشـجيـرات ورأى كلاهمـا وهما، يضـغطان على القلب، ذلك

اللهب الأزرق الذى ذهب عبـر الفتيل ماراً بالمنطقـة المظلمة ودخل إلى الخيمة. ثم قال عليس :

- ضعى يديك على أذنيك.

فعل كلاهما ذلك ولكن دون حـاجة، فلم يقع أى انفجار، أضيئت الخيمة من الداخل من جراء اشتعال سريع انفجر صامتًا ثم اخـتفى فى شكل عـمـود دخان لبـارود مـبلل. وعندما جـرؤت إيريناديرا على الدخـول معتـقدة أن الجدة قـد ماتت وجدتهـا وقد تفسخت باروكتها وأصبحـت البلوزة مهلهلة لكنها أكثر حيوية من أى وقت مـضى إذ كانت تعـمل على إخمـاد النيران باسـتخـدام بطانية.

هرب عليس مستغلاً صيحات الهنود الذين أصابتهم الحيرة، ولا يدرون ماذا يـفعلون، وذلك من جـراء الأوامر المتناقضـة التى كانـت تصدرها الجـدة. وعندما اسـتطاعوا السـيطرة على اللهب وتهوية الخيمة من الدخان كان الوضع يشبه عملية غرق سفينة.

- يبدو أنها من فعل ذلك الملعون - قالت الجدة - فالبيانو لا ينفجر بمحض الصدفة.

حاولت طرح كـل الاحتمـالات التى أدت إلى هذه الكارثة الجديدة' لكن تهرّب إيريناديرا وموقفـها غير الواضح جعل الأمور غير جليـة فى نظر الجدة، لم تجد أى مسلك مـريب فى تصرفات

الحفيـدة ولم تتذكر وجود عليس. وظلت مـستيقظة حـتى الفجر وهى تطرح الافتراضات وتقوم بحساب الخسارة - نامت سويعات بشكل متقطع - وفى صباح اليوم التالى قامت إيريندبرا بمساعدتها فى خلع الصديرى الذى بـه أسياخ الذهب. وجـدت بقابيق على كتفيـها من جراء الحريق، كما وجدت صـدرها وقد احترق الجلد وظهـر اللحم "هذا هو السـبب الذى جعلـنى لا أنام مرتاحـة - قالت هذه العبارة فى الوقت الذى تقـوم فيه إيريندبرا بوضع بياض البيض على الحـروق - كما أننى حلمت حلمًا غـريبًا". حاولت التركيز لاسـترجاع الحلم واستطاعت استحضار ذلك فى مـخيلتها مثلما تفعل أثناء أحلامها. قالت:

- الحلم هو وجود طاووس على سرير أبيض.

شـعرت إيريندبرا بالمـفاجـأة، لكنهـا استـعادت فى الحـال التعبيرات المعتادة على وجهها.

- إنها بشرى طيبـة - كذبت - الطواويس فى الأحلام هى حيوانات تعبر عن طول العمر.

- ليسمع الله منه - قالت الجدة - لأننا عدنا من جديد من نقطة الصفر. عليك البدء من جديد.

لم يبدُ على إيريندبرا أى تـأثر، فخرجت من الخيـمة وهى تحمل الـضمادات فى طبـق كبيـر وتركت الجدة وصـدرها ملطخ

ببياض البيض، أما رأسها فكانت مغطاة بالخردل، كانت تضع المزيد من بياض البيض فى الطبق، تحت الظلة المصنوعة من سعف النخيل والتى كان الفراغ الذى تحتها يستخدم كمطبخ. وفى هذه اللحظة ظهرت عيون عليس خلف الستائر وهى تنظر إليها مثل أول مرة من خلف سريرها. لم تفاجأ بل قالت له بصوت متعب.

- الشىء الوحيد الذى فعلته هو أنك أسهمت فى زيادة ما علىّ من ديون.

ظهرت اللهفة والشغف فى عيون عليس وظل جامدًا بلا حراك ينظر فى صمت لإيرينديرا ويراها وهى تقوم بتكسير البيض بإيقاع يشير إلى الاحتقار الكامل وكأنه غير موجود. بعد هنيهة تحركت العيون وأخذت تطوف فى أرجاء المطبخ من الحلل والمطبقيات الخشبية والأطباق وسكين لتقطيع الذبائح. نهض عليس دون أن ينطق بشىء كما هى عادته ودخل تحت الظلة وأخذ السكين.

لم تنظر إليه إيرينديرا لكنها قالت له بصوت خفيض وهو يخرج من تحت الظلة:

- خذ حذرك فقد جاء لها نذير الموت، إذ حلمت بطاووس يقف على سرير أبيض.

رأت الجدة عليس يدخل ومعه السكين، فبذلت كل جهدها لتنهض دون الاعتماد على العصا ورفعت ذراعيها، وصاحت:

- هل جننت أيها الفتى؟

قفز عليس فـوقها وطعنها طعنة قـوية فى صدرها العريان، فصدر عن الجدة أنين وألقت بنفسها فوقه وحاولت خنقه بذراعيها الغليظتين اللذين تشبهان قوائم الدب.

- يا ابن الساقطة - أخذت تصيح - لقـد تأخرت كثيرًا فى اكتشاف أن لك وجه ملاك خائن.

لم تسـتطع الجدة أن تنطق بـأكثـر من هذا، ذلك أن عليس استطاع أن يحرر يده التى تحمل السكين وعاجلها بطعنة أخرى فى الضلوع، فصدر عـنها أنين أشد فظاعة، وأمسكت بـالمعتدى بمزيد من القوة، فـعاجلها عليس بضربة لا رحـمة فيهـا فكان أن خرج الدم منها باندفاع شديد تطايرت بقع منه على وجهه: كان دمًا كأنه الزيت لامعاً وأخضر اللون وكأنه عسل النعناع.

ظهـرت إيريندیرا فى المدخل وهـى تحمل الـطبق فى يدها، ولاحظت صراعاً تخيم عـليه جرأة إجرامية. كانت الجـدة ضخمة تئن من الألم والغـيظ، فأحكمت يدها على جـسم عليس. غطى الدم الأخضر ذراعيها وأوراكها ورأسها الحليق. كانت تتنفس فتبدو كأنها الكبر، وبين كل نفس وآخـر تظهر أول بوادر الحشرجة، كل ذلك كان يخـيم على الجو. استطاع عليس أن يفك قـيد يده التى تمسك بالسكين مـرة أخرى وقام بشـق بطنها فكان أن تفـجر الدم

وغطاه باللون الأخـضر حتى أخـمص قدميـه، بينما الجـدة تحاول استنشـاق الهواء الذى كانت فى حاجـة إليه لتواصل الحيـاة لكنها سقطت على بطنها. خلّص عليس نفسه من اليدين المترهلتين ولم يدخر وقتًا فقام بطعن الجسد الضخم الطعنة الأخيرة.

عندئذ وضـعت إيرينديرا الطبق على منـضدة ومـالت على الجدة وأخذت تتـفحصها جـيدًا دون أن تلمسهـا. وعندما تأكدت أنها ماتت اكـتسى وجهها بملامح إنســان ناضج كأنه لم تمض عليه عشرون سنة من الحظ التعس. وبحركات سريعة ومحدودة أخذت الصديرى الذهبى وخرجت من الخيمة.

ظل عليس جـالسًا إلى جوار الجـثة وقـد أجهـده الصراع، وكلما أخذ ينظف وجهه من هذه المادة الخـضراء الحية كانت تزداد لدرجة بدا أنهـا تفور من أصابعـه. ولم يع جيـدًا لما هو عليه إلا عندمـا رأى إيريندیرا وهـى تخرج مـن الخيـمـة حـاملة مـعـهـا الصديرى.

ناداها صـائحًا لكنه لم يتلق أى إجـابة، أخذ يزحف حـتى مدخل الخيـمة ورأى كيف أن إيريندیرا أخذت تجـرى نحو شاطئ البحر فى اتجـاه معاكس لاتجاه المدينة. وعندئذ بـذل آخر ما عنده من جهد ليلحق بهـا وأخذ ينادى عليها بصيحات تعـبر عن فقدان الأمل، فلم تعـد صـيحـات العـاشق بل صيحـات الابن. لكن

الإرهاق الرهيب الناجم عن قيامه بقتل امرأة دون مساعدة أحد قد تغلب عليه. فأدركه الهنود الذين كانوا يعملون لحساب الجدة فوجدوه ملقى على الشاطئ ووجهه إلى الأرض وهو يبكى من الخوف والوحدة.

لم تسمعه إيريnديرا، كانت تسابق الريح لدرجة أنها تسبق الأيائل، ولم يكن هناك أى صوت فى العالم قادر على إيقافها، مرت وهى تجرى دون أن تلتفت بالبخار الناجم عن الملاحات ومناجم التلك وبالمساكن القائمة وسط البحيرات حتى انتهى كل ما يتعلق بالبحر، وظلت كذا حتى وصلت إلى الصحراء. لكنها واصلت جريها وهى تحمل الصديرى الذهبى إلى ما وراء الريح الساخنة وأوقات الشفق التى تطول وتطول، ولم يعد أحد يدرى عنها شيئاً، كما لم يعثر على أى أثر، ولو ضئيل لتعاستها.

الصيف السعيد للسيدة / فوريس

(١٩٧٦)

عندما عدنا إلى المنزل فى المساء وجدنا ثعبانًا بحريًا ضخمًا معلقًا من رقبته فى إطار الباب. كان أسود اللون فسفوريًا، بدا لنا أنه تعويذة سحرية للغجر. كانت عيناه مفتوحتين وبهما حياة، أما أسنانه فبدت كأنها منشار صغير على فكين أصابهما الإعياء. كان عمرى آنذاك تسعة أعوام؛ شعرت بخوف شديد أمام هذا الشكل الذى يثير الهذيان لدرجة ذهب معها صوتى. لكن أخى الذى يصغرنى بعامين انتزع أنابيب الأوكسجين والقناع وزعانف العوم وخرج مذعوراً وهو يصيح صيحة فزع. سمعته السيدة/ فُورِس وهى على السلم الحجرى المتعرج الذى يمتد على طول الأرصفة ابتداء من المرسى وحتى المنزل. فأدركتنا وجاءت وهى تلهث وقد علت الزرقة وجهها. وبمجرد أن رأت الثعبان مدقوقًا على الباب، عرفت سبب الرعب الذى نحن فيه. عادة ما كانت تقول بأنه إذا ما كان هناك طفلان مجتمعين فكلاهما مذنبان بما قد يفعله كل واحد منهما على حدة. وعلى ذلك نهرت كلينا بسبب صيحات الفزع التى صدرت عن أخى وظلت تؤنبنا على عدم قدرتنا على السيطرة على أنفسنا. تحدثت إلينا بالألمانية وليس بالإنجليزية، كما كان ينص العقد الذى وقع معها لتعمل كمربية. وربما كان ذلك

لأنها كـانت مذعـورة هى الأخرى لكنهـا تقاوم الاعـتراف بمشاعرها، لكنهـا عادت لتتحدث بإنجليزية غـير مستقيـمة وعادت إلى هوسها التربوى بمجرد أن استعادت شجاعتها.

- إنهـا سـمكة "أبو مـرينا" الهـيلينيـة - قـالت - هكذا يسمونها فقد كان قدماء الإغريق يقدسونها.

وفجأة ظهر "أوريسـتى" ذلك الفتى من أبناء المنطقة الذى يعلمنا السباحة فى المياه العميقة.

ظهـر بين الشجـيرات الخـاصة بـنبات الكبـار. يضع قناع الغوص على جبـهته ويرتدى بنطلون مسـباحة قصيـر وحزامًا من الجلد وقد علق به ست نصال مختلفة الأشكال والأحجام ذلك أنه لا توجد لديه طريقـة أخرى للصـيد تحت الماء إلا الصراع جـسدًا لجسـد مع الحيوانات البـحرية. يبلغ العـشرين من العمـر، وكان يقضى أغلب وقته تحت الماء لدرجة بدا لنا مـعها أنه حيوان بحرى ذلك أن جسـده كان ملطخًـا بالبقع النـاجمة عن شـحم الموتور. وعندمـا رأته السـيدة/ فُـوربس لأول مـرة قـالت لوالدى إنه من المستحيل أن يتصـور المرء إنسانًا أجمل منه، ومع ذلك لم يشفع له جماله ووسـامته من تعرضه للعـقاب: فقد كان عليـه أن يتعرض لتأنيب وجـه إليه باللغة الإيطاليـة لفعلته بتـعليق "أبومرينا" على الباب وليس لديه أى مبرر اللهم إلا إدخال الرعب على الأطفال.

وبعد ذلك أمرت السيدة فوريس أن يرفع الثعبان البحرى بحرص واحترام، فهو حيوان أسطورى، ثم طلبت منا أن نرتدى ملابسنا لتناول العشاء.

فعلنا ما أمرتنا به فى الحال، وحاولنا ألا نرتكب أية أخطاء ذلك أنه بعد أسبوعين من العيش فى ظل نظام السيدة/ فُوريس كنا قد تعلمنا أن أصعب شىء هو أن يحيا المرء. وبينما نأخذ دشًا فى الحمام غير المضاء لاحظت أن أخى لا زال يفكر فى "أبومرينا". قال لى: "كانت عيناه تشبه أعين البشر"، كنت على اتفاق معه فيما يقول لكننى جعلته يظن عكس ذلك واستطعت تغيير الموضوع حتى انتهيت من حمامى. لكن عندما خرجت من تحت الدش طلب منى أن أبقى لأرافقه. فقلت له:

- لم تغرب الشمس بعد.

قمت بفتح الستارة، كان الوقت خلال شهر أغسطس يرى عبر النافذة السهل الحار المقوس فى الجانب الآخر من الجزيرة، الشمس متوقفة فى السماء.

- ليس لهذا السبب - قال أخى - إننى خائف من الخوف.

ومع ذلك فعندما جلسنا إلى مائدة الطعام بدا هادئًا وقام بفعل كل شىء بدقة استحق عليها تهنئة خاصة من السيدة/ فوريس بالإضافة إلى درجتين أخريين لصالحه خلال هذا الأسبوع.

أما بالنسبة لى فقد خصمت منى درجتين من الدرجات الخمس التى كانت من نصيبى ذلك أننى سارعت فى خطاى فسُمع وقع قدماى، ووصلت إلى المائدة وأنا غير منتظم الأنفاس. وإذا ما حصلنا على خمسين درجة يكون من حقنا قطعتا حلوى لكن كلانا لم يتجاوز الخمس عشرة نقطة. كان الأمر مؤلمًا حقًا ذلك أننا لم نتذوق حلو "البودين" فى مكان آخر أشهى من الذى كانت تعده السيدة/ فوربس.

كان العشاء يبدأ بأن نقف أمام الأطباق الخالية من الطعام لنتلو الصلوات والأدعية. لم تكن السيدة/ فوربس كاثوليكية. لكن العقد المبرم معها كان يفرض عليها أن تجعلنا نصلى ست مرات فى اليوم. كما تعلمت صلواتنا للوفاء بذلك. ثم نجلس ثلاثتنا ونحن نكتم أنفاسنا، بينما تقوم هى يفحص دقيق وشامل لكل تصرفاتنا. وعندما تتأكد من أن كل شىء على ما يرام وبالشكل المطلوب تقرع الجرس الصغير، وعندئذ تدخل "فولبيا فلامينيا" الطباخة وهى تحمل شوربة الشعرية التى عهدناها منذ زمن طويل خلال هذا الصيف الممل.

عندما كنا مع والدينا بمفردنا، كان الطعام مهرجانًا. فكانت فولبيا فلامينيا تقوم بتقديم الأطعمة وهى تُقاقى مثل الدجاج وتقدم الطعام بغير نظام ثابت مما يثير البهجة. ثم تجلس بعد ذلك على المائدة وينتهى بها الأمر أن تأخذ شيئًا من أطباقنا جميعًا. لكن منذ

أن تولت السيـدة/ فوربس أمرنا، تقوم فـولبيا بتقـديم الطعام فى صمت مهيب لدرجة أننا كنا نسمع صوت الشوربة وهى تغلى فى شكل فقاعات داخل السلطانية. كـنا نتناول طعام العشاء وظهورنا مستقيمة مسـتندة على مسندة الكراسى، ونقوم بالمضغ عشر مرات على أحد الأشداق أخرى مثلهـا على الشدق الآخر دون أن تفارق عيـوننا هذه السيدة الصارمـة والنحيفـة والتى وصلت إلى خريف العمـر، إذ كانت تتحـدث من خلال ذاكرتهـا عن دروس المدنية، كانت دروسًا تشبه قـداس الأحد لكن ليس بها أى عزاء مثل غناء الناس فى القداس.

فى اليوم الذى وجدنا فـيه الثعبان البحرى مـعلقًا فى الباب تحدثت إلينا السيـدة/ فوربس عن الواجبات المقـدسة نحو الوطن، بينما فولبيا فلامينيا تكاد تطير وتطفو فى الهواء الذى يملأ الصوت جنباته، وتقوم بتقديم قطعـة فيليه - بعد تناول الشوربة - وقد تم شواؤها على الفـحم، كانت قطعة لحم بيـضاء لها رائحـة رائعة. وبالنسبة لى فمنذ تلك اللحـظة كنت أفضل السمك على أى طعام آخر من الطيـور أو الحيوانات، وكانت هذه الذكـرى الخاصة التى أحملهـا فى منزلنا فى "غواكـامايال" بماثبـة شىء يثلج صدرى. لكن أخى رفض الطبق دون أن يتذوقه.

- لا أحبه - قال.

قطعت السيدة/ فوربس درسها

- لا يمكن لك أن تعـرف ذلك - قالت له - فلم تتـذوقه بعد.

وجهت إلى الطباخة نظرة تحذير لكن بعد فوات الأوان.

- إن "أبو مرينا" هو أفضل سمك فى الدنيا يا بنى - قالت له فولبيا فلامينيا - جربه وسترى صدق ما أقول.

لم يطرأ أى تغيير على السيدة/ فوربس. أخذت تقص علينا - بمنهجيتـها غير الرحيمـة - أن "أبو مرينا" هو طعام الملوك فى العصور القديمة وأن المحاربين كـانوا يتصارعون من أجل الحصول على مـرارة هذه السمكـة ذلك أنها تنفث فـيـهم شجـاعة تفـوق الخيـال. وبعـد ذلك أخذت تكرر علينا كـعادتهـا فى هذه الفـترة القصيـرة معنا أن المذاق الطيب ليس صفة لازمة، كـما أنها لا يتم تعلمهـا فى أى مرحلة من مراحل العـمر، بل يجب فرضـها منذ الطفولة. وبالـتالى ليس هناك أى مبـرر لعدم الإقـبال على تناول الطبق. أما أنا الذى كنت قد جـربت "أبومرينا" دون أن أعرف ما هو، أصبحت أعيش حالة النقـاش: فمن جانب أراه جميل الطعم رغم أنه حزين بعض الشيء لكـن صورة الثعبـان وهو معلق على طوق الباب كانت أكبر من شهيتى المفتوحة. بذل أخى أقصى جهد له مع أول لقمة من الطبق لكنه لم يستطع تحمله: تقيأ.

- اذهب إلى الحمـام - قالت له السيدة/ فـوربس حراك - ونظف نفسك جيداً ثم عد لتناول الطعام.

شعـرت بكرب شديد من أجله ذلك أننى كـنت أعرف كم كان يتكلف من الجـهد وهو يعبر وسط أرجـاء المنزل وقد أوشكت الشـمس على المغيب، ثم يبـقى وحيـداً فى الحمـام طوال الوقت الضرورى لتنظـيف نفسه. لكنه عـاد سريعًا وهـو يرتدى قميـصًا نظيفًـا، كان منتـفخ الوجه ولم تكد رعـشة الخوف قـد زالت عنه بعد، وقاوم الامتحان الخاص بمسألة النظافة جيداً، وحينئذ أخذت السيـدة/ فوربس قطعة من "أبومـرينا" وأمرت بمواصلة العـشاء. أخذت أنا قطعة ثانية ووضعـتها فى فمى رغم أنفى. أما أخى فلم يمد يده على أى شىء حتى على طاقم الشوك والملاعق.

- لن آكل هذا الطبق - قال.

كان واضحًا فى حزمه، لدرجـة أن السيدة/ فوربس تفادت ذلك.

- حسن - قالت - لكن لن تتناول الحلو.

أدت الراحة التى شـعر بها أخى إلى تشـجيعى، فـوضعت الشوكـة والسكين متعامـدتين فوق الطبق علامة على الانتـهاء من الطعام كما علمتنا السيدة/ فوربس، ثم قلت:

- وأنا أيضًا لن أتناول الحلو.

- ولن تشاهدا التليفزيون - أجابت هى.

- ولن نشاهد التليفزيون - قلت أنا.

وضعت السيدة/ فـوريس الفوطة على المائدة ونهض ثلاثتنا للصــلاة. وبعــد ذلك طلبت منا الذهاب إلى حــجـرة نومنا وهى تحـذرنا أننا يجب أن نخلد للنوم فـى الفتـرة التى تحـتـاجهـا هى للانتــهاء من تناول طعــامها. هكـذا تم محو كل الدرجـات التى حصلنا عليــها. ولن نستطيع التلذذ بتناول حلو الكريمــة أو قالب الفانيليا أو بسكويت البرقوق اللذيذ إلا بعــد حصولنا على عشرين درجة. وهذا الصنف الأخــير من الحلويات لم نعثر على مـثيل له طوال حياتنا.

، الوصول إلى هذه القطعية كان مـؤكدًا، لكنها مسألة وقت، فلمدة عام كـامل كنا ننتظر بفارغ الصبر هذا الصـيف الحار الطليق فى جزيـرة "بانتيـلاريا" الواقعة فـى أقصى الجبـهة الجنوبـية من صقلية. وكان صـيفًا طليقًا خلال الشـهر الأول حيث كان والدينا معنا. إننى لازلت أتذكـر، حتى اليوم، فـيما يشـبه الحلم، ذلك السهل المشمس من الصخور البـركانية وذلك البحر الخالد، وذلك المنزل المدهون بالجـير القـوى الألوان حـتى غطى طبقـة الطوب، والذى كنا نرى من نوافـذه أثناء الليل الـساكن الومـيض المتـلألئ للفنارات المطـلة على ســواحل أفـريقـيـا. كنت أقـوم مع والدى بالغوص فى الأعماق الموجودة حول الجزيرة، واكتشفنا سلسلة من الطوربيدات الصفراء التى سقـطت فى العمق منذ الحرب الأخيرة. كنا قد انتشلنا جرة إغـريقية يبلغ طولها متراً تقريبـاً وعليها أكاليل

تقادمت وأصابهـا العطب. كان بداخلها بقايا نبيـذ لا يعرف أحد إلى أى زمن يعود. كان نـبيذًا مُسمـمًا. ثم قمنا بالاستـحمام فى منطقة هادئة تنبـعث منها الأبخرة. كـانت مياههـا ثقيلة يكاد المرء يسير فـوقها. لكن الاكتشـاف الأغرب بالنسبة لنا تمثل فى فـولبيا فلامينيا. كانت تبـدو كأنها أسقف معبد، تسير وحولهـا مجموعة من القطط تضـيق عليها الطـريق الذى تسير فـيه، وتقـول إنها لا تأوى هذه القطط حبـاً منها للحيوانات، لكن حـتى تحول دون أن تأكلهـا الفئـران. وفى المساء عندمـا كان والدينا يشـاهدان برامج تليفزيونية للكبار تأخذنا فولبيا فلامينيا معها إلى المنزل الواقع على بعد أقل من مائة مـتر من منزلنا وتقوم بتعليـمنا كيفيـة تمييز أنواع الأصوات التى تسـمع من بعيـد والأغانى وصوت الريـاح المتقطع القادم من تونس. كان زوجها رجلاً أكثـر شبابًا منها بكثير، وكان يعـمل طوال الصيف فى الفنادق الـسيـاحيـة الكائنة على الطرف الآخر من الجزيرة، يعود إلى المنزل للنوم فقط. أما الفتى أورستى فيعيش مع والده فى مكان أبعد قليلاً، وكان يظهر دائمًا أثناء الليل وهو يحمل حبل سمك وشبكة بهـا الجمبرى الذى انتهى للتو من صيده ثم يعلق كل ذلك فى المطبخ حتى يقوم زوج فـولبيا فلامينيا ببيعه للفنادق فى اليوم التالى. بعد ذلك يضع بطارية الغوص على جبـهته ويأخذنا لنـصطاد الفئران الجبليـة الكبيرة كـأنها الأرانب، كانت تعـيش على فضـلات المطابخ، وأحيانًا كنـا نعود إلى المنزل

بعـد أن يـكون والدانا قـد خـلدا للنوم. ولم يكن الـنوم يداعب جفوننا بسبب الأصوات الناجمـة عن معارك تدور بين الفئران فى الأفنية من أجل الفوز بالبقـايا. ورغم هذا فقد كان أحد المكونات الغامضة الجميلة فى صيفنا السعيد.

أما قـرار التعاقـد مع مربية ألمانيـة فلم يدر إلا بخلد والدى أحد كتاب منطقة الكاريبى، كثيـر الخيلاء قليل الألمعية. كان رماد المفاخـر الأوروبية قد ملك عليـه جماع عـقله وكان مـيالاً للتنكر لأصوله وجذوره سـواء على صفحات كـتبه أم فى الحياة اليـومية وفرض على نفسه وهمًا هو ألا يتبقى فى أبنائه أى أثر لماضيه. أما أمى فقد ظلت دائمًـا المرأة المتواضعة مثلما كان علـيه حالها وهى تمارس وظيفة المعـلمة فى أقاصى "غواطيرا" ولم يخـطر ببالها أن تطوف بخلد زوجها فكرة إلا وكـانت من وحى الإلهام. وبهذا لم يسأل كل منهما نفسه ويحكم قلبه حول نمط المعيشة التى سنعيشها مع "مساعدة عسكرية" من دورموند، تبـذل ما فى وسعها لتعلمنا بالقوة العادات المـهجورة عن المجتمع الأوروبى بينمـا يقوم والدينا مع أربعين مؤلفًا مـن مؤلفى العصر بالتنزه على ظهر عبـارة ثقافية لمدة خمسة أسابيع بين جزر بحر إيجه.

وصلت السيدة/ فوربس فى السـبت الأيخر من شهر يوليو على متن مركب صغير وعادى قادمة من باليرمو، ومنذ أن رأيناها لأول مرة شـعرنا بأن البـهجـة قد ولت عنا. جـاءت وهى تلبس

حذاء برقبة يشبه أحذية الميليشيات وترتدى فستانًا ياقته كبيرة ومتعانقة وسط هذا الحر. أما شعرها فقد كان قصيراً كأنه شعر رجل يضع قبعة من اللباد. كانت رائحتها تشبه رائحة بول الرجال " كل الأوروبيين رائحتهم هكذا وخاصة فى الصيف" قال لنا والدى. "إنها رائحة الحضارة". لكن خلافًا لمظهرها العسكرى فالسيدة فوربس كانت مخلوقًا نحيف الجسد ربما كان يثير شفقتنا إذا ما كنا كباراً فى السن أو كان عندها بقايا حنان. أصبحت الدنيا غير الدنيا. فالساعات الست التى كنا نقضيها فى البحر والتى كانت منذ بداية الصيف ممارسة دائمة للخيال أصبحت ساعة واحدة لا تبديل فيها كأنها الرتابة نفسها. عندما كنا برفقة والدينا نتمتع بكل ما نريد من وقت لنسبح مع أورستى وقد شعرنا بالدهشة أمام الفن والجرأة التى يواجه بها الأخطبوط البحرى وهو فى مكمنه وقد اعتلته الأحبار والدم وليس فى يده إلا سكاكين المصارعة التى يحملها. وبعد ذلك ظل يأتى فى الحادية عشرة وهو على متن اللنش الصغير، كما كان يفعل دائمًا. لكن السيدة/ فوربس لم تكن تسمح له أن يمكث معنا، أكثر من الوقت المحدد لحصة الغوص ولو لدقيقة واحدة. منعتنا من الذهاب ليلاً إلى منزل فولبيا فلامينيا ذ لك أنها تعتبر ذلك وداً زائداً عن الحد مع العامة. واضطررنا أن نخصص الوقت المتبقى من صيد الفئران فى قراءة تحليلية لأعمال شكسبير. ولما كنا قد تعودنا سرقة ثمار المانجو

ومطاردة الكلاب حتى قتلها بالحجارة فى الشوارع الحارة لغواكامايال كان من المستحيل علينا تصور شيء أكثر فظاعة من حياة الأمراء هذه.

لكن سرعان ما أدركنا أن السيدة/ فوربس لم تكن صارمة مع نفسها مثلها هو الحال معنا. وذلك أول شرخ فى سلطاتها. كانت - فى البداية - تظل على الشاطئ تحت الشمسية الملونة وهى ترتدى ملابس البحر وتقرأ قصائد لشيلر بينما يقوم أورستى بتعليمنا الغوص، وبعد ذلك تقوم بإعطائنا دروسًا نظرية حول السلوك الاجتماعى ويمتد الدرس ساعات وساعات حتى يحين وقت الغذاء.

طلبت ذات يوم من أوريستى أن يحملها فى اللنش إلى المحلات السياحية التابعة للفنادق ثم عادت وقد اشترت لباس بحر من قطعة واحدة لونه أسود متموج كأنه جلد سبع البحر، لكنها لم تنزل البحر أبدًا، إذ كانت تأخذ حمامات شمسية على الشاطئ بينما نقوم نحن بالعوم. ثم تقوم بتجفيف عرقها بالفوطة دون أن تصب الماء على نفسها من الإناء الذى تحمله. وبعد ثلاثة أيام كانت تبدو وكأنها جمبرى إحمّر لحمه من الحر وتحمل رائحة حضارتها لدرجة لا يمكن التنفس معها.

كانت تقضى الليل فى استرخاء، فمنذ أن بدأ حكمها كنا نشعر بخطوات تدور فى المنزل المظلم وتتحسس طريقها وسط الظلام وقد أصاب ذلك أخى بالقلق. وفكر أن تكون هذه هى

خطوات الغرقى تطوف بالمنازل وهى حكايات طالما قصتها علينا فولبيا فلامينيا. وسرعان ما اكتشفنا أنها السيدة/ فوربس إذ كانت تقضى الليل تمارس الحياة العادية لامرأة تعيش بمفردها. هى نمطية الحياة التى تؤنب نفسها عليها أثناء النهار. وفى فجر أحد الأيام فاجأناها وهى فى المطبخ ترتدى قميص النوم الذى يشبه قميص الطالبات. تقوم بإعداد الحلوى اللذيذة وكان كل جسدها قد تلطخ بالدقيق حتى وجهها، تتناول كأسًا من النبيذ البرتقالى ويعتريها نوع من عدم الدقة والتردد كان السبب فيه الاشمئزاز الذى عليه السيدة/ فوربس الأخرى. ومنذ هذه اللحظة عرفنا أنه بعد أن نذهب إلى حجرة نومنا لم تكن تخلد هى للنوم، بل كانت تنزل للسباحة خلسة، أو أن تظل فى الصالة حتى ساعات متأخرة من الليل تشاهد الأفلام الممنوعة على الصغار فى التليفزيون بينما تتناول قوالب كاملة من الحلوى وتشرب زجاجة كاملة من نبيذ خاص احتفظ به والدى للمناسبات الخاصة. كانت تناقض كل ما تتحدث به عن التقشف والاتزان فى السلوك بأن كانت تلتهم القطع التهامًا وبشغف لا حدود له. ثم كنا نسمعها بعد ذلك تتحدث وحدها وهى فى حجرتها، إذ كانت تقوم بقراءة متأنية بالألمانية لفقرات كاملة.

كنا نسمعها وهى تغنى وتنتحب فى سريرها حتى الصباح. ثم تظهر بعد ذلك على مائدة الإفطار وقد تضخمت عيناها من

كثرة البكاء وتزداد حزنًا وتشددًا. فـارقتنا السعادة والمرح أنا وأخى لكننى كنت على استـعداد لتحملها حتـى النهاية ذلك أننى أعرف أن حجتها هى التى ستتغلب على حججنا. أما أخى فقد دخل فى مواجهة معها بكل حدة طابعة وتحول الصيف السعيد إلى جحيم. وكانت واقعة "أبو مرينا" هى النقطة التى طفح معها الكيل، ففى تلك الليلة، وعندما نحن فى سريرنا نسمع الحـركة الدائبة للسيدة فـوربس، فى هذا المنزل النائم. قـال أخى بكل ما فـيه من عـزم النقمة:

- سوف أقتلها.

كانت مفـاجأة لى، ليس للقرار فقط، بل للتـوافق العجيب ذلك أننى كنت أفكر فى هذا الأمر منذ العشاء. ومع ذلك حاولت كبح جماحه. فقلت:

- سوف يقطعون رقبتك.

- لا توجد مقـصلة فى صقلية - قال - كـما أنه لن يعرف أحد من القاتل.

كان يفكر فى الجـرة التى انتشلت من الماء والتى لا زال فى قاعها بـقايا النبيذ السام. كان والدى يحـتفظ بها وذلك لأنه يريد تحليله لمعرفـة طبيعة ذلك الـسم الذى لا يمكن أن يكون قد تكون بمرور الزمن. واستـخدام هذا السم لقتل السيـدة/ فوربس هو أمر

غاية فى السهولة ولن يفكر أحد فى الأمر إلا على أنه حادثة أو انتحار. والخلاصة أنه عند الفجر وعندما تسقط فريسة السهاد نقوم بأخذ السم الذى فى الجرة ونخلطه بزجاجة النبيذ الجيد الخاص بوالدى، وطبقاً لما سمعنا فإن هذه الجرعة تكفى للقضاء على حصان.

كنا نتناول الإفطار فى المطبخ فى تمام التاسعة، وكانت السيدة/ فوربس هى التى تقوم بنفسها بإعداده لنا، نتناول فيه الخبز المسكر الذى تأتى به فولبيا فلامينيا مبكراً وتضعه فوق الفرن. وبعد ذلك بيومين أى بعد أن وضعنا السم فى الزجاجة، وبينما نتناول طعام الإفطار ألمح لى أخى بعينه لندرك ونحن غير سعيدين أن الزجاجة المسممة ظلت كما هى لم تُمس. كان ذلك يوم الجمعة وظلت الزجاجة طوال نهاية الأسبوع دون أن يقنص منها شيء، لكن السيدة/ فوربس شربت ليلة الثلاثة نصف الزجاجة وهى تشاهد الأفلام الفاضحة فى التليفزيون.

ومع كل هذا حضرت كعادتها اليومية طعام الإفطار صباح الأربعاء. كان وجهها مثل العادة وجه امرأة قضت ليلة تعسة. أما العينان فقد كان يطوف بهما شغف واضح أخذ يزداد عندما وجدت فى سلة الخبز المسكر رسالة تحمل طوابع ألمانية. قرأت الرسالة وهى تتناول القهوة رغم أنها كررت علينا كثيراً أنه لا يجب فعل ذلك. وأثناء القراءة كانت تكسو وجهها انفراجة مؤقتة

تنقلهـا لهـا الكلمات المكـتوبة. وبعـد ذلك انتـزعت الطوابع من الظرف ووضعتها فى السلة مع الخبز المتبقى وذلك لتكون جزءاً من مجـموعـة الطوابع الخاصة بزوج فـولبيـا فلامينيـا. ورغم الفكرة السيئة التى أخذناها عنها منذ البداية رافقتنا فى رحلة الغوص ذلك اليوم وظللنا نسبح فى بحـر خفيف المياه حتى انتهـى الأوكسجين فى الأنابيب، وعدنا إلى المنزل دون درس السلوكيات الاجتماعية. كانت السـيدة/ فوربس مـعتدلة المزاج ذلـك اليوم أضف إلى هذا أنها بدت أثناء العشـاء وهى أكثر حيوية عن ذى قـبل. لم يتحمل أخى حـالة فقـدان الأمل. فعندمـا تلقـينا الأمر بالبـدء فى تناول العشاء بطبق شوربة الشعرية أزاح الطبق بطريقة استفزازية. وقال:

- لقد سئمت هذه المياه المخلوطة بالديدان.

كان الأمر بمثابة إلقاء قنبلة على المائدة - انتفخ وجه السيدة/ فوربس وتوترت شفـتاها وانطبقت فوق بعضـها إلى أن زال دخان الانفجـار وكست الدموع زجـاج نظارتها. ثم رفعـتها عن عـينها وجففتها بالفوطة ثم وضعتها على المائدة قبل أن تنهض وهى تشعر باستسلام لا فخار فيه.

- افعلا ما شئتما - قالت - فأنا غير موجودة.

دخلت إلى غرفـتها منذ السابعـة. لكنها خرجت منهـا قبل منتصف الليل وقد ظنت أننا خلدنا إلى النوم فرأيناها وهى ترتدى

قميص نوم الطالبات تتجه إلى المطبخ ثم تعود إلى غرفة نومها وقد حملت معها نصف قالب من الشيكولاتة والزجاجة التى تبقى بها ما يزيد قليلاً عن أربعة قراريط من النبيذ المسموم. شعرت لحظتها برعشة الأسى.

- مسكينة يا سيدة / فوربس - قلت.

لم يكن أخى يتنفس بشكل هادئ. قال:

- المساكين هم نحن إذا لم تمت هذه الليلة.

عادت تتحدث وحيدة فى تلك الليلة وظلت هكذا لفترة غير قصيرة وأنشدت لشيلر بصوت عال وكأنها أصيبت بجنون مفاجئ وأنهت إنشادها بصيحة دوت فى أرجاء المنزل، ثم تنهدت كثيراً بعد ذلك حتى وصلت التنهدات إلى أعماق روحها وأخذت تصدر صفيراً حزينًا ومستمراً كأنها قارب تتقاذفه الأمواج. وعندما استيقظنا كنا نشعر بالإرهاق بسبب التوتر والسهاد، كانت الشمس تدخل عبر النافذة فى شكل حزمة ضوء، إلا أن البيت بدا وكأنه غارق فى صمته. عندئذ أدركنا أن الساعة قد اقتربت من العاشرة ولم يوقظنا أحد بناء على عادة السيدة/ فوربس. فلم نسمع صوت المياه وهى تنساب بقوة من "السيفون" إلى المرحاض فى الثامنة صباحًا، ولم نسمع صوت حنفية حوض الغسيل أو صوت "شيش" النوافذ وهو يرفع ولم نسمع وقع حديد حذائها أو

الضربات الثلاث القاتلة على الباب بكف يدها. وضع أخى أذنه على الحائط وكتم أنفاسه حتى يتمكن من سماع أى مؤشر للحياة فى الحجرة المجاورة، وفى النهاية صدرت عنه تنهيدة الشعور بالحرية.

- انتهى الأمر ! - قال- الشيء الوحيد الذى يسمع هو صوت البحر.

أعددنا إفطارنا قبل الحادية عشر بقليل، ثم نزلنا بعد ذلك الشاطئ ونحن نحمل اثنتين من الأنابيب لكل واحد منا بالإضافة إلى اثنتين آخريين كاحتياطى، وذلك قبل مجيئ فولبيا فلامينيا بمرافقيها من القطط، لتقوم بتنظيف المنزل. كان أوريستى فى الميناء يقوم بتنظيف سمكة وزنها ستة أرطال اصطادها للتو. قلنا له إننا انتظرنا السيدة/ فوربس حتى الحادية عشرة، ولما ظلت نائمة قررنا النزول وحدنا إلى البحر، وقصصنا عليه، بالإضافة إلى ذلك، أنها كانت تبكى فى الليلة السابقة وهى جالسة على مائدة العشاء، وربما نامت نومًا غير طبيعى، وفضلت البقاء فى السرير. لم يهتم أوريستى كثيراً بالشرح وذلك ما كنا نتوقعه وذهب بنا لنغوص فى أعماق البحر لما يزيد عن الساعة بقليل. وبعد ذلك طلب منا أن نذهب لتناول الغذاء، ثم ذهب فى اللنش ليبيع السمكة لأحد الفنادق السياحية. ودعناه ونحن على السلم الحجرى وجعلناه يظن أننا متوجهين إلى المنزل حتى اختفى عن ناظرينا، وبعد ذلك

وضعنا أنابيب الأوكسجين وعدنا نسبح دون إذن من أحد.

كـان الجو غـائمًـا، وكانـت تشم رائحة الرعـد القـاتم فى الأفق، لكن البحر كـان ساكنًا وشفافًا، وكان مكتفـيًا بضوئه هو. قمنا بالسباحة على السطح حتى خط الفنار المسمى "بانتيلاريا" ثم انحرفنا بعد ذلك وسرنا مائة متر على اليمين ثم قمنا بالغوص فى المكان الذى اعـتقدنا أننـا رأينا فيه صـف الطوربيدات الحربـية فى بداية الصيف.

كانت هناك ستـة طوربيدات مدهونة باللون الأصفـر وعليها أرقاماً مسلسلة وملقاة فى الأعـماق البركانية فى نظام لا يمكن أن يكون بمحض الصـدفة. وبعـد ذلك واصلنا الطواف حـول الفنار بحثًا عن المدينة الغارقة التى حدثتنا عنها فولبيا فلامينيا كثيراً، لكن لم نعثر لها على أثر. وبعد ساعتين صعدنا إلى سطح المياه بعد أن اقتنعنا أن ليس هناك المزيد من الأسـرار، ولم يتبق معنا إلا القليل من الأوكسجين.

كانت قد بدأت عاصفة من عواصف الصيف ونحن نسبح، البحـر هائج وهناك أسراب من الطيور الآكلة للحـوم، تحوم وهى تصـيح صيـاحًا حـادًا مقـتتلة حـول بقايا الأسـماك الملقـاة على الشاطئ، لكن ضـوء المساء لم يكن قد بدأ بعـد، كما أن الحـياة جميلة بدون السيدة/ فوربس. ومع ذلـك عندما انتهينا من صعود

السلم الحجرى رأينا المنزل وأمامه جمع غفير، وسيارتى بوليس، عندئذ أدركنا جيدًا حقيقة ما فعلناه. ارتعد أخى وحاول الرجوع عن دخول المنزل.

- أنا لن أدخل المنزل - قال.

أما أنا فقد كنت أخمن تخميناً غامضاً يقول بأنه لو شهدنا الجثة مجرد مشاهدة فسوف ننجو من أى شبهة.

- كن هادئًا - قلت له - عليك أن تتنفس بعمق وفكر فى شىء واحد : نحن لا نعرف شيئًا.

لم يهتم بنا أحد، تركنا أنابيب الأوكسجين والأقنعة والزعانف على الباب الرئيسى ودخلنا الردهة الخلفية حيث كان هناك رجلان يدخنان وهما جالسان على الأرض إلى جوار سرير نقال. عندئذ أدركنا أن هناك عربة إسعاف على الباب الخلفى وبعض العسكريين المسلحين بالبنادق. أما الصالة فكانت هناك نساء الجوار وهن يصلين بلغتهن المحلية، كن جالسات على الكراسى التى رصها إلى جوار الحائط، بينما الأزواج قد وقفوا فى الفناء وهم يتحدثون عن أشياء لا علاقة لها بالموت. ضغطت بقوة على يد أخى التى كانت جامدة وسرت فيها رعشة برودة، ودخلنا المنزل عبر الباب الخلفى. كانت حجرة نومنا مفتوحة وهى على نفس الحالة التى تركناها عليها. أما حجرة السيدة/ فوربس فكانت

هى الحجرة التالية وكان بها أحد الرجال المسلحين يراقب المدخل، لكن الباب كـان مفتوحـاً. تطلعنا إلى الداخل ونحن نمسك قلوبنا بأيدينا ولـم نكد نفعل ذلك حتى خرجت فولبيا فلامينيا من المطبخ كأنها السهم وأغلقت الباب وهى تصيح صيحة مفزعة.

- بحق الله يا أبنائى لا تنظروا إليها !

كانت صيحتها متأخرة، فلن ننسى طوال حياتنا ما رأيناه فى تلك اللحظة الخـاطفة، كان هناك رجـلان يرتديان ملابس مـدنية ويقومان بقياس المسافة بين السـرير والحائط بينما يقوم آخر بالتقاط الصـور بكامـيـرا لها كم أسـود مـثل المصـورين الذين يطوفـون بالحـدائق. لم تكن السـيدة/ فـوربس على السـرير غـير مـرتب الفراش، كانت ملقاة على جانبها بعض الشىء على الأرض وهى عريانة وغارقـة فى بركة دماء جافة كانت قـد غطت أرض الحجرة بالكامل، كما كـان جسمها تغطيـه طعنات مختلفة، كانت سـبعة وعشرين طعنة قاتلة، وانطلاقًا مـن كثرة الطعنات وحدتها يلاحظ أنها عـوملت بقسوة بسـبب حب لا يعرف الكلل، وأن السـيدة/ فوربس قـد تلقت هذه الطعنات بنفس الشـغف دون أن تصيح بل كانت تبكى وهى تنشـد لشيلر بصوتها العذب الذى يشـبه صوت الجندى وعلى وعى كـامل بأن ذلك هو الثـمن الحتـمى لصيـفهـا السعيد.

جئت لأتصل بالتليفون فقط

(١٩٧٨)

ذات مساء ممطر من أمسيات الربيع وعندما كانت ماريا لوث ثربانتس تسافر وحدها تعرضت السيارة التى استأجرتها لعطل فى صحراء "مونيغروس". كانت مكسيكية، تبلغ من العمر سبعًا وعشرين عامًا، جميلة وجادة، وقد حازت قبل سنوات نصيبًا من الشهرة كممثلة لأدوار مختلفة. متزوجة بواحد ممن يؤدون الألعاب السحرية فى الصالونات، وفى ذلك اليوم كانت عائدة إليه بعد زيارة قامت لبعض أقربائها فى سرقسطة، وبعد ساعة من النداءات غير المجدية على السيارات المارة والشاحنات التى تمر مندفعة وسط عاصفة المطر أشفق عليها سائق أتوبيس متهالك. وحذرها إلى أنه لن يذهب بعيدًا.

- لا يهم - قالت ماريا - إن ما أريده فقط هو الاتصال بالتليفون.

كان ما تقول صحيحًا، إذ هى فى حاجة إلى التليفون لتبلغ زوجها أنها لن تصل قبل السابعة مساءً، تبدو كأنها طائر مبلل وهى ترتدى معطفًا من المعاطف الطلابية وتلبس حذاء مخصصًا للشاطئ خلال شهر أبريل، كما كانت خائفة لأنها لم تأخذ حذرها وتحمل معها مفاتيح السيارة. كانت هناك امرأة تسافر إلى

جوار سـائق ذى هيئة عـسكرية لكنه حسن التصـرفات إذ أعطاها فوطة وبطانية وبحث لها عن مكان بجانبه، وبعد أن جففت نفسها بعض الشيء جلست والتحـفت البطانية وحاولت إشعال سـيجارة من السجائر القليلة التى نجت من مياه المطر. وبينما تدخنان فتحت ماريا باب الحـوار لتفـرج عن نفسـها بالكلام. صوتهـا أعلى من صوت المطر وإيقـاع صوت الأتوبيس. قـاطعتهـا المرأة وهى تضع سبابتها على شفتيها. وهمست لها.

– إنهن نائمات.

نظرت ماريا من أعلى كـتفها ورأت أن الأتوبيس كـان مليئًا بنساء ذوات أعمار متقدمة وأوضاع اجتماعية مختلفة. كُن نائمات وهن يلتحفن بطانيات مماثلة لتلك التى معها. أصابت ماريا عدوى راحتهن فتمكنت من مقعدها وتركت نفسها لصوت المطر. وعندما استيقظت كان الظلام مـخيمًا وتحولت زذاذات المطر إلى نتف ثلج تهـبط بهـدوء. لم تدر كم من الوقت نـامت أو فى أى مكان من العالم هى موجودة. كانت جارتها فى المقـعد تتخذ موقفًا حذراً. سألت ماريا :

– أين نحن.

– وصلنا – أجابت المرأة.

دخل الأتوبيس الفناء المبلط بالحجارة، وهو فناء مبنى ضخم ومظلم بدا على شكل دير أقـيم وسط غابة من الأشجار العـالية،

أما المسافرات فـقد كانت تسقط عليهن أشعـة ضوء لمبة واحدة فى الفناء، وظللن سـاكنات حتى جاءت المرأة ذات الشكـل العسكرى وأشارت إليهن بالنزول فى نظام وكأنهن فى حضانة للأطفال. كن كبيرات فى السن وكن يتـحركن فى ظلمة الفناء ببطء لدرجة بدين مـعهـا صوراً مـن صور الأحـلام. كانت مـاريا آخـر من تركت الأتوبيس وفكرت أنهن راهبات. لكنهـا أخذت تستبـعد هذا الظن عندما رأت بعض النسـاء وهن يرتدين الزى ويستقبلـن المسافرات على باب الأتوبيس ويقـمن بتغطيـة رؤوسهن بالبطانيـات حتى لا تبتل، ثـم يقمن بصفـهن صفًـا واحداً على طريقـة الهنود ويربتن عليهن دون التوجه بالحديث إليـهن. وبعد أن ودعت ماريا جارتها فى المقعد أرادت أن ترد لها البطانيـة، لكن الأخرى قالت لها بأن تغطى بهـا رأسهـا حتى تتـمكن من عبـور الفناء ثم تسلمهـا فى البوابة.

- هل سيكون هناك تليفون؟ سألتها ماريا.

- بالطبع - قالت المرأة - سيرشدنك عن مكانه.

طلبت من مـاريا سـيجـارة أخـرى فأعـطتهـا باقى العلبـة بالسجـائر المبتلة. "سـوف تجف فى الطريق" قالت لـها. لوحت المرأة بيدهـا مودعة وهى على سلـم الأتوبيس وقالت لهـا بصوت مرتفع "حظًا طيـبًا" أخذ الأتوبيس طريق الخـروج دون أن تتمكن من أكثر من هذا.

بدأت ماريا تجـرى صوب مـدخل المبنى، فحـاولت إحدى الحارسات إيقـافها بتربيتـة صارمة، ورغم ذلك لجأت إلى صـيحة مكتومـة : "قلت توقفى!" نظرت ماريا من تحت البطانيـة فرأت عينين جـامدتين وسـبابة صارمـة تشيـر إليها أن تلـتزم الطابور، فـأطاعت، وعندما دخلـت دهليز المبنى انفـصلت عن البـاقيـات وتوجهت للبواب لتسـأل عن تليفون، فجعلتهـا إحدى الحارسات تعود مرة أخرى إلى الطابور وهى تربت على كتفـها كما تقول لها بتلطف شديد.

- من هنا يا جميلة، التليفون من هنا.

واصلت مـاريا مثل باقى النسـاء سيـراً عبـر ممر مظلم وفى النهاية دخلت عرفة نوم جماعيـة حيث قامت الحارسات باسترجاع البطانيـات وبدأن فى توزيع الأسرة. كانت هـناك امرأة، بدت فى عين ماريا مختلفة وأكثر إنسـانية ومختلفة عن الباقيات، هذه المرأة تقـوم بمراجعـة الطابور على أسـاس قائمـة من الأسمـاء تحملهـا وتضاهيها بالأسماء المكتوبة على قطعـة كرتونية مثبتة بواسطة خيط على ملابسهـن. وعندما وصلت إلى ماريا فوجئـت بأنها لا تحمل إثبات شخصيتها.

- الأمر هو أننى جئت لأتصل بالتليفون - قالت ماريا.

وقامت بـسرعة شـديدة لإيضاح بأن سـيارتهـا تعطلت فى الطريق، وأن زوجـها الذى يقـوم بألعـاب السحـر فى الحفـلات

ينتظرها فى برشلونة وذلك حتى يفى بثلاثة من التزاماته تمتد حتى منتصف الليل، وأنها لذلك تريد إبلاغه بأنها لن تصل فى الوقت المناسب لمرافقته. كانت الساعة قد اقتربت من السابعة، ومن المفترض أن يغادر المنزل فى غضون عشر دقائق. وكانت تخشى أن يقوم هو بإلغاء كل ارتباطاته بسبب تأخيرها. بدا أن الحارسة تصغى إليها باهتمام.

- ما هو اسمك؟ سألتها.

ذكرت لها ماريا اسمها بالكامل وهى تصدر تنهيدة ارتياح، لكن المرأة لم تعثر على الاسم بعد مراجعة القائمة عدة مرات. فسألت مستفسرة من إحدى الحارسات، لكنها هزت كتفيها دون أن تنطق بشىء.

- إننى جئت إلى هنا لأتصل بالتليفون فقط - قالت ماريا.

- وهو كذلك يا حلوة - قالت لها الرئيسة، وأخذتها إلى سريرها بعذوبة شديدة تفقدها مصداقيتها وواقعيتها - إذا ما تصرفت جيداً ستتمكنين من الاتصال بالتليفون بمن تريدين، لكن ليس الآن - غداً.

طرأ خاطر فى عقل ماريا فى هذه اللحظة جعلها تفهم لماذا كانت النساء فى الأتوبيس تتحركن وكأنهن فى قاع جدول. لقد تم إعطاؤهن المنومات، أما هذا القصر المظلم ذو الأسوار السميكة

المبنية من الحجارة والسلالم المتجمدة فلم يكن فى الحقيقة إلا مصحة للأمراض العقلية. فشعرت بالفزع وفرت هاربة من حجرة النوم، لكنها قبل أن تصل إلى الباب قابلتها حارسة ضخمة الجثة وعاجلتها بضربة قوية كلها غلظة فطرحتها أرضًا وأفقدتها القدرة على الحركة بليّ ذراعيها.

نظرت إليها ماريا وقد أعجزها الرعب.

– بحق الله – قالت – أقسم لك بأمى الميتة أننى جئت لأتصل بالتليفون.

كان كافيًا أن ترى وجهها لتعرف أن لا ملاذ أمام هذه الجثة الضخمة الغبية التى كن يطلقن عليها "هُريقلة" نظرًا لقوتها غير العادية. كانت توكل إليها المهام الصعبة لدرجة أن اثنتين من السجينات لقيتا حتفهن خنقًا بذراع الدب القطبى هذا، والمدرب على فن القتل سهوًا. وتم حل القضية الأولى على أنه حادث، أما الحالة الثانية فكانت غير واضحة، وتم توجيه اللوم والتحذير لهريقلية، وأنه فى المرة القادمة سوف تتعرض للمساءلة الدقيقة. والصورة الشائعة عنها هو أنها تلك النعجة الضالة التى تنسب إلى عائلة ذات ألقاب كثيرة، تاريخها ملىء بالحوادث المشبوهة التى وقعت فى أكثر من مصحة عقلية فى أسبانيا.

وحتى تنام ماريا أول ليلة حقنوها بمنوم. وقبل شروق الشمس أيقظتها الرغبة فى التدخين فوجدت نفسها مربوطة من

يديها ورجليها فى السرير. لم يلب أحد صيحاتها. وفى الصباح وبينما لم يجد الزوج أى أثر لها فى برشلونة، أخذوها إلى العيادة ذلك أنهم وجدوها وهى غارقة فى بحر من البول والبراز.

لم تدر كم من الوقت استغرقته عندما تنبهت من سباتها. لكن الدنيا كانت فى هذه اللحظة ينبوع حب، فقد كان على رأس سريرها رجل عجوز أثرى يسير على أطراف قدميه وله ابتسامة ناعمة، ومن خلال لمستين حانيتين أعاد إليها فرحة الحياة، كان مدير المصحة.

وقبل أن يقول لها شيئاً أو حتى يحييها طلبت منه ماريا سيجارة فأعطاها واحدة مشتعلة وأهداها باقى العلبة. فأجهشت ماريا بالبكاء.

- انتهزى الفرصة الآن لتبكى كما تشائين - قال لها الطبيب بصوت يبعث على النوم - فالدموع هى أفضل علاج.

بكت ماريا تفضفض عن نفسها دون حرج، ولم تكن قد فعلت ذلك أبداً وهى مع عشاق الصدفة الذين صادفوها، وخاصة فى فترة الاسترخاء التالية لممارسة الحب. وبينما كان الطبيب يستمع إليها كان يقوم بتمشيط شعرها بأصابعه ويقوم بإزاحة المخدة عن أنفها حتى تتنفس بشكل أفضل، وأخذ يساعدها وهى غارقة فى حيرتها، ويتمتع فى ذلك بحكمة وعذوبة لم تحلم بهما أبداً.

ولأول مرة فى حـياتهـا تشعر أن هناك من يفـهمـها، وأن الرجل الذى ينصت إليـهـا يـفعـل ذلك من أعـمـاق روحـه دون انتظار للمقابل، وهو ممارسـة الحب معها. وبعد سـاعة طويلة من البكاء بحرارة طلبت منه الموافقة على أن تتصل بزوجها تليفونيًا.

اعـتدل الـطبيب فى مـهـابة تليق بمنصـبـه. "ليس الآن يا مليكتى، قال لها ذلك وقد ربت على خـدها برقة لم تشعر بمثلها من قبل" سـيتم كل شىء فى وقتـه، كما باركهـا كأنه رجل دين وهو على الباب واختفى للأبد.

- ثقى فى - قال لها.

تم تسجـيلها مساء ذلك اليـوم فى المصحة، وأخذت رقـمًا مسلسلاً وأضيف إلى جـوار اسمها تعليقًا سطحيًـا يتعلق بغموض المكان الذى جـاءت منه والشكوك حول حـقيـقتـها. وفى نهـاية التعليق هناك عبارة كتبها المدير بخط يده " حالة هياج".

وكما توقعت ماريا كان زوجها قد خرج من شقته المتواضعة الكائنة فى حى "أورتا" نصف سـاعة مـتأخرًا عن الوقـت المتفق عليه ليفى بالارتبـاطات الثلاثة. هذه هى المرة الأولى التى لا تأتى فى موعدها طوال ما يقـرب من عامين من بداية الزواج الحر الذى تم الاتفاق عليـه جيدًا. وفهم هو أن الـتأخير بسـبب غزارة المطر الذى نزل على المنطقة فى نهاية ذلك الأسـبوع، لكنه قبل أن ينزل ترك رسالة علقها فى الباب يوضح فيها مساره فى تلك الليلة.

وفى الحفلة الأولى كـان الأطفال جـميعـهم قد ارتدوا قناع الكنغر وبذلك تخلى عن اللـعبة المعتادة وهـى لعبة الأسمـاك غير المرئية، فلم يتمكن من القيام بها دون مساعدتها. أما الحفلة الثانية فكانت فى منزل سـيدة عجوز تـبلغ الثالثة والتـسعين من العـمر جالـسة على كـرسى متحـرك. كانت هـذه العجوز تـفخر بأنـها احتفلت كل عـام بعيد ميلادها خلال الثـلاثين سنة الأخيرة، وفى كل مرة تتعاقد مع ساحر مختلف. كان يشعر بالقلق بسبب تأخير ماريا ولم يسـتطع التركيز فى الألـعاب التى تتسم بالبسـاطة. أما الحفلة الثالثـة فكانت هى التى اعتاد المشاركة فـيها كل ليلة والمكان هو عبارة عن مـقهى تعزف فيـه الفرق الموسيقـية فى شارع/ لاس رامبلاس. وقد أدى النِّمر المعتادة دون أى إلهام، أمام مجموعة من السـياح الفـرنسيـين الذين لـم يصدقـوا ما يرونه ذلك أنهم كـانوا يقاومون الاعتقاد فى السـحر. وكان يقوم بالاتصال بمنزله بين كل لعبة وأخرى، وانتظر بلا أمل، أن تجيب على اتصالاته. وفى آخر مرة لـم يستطع كبح جماح قلقه فى أن شيئًا سيئًا قد حدث لها.

عندما عاد إلى المـنزل وهو يقود الشاحنة الصغـيرة التى قام بإعدادها لتـتناسب مع العروض فى الأماكن العـامة شهد جـمال الربيع متمـثلاً فى النخيل المصطف فى طريق/ جـراثليا. وسيطرت عليـه فكرة أخـذت تلح عليـه وهى كيف يـمكن أن تكون المدينة بدون ماريا. ضاعت آخر آماله عندما وجد الورقة التى تركها على

الباب كما هى. كان القلق قد استبد به لدرجة أنه نسى إعداد وجبة الطعام للقط.

عندما أقوم الآن بكتابة الاسم أدرك أننى لا أعرف ما اسمه فى الحقيقة. ذلك أننا فى برشلونة كنا نعرفه باسمه المهنى/ ساتورنو الساحر. كان رجلاً ذو طبيعة غريبة، ولم يكن به أى ذكاء اجتماعى إلا أن الظرف والحساسية فى التصرفات اللتان تنقصه توجدان بشكل زائد فى ماريا. كانت هى التى تأخذ بيده فى هذا المجتمع الملىء بالكثير من الأسرار والذى لم يخطر ببال أحد منه أن يتصل تليفونيًا بآخر بعد منتصف الليل ليسأل عن زوجته. لكن ساتورنو فعلها وقد وصل للتو للمنزل، ولم يكن يريد أن يتذكر ذلك الموقف. وعلى هذا اكتفى بالاتصال بسرقسطة حيث ردت عليه إحدى الجدات وهى شبه نائمة ودون أن تشعر بأى خوف، وقالت له بأن ماريا رحلت بعد تناول الغداء. ولم ينم أكثر من ساعة حتى الفجر، ورأى أثناء النوم حلمًا طينيًا - شهد فيه ماريا وهى ترتدى فستان زفاف مكون من القصاصات ومخضب بالدماء. واستيقظ وهو على يقين بأنها عادت وتركته، وهو الآن يعيش وحده فى هذا العالم الواسع بدونها.

كانت قد فعلت تلك الفعلة قبل ذلك ثلاث مرات مع ثلاثة من الرجال وكان هو واحد من هؤلاء الثلاثة خلال الخمسة أعوام الأخيرة، قد تركته فى مدينة "المكسيك" بعد مضى ستة أشهر

على تعارفـهما عندمـا كانا فى قمـة السعادة وهما يـعيشان حـباً مجنوناً فى حـجرة حمـام فى مستعـمرة أنثوريس. وذات صـباح كانت ماريا قد غادرت المنزل قبل الشروق وتركت كل متعلقاتها بما فى ذلك خاتم زيجتهـا السابقة وكذا رسالة تقول فيـها بأنها، بعد ليلة من الممارسات الزائدة عن الحد والتى لا يمكن الإفصاح بها، غير قـادرة على تحمل تبعـات ذلك الحب الذى لا يقف عند حد. وفكر ساتورنو أنهـا ربما عادت إلى زوجها الأول الذى كـان أحد تلاميذها فى المدرسة الثانوية، وتزوجت به خفية لأنه لم يبلغ سن الرشد ثم تركـته من أجل آخرين بعد عـامين من اللا حب. لكن ليس هذا هو مـا حـدث، لقـد عـادت إلى منزل والديهـا وذهب ساتورنو إلى هناك ليبحث عنهـا بكل السبل. أخذ يرجوها، دون أن يضع أية شـروط، ووعدها بأكثـر مما هو قادر على الـوفاء به، لكنه لم يـجـد إلا الصـد الذى لا يلين: "هـناك أنواع من الحب قصيـرة العمر وأنواع أخرى طويلـة العمر". قالت له واخـتتمت حديثـها بلا رحمة "كـان ذلك الحب من النوع القصير العـمر". استسلم أمـام قوة إرادتها، ومع ذلك فذات صبـاح وهو بالتحديد يوم القديسـين، وعندما كان عائداً إلـى حجرته وهو يشعـر باليتم بعد عام من النسيان، وجـدها نائمة على الكنبة الكائنة فى الصالة وهى تحمل باقة الورد وذيل فـستان الزفاف يمتد كـأنها عروس لم تدخل الدنيا بعد.

قصت عليه ماريا الحقيقة، وهى أن خطيبها الجديد رجل أرمل ليس عنده أولاد يعيش حياة سهلة ومستعد للزواج عن طريق الكنيسة الكاثوليكية، هذا الرجل تركها وهى ترتدى فستان الزفاف وتنتظره فى مذبح الكنيسة. وقرر والدها إتمام الحفل. فواصلت هى معهما اللعبة، فرقصت وغنت وشربت حتى سكرت وهاجمها إحساس رهيب بتأنيب الضمير، ذهبت فى منتصف الليل لتبحث عن ساتورنو.

لم يكن فى المنزل، لكنه وضع المفاتيح فى إحدى إصص الزهور الكائنة فى الممشى حيث كانا يضعانها دومًا. كانت هى هذه المرة التى استسلمت له بلا قيد أو شرط "والآن إلى متى؟" سألها. فأجابت عليه ببيت من الشعر لفينثيوس دى موراليس :

" الحب خالد ما دام مستمراً" وبعد ذلك بعامين كان الحب لا يزال خالداً.

بدا أن ماريا نضجت! إذ تخلت عن أحلامها بأن تكون ممثلة وكرست نفسها له سواء فى ممارسته لمهنته أم فى السرير. وفى نهاية العام الماضى كانا قد حضرا مؤتمراً للسحرة فى برپيجان، وعندما عادا تجولا فى برشلونة فأعجبتهما المدنية لدرجة أنهما اشتريا شقة فى حى قطلانى محض هو حى "أورتا" إنه حى كثير الضوضاء، كان المنزل الذى هما فيه بلا بواب، إلا أن به مساحة

تكفى لخمسة أبناء، كانت تلك هى السعادة الممكنة حتى قامت هى فى نهاية الأسبوع واستأجرت سيارة وذهبت لزيارة أقربائها فى سرقسطة على وعد بأن تعود فى السابعة من مساء الاثنين، لكن لم يظهر لها أى أثر حتى فجر الخميس.

وفى يوم الاثنين من الأسبوع التالى اتصلت شركة التأمين على السيارة المؤجرة تليفونيًا بالمنزل لتسأل عن ماريا "لا أعرف شيئًا" قال ساتورنو "ابحثوا عنها فى سرقسطة" ثم وضع السماعة، وبعد ذلك بأسبوع ذهب أحد رجال البوليس وكان يرتدى زيًا مدنيًا إلى منزله ليبلغه بأنهم وجدوا السيارة، وقد جردت من كل شىء، فى طريق فرعى بالقرب من قادش، أى على بعد تسعين كيلوا مترًا من المكان الذى تركتها فيه ماريا. وكان رجل البوليس يريد أن يعرف المزيد من التفاصيل عن عملية السرقة هذه. كان ساتورنو يقوم بتقديم الطعام للقط، ولم يكد ينظر إليه وهو يقول لرجل البوليس بألا يضيعوا الوقت ذلك أن امرأته قد هربت من المنزل وهو لا يعرف مع من هربت أو إلى أين ذهبت. كان على هذه القناعة لدرجة أن رجل البوليس شعر بالحرج واعتذر له عن كثرة أسئلته. وأعلن حفظ القضية.

داهمت ساتورنو الغيرة من أن تقوم ماريا بالهرب من المنزل فى عيد القيامة فى "كاداكيس" حيث كانت روسا ريجاس قد دعتها لممارسة رياضة الإبحار بالمراكب الشراعية. كنا فى

"مـاريتيم" البـار الشعـبى الشهـيـر المليء بالضوضـاء الكائن فى "لاجوش دبين" وذلك فى فترة مـغيب شمس الحكم الفرنكوى. وكنا نجلس على مائدة مـصنوعة من الحديد، وكـذلك كراسى من نفس المادة، كان المكان يستوعبنا نحن الستة بالكاد، لدرجة أننا كنا نشعر بـأننا محشورون كأننـا عشرون فرداً. وبعد أن انتـهت علبة السـجائر الثـانيـة خلال ذلك اليـوم وجدت مـاريا نفـسهـا بدون كبريت. وفـجأة امتدت ذراع نحيـفة مليئة بالشـعر القوى، وفى المعصم سوار من البـرونز الرومانى، وفتحت لنفـسها مكانًا وسط الجمـوع الجالسة حـول المنضدة وأعطتهـا الكبريت. أما هى فـقد شكرته دون أن تنظر إليه لكن ساتورنو الساحر رآه، كان شابًا يافعًا نحيـفًا وأمردًا شاحب اللـون شحوب الموت، وكان شـعره طويلاً يمتد فى حزمة سوداء حتى خصره. أما زجاج البار فلا يكاد يقاوم غطرسة الربيع إلا أن الفتى كان يرتدى نوعًا من البيجامات الشعبية المصنوعة من القطن الخام وحذاءًا مثل أحذية العمال.

لم يرياه بعد ذلك اليوم إلا فـى نهاية الخريف، وذلك فندق صـغيـر تبـاع فـيه القـشـريات والرخويـات البحـرية فى منطقـة "بارثيلونيتا" وهو يرتدى نفس الطقم الواسع الانتشار، كذلك كان شعره فى الضفـيرة الطويلة بدلاً من الحزمة. حياهمـا وكأنه يحيى أصدقاء قـدامى، وبناء على شكل تقبيله لماريا ومبـادلتها له زادت شكوك ساتورنو فى أنهما كانا يتواعدان سراً. وبعد ذلك بعدة أيام

وجد بمحض الصدفة اسمًا جديدًا ورقم تليفون جديد وقد دونتهما ماريا فى النوتة المنزلية. وأسهمت الغيرة غير الرحيمة فى تخمينه لمن يكون الاسم والرقم. وأدى العثور على المفكرة الشخصية للدخيل إلى التأكد من كل شىء : العمر اثنين وعشرين عامًا، هو ابن وحيد لأسرة غنية يتمثل عمله فى إعداد ديكورات فترينات العرض، ويشتهر بأنه شاذ جنسيًا وأنه ذا سمعة معترف بها فى قدرته على تسلية السيدات المتزوجات مقابل أجر مادى، ومع ذلك استطاع ساتورنو أن يتحمل هذه الغيرة حتى الليلة التى لم تعد فيها ماريا إلى المنزل. وعندئذ أخذ يتصل به تليفونيًا كل يوم، وكان يتصل، فى البداية، بمعدل كل ساعتين أو ثلاث ساعات ابتداء من السادسة صباحًا وحتى فجر اليوم التالى. ثم أخذ يتصل به كلما وجد أمامه الفرصة مهيأة لاستخدام التليفون. ولما لم تكن هناك إجابة زادت تعاسته وعظم شقاؤه.

وفى اليوم الرابع رد عليه صوت أندلسية كانت تقوم بأعمال النظافة "لقد خرج الأستاذ" قالت له هذه العبارة بكثير من الغموض لتزيد من جنونه. فلم يستطع ساتورنو مقاومة فضوله بسؤالها عما إذا كانت قد رأت الآنسة ماريا هناك على سبيل الصدفة.

– لا تعيش هنا أى امرأة اسمها ماريا – قالت له المرأة – تعرف أن الأستاذ أعزب.

- أنا أعرف - قـال لها - إنها لا تعيش هناك ولكن أحـيانًا تذهب إلى المكان، أليس كذلك؟

اغتاظت المرأة

- من الذى يتحدث؟

وضع سـاتورنو السـماعـة، وبدا نفى المرأة كـأنه المزيد من التأكيد على أن ما يتصوره ليس مـجرد شكوك، بل حقيقة لا مراء فيها. فـفقد سيطرته على نفسه، وأخذ خـلال الأيام التالية يجرى اتصالات بكل من يعـرفهم فى برشلونة واستـعمل فى ذلك نظام التـرتيب الأبجدى. لم يقـده أحد لشىء، لكن كل مكالمة كـانت تزيد من تعـاسته، ذلك أن هوس الغـيرة عنده كـان معـروفًا لدى السهارى الدءوبين فى "لاجوش دبين" وكانوا يرددون عليه ببعض العبـارات الساخـرة التى كانت تزيد من عـذابه. وفى هذه الآونة أدرك أنه إلى أى مدى يعيش وحيدًا فى هذه المدينة الجميلة المجنونة والصعبة المنال والتى لن يكون سعيدًا فيها أبدًا، وفى الفجر، وبعد أن وضع الطعام لـلقط أمسك بقلبه حـتى لا يموت واتخـذ قرارًا بنسيان ماريا.

لم تكن ماريا قـد تعودت بعد على الحـياة فى المصحـة بعد مرور شهـرين، كانت تعيش على القليل من جـراية السجن وهى تسـتخـدم طقم الطعـام المربوط إلى المنضـدة المصنوعـة من ألواح

الخشب غير الناعمة وعيناها ثابتتان على صورة الجنرال فرانكو التى كانت تسيطر على حجرة طعام، من العصور الوسطى، تتسم بالكآبة. كانت فى البداية تقاوم ساعات الوعظ الدينى بروتينيتها الغبية من صلوات الفجر والظهر والمساء، وكذلك بعض التراتيل الكنسية الأخرى التى تغطى معظم الوقت. وكانت ترفض اللعب بالكرة فى الفناء أو العمل فى ورشة الزهور الصناعية التى تقوم على رعايتها مجموعة من السجينات باهتمام بالغ. وفى الأسبوع الثالث أخذت ماريا تنضم رويداً رويداً للحياة فى الدير، وعلى حد قول الأطباء فإن البداية عندهن واحدة، وبعد ذلك ينخرطن فى صفوف المجتمع المحيط بهن.

كانت تجد حلاً لمشكلة السجائر خلال الأيام الأولى بواسطة إحدى الحارسات التى تبيعها بسعر مرتفع، وأدت حاجتها للسجائر إلى إقلاقها عندما انتهى ما معها من النقود القليلة. وكان عزاؤها بعد ذلك تدخين السجائر المصنوعة من ورق الصحف التى تقوم بصناعتها بعض السجينات باستخدام "السبارس" التى تجمعها من القمامة. وقد وصلت رغبتها الشديدة فى التدخين إلى نفس درجة رغبتها فى الاتصال بالتليفون، وكانت البيزيتات القليلة التى جنتها من المشاركة فى إعداد الزهور تشكل نوعاً من المسكنات قصيرة المفعول.

إن أقصى شىء هو العزلة أثناء الليل. فكانت الكثيرات من السجينات تمكثن يقظات فى الظلام مثلها لكن دون أن تجرؤ واحدة

منهن على شيء، فها هي هناك الحارسة الليلية التي تراجع البوابة الموصدة بواسطة سلسلة وقفل. ومع ذلك، اشتد بها الضيق ذات يوم فسألت بصوت واضح حتى تسمعها جارتها في السرير.

- أين نحن؟

أجابها الصوت الحاد والواضح للجارة.

- في أعماق الجحيم.

- يقولون إن هذه هي أرض عربية - قال صوت آخر بعيد رن في فراغ حجرة النوم - ولابد أن يكون هذا الكلام سليماً، ففي الصيف وعندما يطلع القمر تسمع الكلاب وهي تنبح على البحر.

سمع صوت السلسلة وهي تدور في الحلقة وكأنها خطاف لأحد المراكب التي تستعد للرسو أو الإبحار، ثم فتح الباب، كانت الحارسة الشديدة هي الكائن الوحيد الذي يبدو حيًا في هذا الصمت المفاجئ. أخذت تروح وتغدو من طرف لآخر في حجرة النوم. أصاب الخوف ماريا وكانت هي الوحيدة التي تعرف السبب.

منذ الأسبوع الأول لها في المصحة عرضت عليها الحارسة الليلية بوضوح ودون لف أو دوران أن تنام معها في حجرة الحراسة. وقد بدأت عرضها بإيقاع يشير إلى مصلحة محددة:

مبـادلة الحب بالسجـائر والشيكولاتة أو أى شىء آخـر. "سيكون لك كل شئ". كانت تقـول لها وهى خائفـة "وستكونين المليكة المسيطرة". وأمام رفض مـاريا تغيرت الطريقة عند الحارسـة. فقد كانت تترك لها عبارات مكتوبة تعـبر لها عن حبها، تحت المخدة، أو فى جيوب البـيجامة أو فى الأماكن الأخـرى التى قد لا تخطر على البال. كـانت رسائل استعـجال وفيـها وله يمكن أن يلين له الحجر. منذ ما يقرب من شهر وهى تبـدو أنها استسلمت للهزيمة وهى تلك الليلة التى دبرت فـيها الواقـعة التى جرت فى حـجرة النوم. وعندما تأكدت أن كافة السجـينات نائمات اقتربت الحارسة من سرير ماريا وهمست فى أذنها بكل العبارات الرقيقة وهى تقبل وجهـها ورقبتـها التى توترت من الرعب وتجمدت أطرافـها. ولما تصـورت الحارسـة أن حالـة الجمـود التى عليـها مـاريا لا ترجع للخوف بل لأنهـا تشعر بالمتعة جـرؤت على الذهاب إلى أبعد من هذا، وعندئذ سددت لها ماريا ضربة بظهـر يدها جعلتها تطير إلى السرير المجـاور، نهضت الحـارسة مغـتاظة وسط الضـجيج الذى أحدثته السجينات.

- يا ابنة الساقطة - صاحت - سوف نهلك هنـا جميعًا فى حظيرة الخنازير هذه حتى تصابيين بالجنون من حبك لى.

هل الصيف، دون أن يعلن عن نفسه، يوم الأحد الأول من شهر يونيـو، وكان من الضرورى اتخاذ إجـراءات عاجلة ذلك أن

السجينات كن يشعرن بالحر ويخلعن المعاطف الصوفية أثناء القداس. كانت ماريا تتسلى بمشاهدة المريضات وهن عاريات وتقوم السجينات بسوقهن كأنهن دجاج أعمى. ووسط هذا الهرج والمرج حاولت أن تحمى نفسها من الضربات الطائشة، ودون أن تدرى وجدت نفسها بمفردها فى مكتب خال وجهاز تليفون يدق دون توقف وبه زر الطلب. أخذت ماريا السماعة دون تفكير وسمعت صوتًا بعيدًا وضاحكاً يتسلى وهو يقلد خدمة الساعة التليفونية:

- أنها الساعة الخامسة والأربعون واثنتان وتسعون دقيقة - ومائة وسبعة من الثوانى.

- أيها الشاذ جنسيًا - قالت ماريا.

وضعت السماعة وهى تشعر بروح الدعابة. كانت على وشك الانصراف عندما أدركت أنها أمام فرصة ذهبية لا تتكرر. وعندئذ ضربت أرقامًا ستة، بسرعة وتوتر، ولم تكن متأكدة أن الرقم الذى طلبته هو رقم المنزل. انتظرت وقلبها يدق بعنف، سمعت الجرس المعتاد بصوته الحزين، يدق مرة ثم اثنتين ثم ثلاثة وسمعت بعد ذلك صوت الرجل شريك حياتها وهو فى المنزل بدونها.

- حسن؟

كان عليها الانتظار حتى تنقضى خنقة الدموع التى تكونت فى حنجرتها.

- أيها الأرنب - يا حياتى - تنهدت.

هزمتها الدموع، وعلى الطرف الآخر من الخط كان هناك صمت وجيز يتسم بالفزع والصوت الذى أصابته الغيرة بالتوتر.

- أيتها القحبة !

ووضع السماعة بعنف.

فى هذه الليلة - خلال نوبة حادة - قامت ماريا بإنزال صورة جنرال الجنرالات وألقت بها بكل ما أوتيت من قوة على أرض الحديقة ووقعت غارقة فى دمائها. كان لا زال بها بعض الغيظ لتواجه الحارسات اللاتى حاولن السيطرة عليها دون جدوى بأن وجهت لهن بعض اللكمات حتى رأت "هُريقلية" واقفة على الباب وهى معقودة الذراعين تنظر إليها، عندئذ استسلمت،ومع ذلك جررنها حتى عنبر المجنونات الخطرات وضربنها بخرطوم مياه قوى وقمن بحقنها فى فخذها بمادة "التربنتين". وقد أدى الحقن إلى تورم حال دون قدرتها على المشى وأدركت ماريا أن ليس هناك شىء فى هذه الدنيا يحول دون العمل على الفرار من الجحيم. وفى الأسبوع التالى وعند العودة إلى حجرة النوم الجماعية نهضت على أطراف قدميها وضربت على مكان إقامة الحارسة الليلية.

كان السعر الذى تطلبه مـاريا هو الدفع مقدمًا وهى أن تقوم بتوصيل رسالة إلى زوجها فوافقت الحارسة طالما أن الاتفاق بينهما يظل فى طى الكتمان، وحـذرتها بسبابتهـا التى تصلبت من شدة التأكيد.

– إذا ما عُرف عن الأمر شىء فسوف تموتين.

وهكذا ذهب ساتورنو الـساحر إلى المصـحة العقليـة للنساء يوم السـبت التالى وهو يركب شـاحنته الصـغيـرة المهيـأة لألعاب السحر وسط الجماهير وذلك ليحتـفل بعودة ماريا. فاستقبله مدير المصحـة بنفسه فى مكتـبه النظيف والمرتب وكـأنه مركب هارب. وأبلغه برقة عن حالة زوجته. فلا أحد كان يعرف من أين أتت أو كيف أو متى ذلك. إن أول البيانات الخاصـة بتسجيلها فى الدفاتر الرسميـة قام هو بنفسه بتـدوينها عندما التقى بـها، وبعد ذلك تم إجـراء تحـرٍ فى نفس اليـوم لم يسـفـر عن أى شىء. وعلى أى الأحوال فإنّ كل مـا كان يهم المدير هو معرفة الكيفـية التى عرف من خلالها ساتورنو المكان الذى فيه زوجته. فما كان من ساتورنو إلا حماية الحارسة.

– لقد أبلغتنى شركة التأمين على السيارة بذلك – قال.

فما كـان من المدير إلا القبول راضيًـا بالإجابة "لست أدرى كيف يقومون بالتأمـينات حتى يعرفوا كل شئ" قال ثم ألقى نظرة على ملفها الموجود على منضدة مكتبه واختتم حديثه قائلاً:

- الشيء الوحيد المحقق هو خطورة حالتها.

كان مستعداً للموافقة على زيارته لها مع الأخذ فى الاعتبار المحاذير اللازمة إذا ما وافق ساتورنو الساحر على الالتزام بما يملى عليه وذلك حرصًا على مصلحة زوجته وخاصة فيما يتعلق بمعاملتها للحيلولة دون إثارة هيجانها الذى أصبح يتكرر بكثرة وخطورة فى الفترة الأخيرة.

- إنه لأمر غريب - قال ساتورنو - كانت دائمًا حادة المزاج، لكنها كانت تسيطر على نفسها.

أومأ الطبيب إيماءة العارف بكل شيء "هناك سلوكيات تظل ساكنة لسنوات طويلة ثم تنفجر بعد ذلك ذات يوم". قال "وعلى أى الأحوال فإن حظها الطيب جعلها تأتى إلى هنا ذلك أننا متخصصون فى حالات تتطلب العزيمة الصلبة" وفى النهاية حذره من الهوس الذى تبديه ماريا بالتليفون.

- عليك مسايرتها - قال.

- اطمئن يا دكتور - قال ساتورنو وهو يبدى مرحه - إن ذلك هو تخصصى.

كانت صالة الزيارات خليطًا من السجن وكرسى الاعتراف، وكانت هى غرفة الدردشة القديمة فى الدير، لم يكن دخول ساتورنو هو تفجر الفرحة التى كان كلاهما فى انتظارها. كانت

ماريا واقـفة فى وسط الصـالون إلى جوار منضـدة صغـيرة وإلى جوارها مقعـدين واثنين من الأصص دون ورود. كان من البديهى أنها كانت جـاهزة لترحل عن المكان وهى ترتدى معطفـها المحزن بلون الفراولة وتلبس حذائها العـجيب الذى أعطى لها على سبيل الشفـقة. كـانت هيريقليـة تقف ولا تكاد تلمح فى أحـد الأركان وهى معقودة الذراعين، لم تتـحرك ماريا عندما رأت زوجها وهو يدخل، لم يبـد أى انفـعال عـلى وجهـهـا الذى لا زالت به آثار الكدمات، تبادلا القبلة الروتينية.

- كيف حالك - سألها.

- سعيدة بأنك جئت فى النهاية أيها الأرنب - قالت - كان ذلك هو الموت.

لم يسعفهما الوقت للجلوس فـقد غرقا فى الدموع وقصت عليه ماريا مآسى الدير ووحشيـة الحارسات والطعام الذى لا تقبله الكلاب والليـالى الطويلة التى تنقضى دون أن تـغمض لهـا عين بسبب الرعب.

- أنا لا أعرف كم يومًا قضيتها هنا، أم هل كانت شهوراً أم أعـوامًا، لكننى أعـرف جيـداً أن كل يوم هو أسوأ من الآخـر - قالت ذلك وتنهدت من أعـماقها- أعتقد أننى لـن أعود كما كنت سابقًا.

– ها قد انتهى كل شئ – قال العبارة وهو يداعب ببنان أصابعه البثور والندب التى فى وجهها – سوف أظل أحضر كل سبت وأكثر من ذلك إذا ما سمح لى المدير بهذا، وسوف ترين أن كل شىء سوف يكون على ما يرام.

حدجته بنظرة من عينيها الفزعتين، فحاول ساتورنو استخدام فنونه السحرية، فأخذ يقص عليها فى أسلوب صبيانى الأكاذيب الكبرى ورواية مخففة عن تشخيص الطبيب "وإيجازاً للقول" اختتم "لا زالت أمامك بعض الأيام حتى تستردى عافيتك تمامًا" عندئذ فهمت ماريا الحقيقة.

– بحق الله يا أرنبى ! قالتها بمرارة – لا تقل لى أنك أيضًا تظن أننى مجنونة!

– كيف يخطر لك هذا على البال ! قال ذلك وهو يحاول الابتسام – الأمر هو أنه من المناسب للجميع أن تظلى هنا بعض الوقت، وهذا يعنى أنك فى ظل ظروف أحسن بالطبع.

– لكنى أقول لك أننى جئت إلى هنا للاتصال بالتليفون – قالت ماريا.

لم يعرف كيف يكون رد فعله إزاء هذا الهوس المخيف، فنظر إلى هيريقلية، فانتهزت هى هذه النظرة لتشير إليه بساعتها أن زمن الزيارة قد انتهى. أدركت ماريا الإشارة فنظرت إلى الخلف

ورأت هيريقلية فى حالة استعداد لهجوم وشيك، وعندئذ أمسكت بكل قوة برقبة الزوج وأخذت تصيح وكأنها مجنونة حقيقية، فأبعدها عنه بكل حب قدر الإمكان وتركها تحت رحمة هيريقيلية التى هاجمتها من الخلف ولم تدع لها فرصة، كرد فعل، حتى لوت ذراعها بيدها اليسرى وطوقت بيدها الحديدية الأخرى رقبتها وصاحت فى ساتورنو الساحر.

- اذهب من هنا !

هرب ساتورنو الساحر فزعًا.

كان قد استرد أنفاسه من الرعب الذى عاشه فى الزيارة السابقة، فعاد يوم السبت التالى إلى المصحة وهو يحمل القط، وقد ألبسه ثوباً مماثلاً لما يلبسه هو: زرد مكون من اللونين الأحمر والأصفر مثل الساحر الكبير ليوناردو والقبعة الطويلة كأنها الكأس وجاكتة عريضة الياقات فى الصدر وكأنها من أجل الطيران. دخل وهو يقود شاحنته الصغيرة حتى داخل الفناء، وهناك قام بأداء الألعاب السحرية الطريفة واستمر فيها لمدة ثلاث ساعات وقد سعدت السجينات وهن فى الشرفات وأعربن عن سعادتهن بصيحات متنوعة وهتافات غير مناسبة - شهدن جميعهن العرض ما عدا ماريا " فلم ترفض فقط استقبال الزوج، بل رفضت أن تراه من الشرفة، شعر ساتورنو بأنه أصيب بطعنة قاتلة.

- إنه رد فعل تقليدى - قال المدير معزياً - وسوف يذهب عنها.

لكن رد الفعل لم يتغير أبدًا، فبعد الكثير من المحاولات لرؤية ماريا وعمل المستحيل حتى تستقبل رسالة منه ذهبت جهوده سدى، فقد عادت إليه الرسائل أربع مرات وهى مغلقة ودون أى تعليق. تخلى ساتورنو عنه زياراته لكنه ظل يترك على بوابة المستشفى كمية من السجائر دون أن يعرف فيما إذا كانت تصل إلى ماريا أم لا، حتى هزمه الواقع.

لم يعرف عنه بعد ذلك أى شىء - باستثناء أنه تزوج بأخرى وعاد لبلده. وقبل أن يترك برشلونة ترك القط وهو شبه ميت من الجوع إلى خطيبة صدفة، وقد وعدت هذه الخطيبة بأن تظل على إرسال السجائر إلى ماريا، لكنها اختفت هى أيضًا. وتتذكر "روسا ريجاس" أنها رأت فى محلات "الكورت إنجليز" هذه الخطيبة منذ حوالى اثنتى عشر عامًا وكان رأسها حليقًا، وترتدى معطفاً برتقالى اللون ينتمى إلى إحدى الطوائف الشرقية. وكانت حاملاً فى شهرها الأخير. وقد قصت عليها بأنها ظلت ترسل بالسجائر إلى ماريا طالما سمحت لها الظروف. وكانت تتدخل فى حل بعض المسائل العاجلة المتعلقة بها حتى وجدت المستشفى وقد تحول إلى أنقاض. وكأنه ذكرى سيئة لتلك الأيام الكئيبة. بدت ماريا فى نظرها وقد اكتست بالحيوية فى آخر مرة

رأتها وقد زاد وزنها بعض الشىء وسعيدة بالسلام الذى يخيم على الدير. ذهبت إليها فى ذلك اليوم وهى تحمل القط وذلك لأن المال الذى تركه لها ساتورنو من أجل إطعامه قد نفذ.

رحلة طيبة يا سيدى الرئيس

(١٩٧٩)

كـان جالسًا على المقعد الخشبى تحت الأوراق الصفراء للحديقة الخالية، يتأمل البجع الذى تعلوه طبقة من التراب، يضع كلتا يديه على قمة العصا ذات المقبض المستدير والمكسو بالفضة وهو يفكر فى الموت. فعندما جاء إلى جنيف لأول مرة كانت البحيرة هادئة ورقراقة، كما كانت طيور النورس المستأنسة تقترب لتنقر طعامها من الأكفّ. ونساء للإيجار كأنهن أشباح فى السادسة مساء وهن يرتدين فساتين بها كرانيش مصنوعة من قماش من القطن الأبيض الشفاف ويضعن على رؤوسهن قبعات من الحرير. أما الآن فالمرأة الوحيدة التى يمكن أن يراها على مرمى البصر هى بائعة الزهور فى الميناء الصغير الخالى من البشر. لا يكاد يصدق ما أحدثه الزمن من خراب ودمار ليس فقط فى حياته بل فى الدنيا كلها.

كان مجرد فرد آخر من أفراد المدينة من هؤلاء المشاهير غير المعروفين يرتدى حلة لونها كحلى بخطوط بيضاء، أما الصديرى فكان من الديباج، كما كان يضع قبعة سميكة مثل تلك التى يضعها القضاة المحالون للتقاعد، شاربه قوى وكث، أما شعره فيميل إلى الزرقة وبه تموجات رومانسية ويداه كيدى عازف آله

وترية، وفى بنصر الْيد اليسرى، يضع خـاتم الترمل وعيناه تلمعان بالسعادة، أما الشيء الوحيد الذى لا يدل على حالته الصحية فهو ترهل الجلد، لكن رغم بلوغه الثـالثة والسبعين من العـمر كان لا يزال يتمتع بشياكة واضحة. ومع هذا ففى ذلك الصباح كان يشعر بتباعده عن كل ما يتفاخـر به المرء. فها هى أعوام المجد والجاه قد ولت ولا مناص من ذلك ولم يتبق إلا أيام انتظار الموت.

عاد إلى جنيف بعد حـربين عالميتين وذلك بحـثًا عن علاج ناجح لألم لم يستطع الأطباء فى "مارتينيكا" تحـديد ماهيته. كان من المقرر أن يمكث خمـسة عشر يومًا كـحد أقصى، لكن ها هو يقضى سبعـة أسابيع فى إجراء فحوصات مـضنية تؤدى إلى نتائج غيـر مؤكدة، ولم تبد حـتى الآن بارقة أمل فى إنهائهـا. الأطباء يتحدثون عن موطن الألم فى كل مكان، فى الكبد، وفى الكلية، وفى البنكرياس، والبـروستاتا ولم يعثـر على أثر، وظل على هذا الحال حتى ذلك الخميس الملعون حيث ضرب له واحد من الأطباء الذين يجرون له الفحـوصات- وكان أقلهم شهرة - مـوعدًا ليأتى فى التاسعة صباحًا إلى قسم الأعصاب.

المكتب يبدو كـأنه مكان لتهجـد الرهبان، والطبيب صغـير الحجم ومتجهمًا ويده اليمنى فى الجبس لكسر فى إبهامه. وعندما أطفأ النور ظهرت صورة الأشعة الخـاصة بالعمود الفقرى لكنه لم يتعرف عليـه ويدرك أن صورة الأشعة تخصه حـتى أشار الطبيب بعصا يحدد بها التحام فقرتين فى المنطقة التى توجد تحت الوسط.

- مصدر ألمك ها هنا - قال له.

لم يكن الأمر سـهلاً عليه، فقـد كان الألم يتنقل من مكان إلى أخر، وأحيانًا ما يبدو أن مصدره هو الأضلاع اليمنى، وأحيانًا ينظر أسفل الـبطن، لكنه كثيـراً ما يفـاجئه بوخـذة فى الحوض. سمعه الطبـيب وهو صامت، لكن العصا موضوعـة على الشاشة بلا حـراك "ولهذا فـقد بحـثنا عنه فى كل مكان طوال فتـرة من الزمن" قال "لكننا الآن نعرف أنه هذا هو مصدر الألم" ثم وضع سبابته على الجزء العلوى من صدغه وقال:

- وبمفهوم دقيق ومحدد فكل ألم هو هنا يا سيدى الرئيس.

كان أسلوبه التشخيصى دراميًا للغاية لدرجة أن ما قاله بدا رحيمًا: فـالرئيس لابد أن يجرى عملية جراحـية خطيرة لا مناص منها، فـسأل الطبـيب عن حجم المخاطرة، فـما كان مـن الطبيب العجوز إلا أن أغرقه بضوء القلق.

- لا يمكننا أن نحدده بوضوح - قال له.

وحتى وقتٍ قريب، أوضح، كانت مخاطر وقوع مضاعفات جسيمـة كبيرة، وخاصة إمكانية حدوث شلل بدرجـات مختلفة. لكن التـقـدم العلمى فى الطـب الناجم عن الحـربين أدى إلى أن تكون هذه المخاوف تاريخًا مضى.

– كن هادئًا – استنتج – استعد للأمر، وأبلغنا، لكن لا تنس أنه كلما عجلت كان ذلك مناسبًا.

لم يكن صباحًا جيدًا حتى يهضم هذا الخبر السيئ وخاصة فى التقلبات الجوية، خرج مبكرًا من الفندق ولم يرتد المعطف، ذلك أنه رأى الشمس ساطعة من النافذة ثم ذهب بخطواته المعدودة ابتداء من "شيمين دى بوسولى" حيث المستشفى، متجهًا إلى المكان الذى يلجأ إليه العشاق فى الخفاء فى "الحديقة الإنجليزية"، أمضى فى هذا المكان أكثر من ساعة وهو يفكر فى الموت عندما بدأ الخريف. هاجت البحيرة كأنها المحيط وهبت رياح من كل مكان فأفزعت طيور النورس وأطاحت بما بقى من أوراق الشجر، نهض الرئيس وبدلاً من أن يشترى بعض الورود من البائعة قام بقطف زهرة الأقحوان من الأصص العامة ووضعها فى فتحة الزرار الموجودة فى ياقة الجاكتة. فاجأته بائعة الزهور:

– هذه الزهور ليست مشاعاً يا سيدى – قالت له وهى غاضبة – إنها ملك البلدية.

لم يولها اهتمامًا وأخذ يبتعد عنها بخطوات سريعة وهو يمسك عصاه من منتصفها وأحيانًا ما يطوحها فى الهواء بلا إيقاع ثابت. وعلى كوبرى "مونت بلانك" كانوا يسارعون بإنزال الرايات الخاصة "بالاتحاد الكونفدرالى" وقد كانت تهتز بشدة من

أثر الرياح. أما النافـورة الملساء والمليئـة بالرغوة فقد أطفـئت قبل الوقت المحدد لها. ولم يـتعرف الرئيس على الكافيتـريا التى تعود عليها والكائـنة على الميناء ذلك أنهم قاموا بدفع القمـاش الأخضر للمظلة، كـما أغلقوا الشـرفات المزدهرة. أمـا فى الصالون فـقد أضيئت الأنوار رغم أننا فى وضح النهار، كـما أن الرباعية الوترية كانت تعزف مـوزار محذراً. مد الرئيس يده على اللوحة الخشـبية الحاملة وأخذ صحيفة من المكان المخصص للزبائن، ثم قام بتعليق القبعة والعـصا على الشماعة المخصـصة ووضع نظارة القراءة ذات الشنبر الذهبى وجلس إلى المائدة الأكثر انعزالاً. وعندئذ أدرك فى هذه اللحظة مجىء الخريف. أخذ يتصفح الجرنان بادئًا بالصفحات المخصـصة للأخبار العـالمية، وقلما كـان يجد أخبـاراً عن أمريكا اللاتينية، وواصل قـراءته للصحيـفة على عكس الترتيب المعـتاد، وظل على هذا الحـال حـتى جـاءت إليـه الـنادلة وهى تحـمل له زجاجته اليومية من المياه مـاركة "إيفيان". كان قد أقلع عن عادته بتناول القهـوة منذ ثلاثين عامًا وذلك بناء على تعليـمات الأطباء، غير أنه قال: "إذا ما تأكدت من أنـنى سأموت بعد وقت محدد، فإننى سأعود إلى تناول القهوة"، وربما حانت هذه الساعة.

- أحضرى لى فنجان قهوة - قال هذه الـعبارة بلغة فرنسية سليمة ثم أكد : عـلى الطريقة الإيطالية وكأنها قهـوة لإحياء ميت - قالها دون أن يأخذ فى اعتباره ما تحمله العبارة من تورية.

تناول قهوته السادة، رويداً رويداً. وبعد ذلك قلب الفنجان فوق الطبق حـتى تقوم رواسب القهـوة بعد أعوام وأعـوام بكتابة حظه فى المستـقبل. هذا المذاق الذى استعاده أخـرجه ولو للحظة من أفكاره السوداوية. وبعد ذلك بلحظة، وكأنها جزء من التكهن بالمستقـبل، شعر بأن أحداً يتطلع إليه. وعندئذ قلب الصـفحة فى حركة عفوية ونظر من فوق عدسات القراءة فرأى الرجل الشاحب وغير حليق الذقن وهو يضع قبعة رياضـية ويرتدى جاكتة فروشاه مـتمـوجة، وفى هذه اللحظة أبـعد ذلك الرجل ناظريه حـتى لا تلتقى بعينيه.

كان وجهًا مألوفًا، فـقد رآه بشكل عابر فى ممرات المستشفى ثم عاد ورآه فى يوم من الأيام الـسابقة وهو يركب دراجـة بخارية صغيرة فى شارع "برومـيناد دى لاك" بينما كان هو يتأمل البجع. لكنه لم يشعر أبداً أن أحـداً تعرف عليه. إلا أنه لم يستبـعد أن ما يحدث ليس إلا واحدة من الأوهام الكثيرة الخاصة بالملاحقات فى المنفى.

انتهى من قراءة الصحيفة دون عجلة من أمره وهو غارق فى المعزوفات "التـشيلو" الرائعة لبراهامـز إلى أن تغلب صوت الألم على المسكن الموسـيقى، فـتناول القرصـين المسكنين وهى جـرعة منتصف النهـار واستخدم فى ذلك آخـر جرعة ماء كـانت أمامه. وقبل أن يخلع نظارة القـراءة ألقى نظرة على الفنجان ليقـرأ طالعه فشعر برعشة باردة : إذ كان الأمر مثيراً للحيرة.

وأخيراً دفـع الحساب ومعه بـقشيشـًـا ضئيلاً ثم أخـذ عصاه وقبعـته من الشماعة وخـرج إلى الشارع دون أن ينظر إلى الرجل الذى كان يتطلع إليه: ابتـعد عن المكان بخطوات فيها تبـختر ماراً بأصص الزهور التى حطمـتهـا الرياح وظن أنه تحرر من القـيود. لكنه سرعان مـا شعر بخطوات وراءه، فتوقف عـند الناصية ونظر إلى الخلف. فمـا كان على الرجل الذى يتـابعه إلا التوقف فـجأة حتى لا يصطدم به ونظر إليه بدهشة وهو على بعد ضئيل جداً عن عينيه.

- سيدى الرئيس - قال بصوت خفيض.

- قل لمن يدفـعون لك ألا تأخـذهم الآمال بعـيداً - قالـها الرئيس دون أن يطرأ أى تغيـر على ابتسامتـه أو صوته - أنا أتمتع بصحة جيدة.

- لا أحد يعرف هذا أفـضل منى - قالها الرجل وقـد شعر بالحرج أمـام هذا الشعـور بالجدارة التى أمـامه - إننى أعـمل فى المستشفى.

كانت النغمـة والعبارة والاستحيـاء تدل على أنه من أعماق منطقة الكاريبى.

- لن تقول لى أنك طبيب - قال له الرئيس.

- كم كنت أود ذلك يا سـيـدى - قال الرجل - أنا سـائق سيارة إسعاف.

- أنا متـأسف - قال الرئيس وهو على قناعـة بخطئه - إنه عمل شاق.

- ليس بنفس درجة العمل الذى تقوم به يا سيدى.

نظر إليـه بلا تحـفظ واتكأ على عـصاه بكلتـا يديه وسـأله باهتمام حقيقى"

-من أين أنت؟

- من الكاريبى

- هذا مـا تصـورته - قـال الرئيس - لكن من أى البـلاد أنت.

-من نفس بلدك يا سيـدى - قال الرجل ومد يده مصـافحًا - أنا أدعى هوميرو ربى

قاطعه الرئيس وهو يشعر بالمفاجأة ودون أن يسحب يده من يد الرجل.

- عجبًا - قال له - يا له من اسم طيب.

خف التوتر عن هوميرو.

- وهناك مـا هو أكـثـر من ذلك أن اسـمـى بالكامل هو "هوميرو ربى دى لاكاسا"

هاجمتهما زوبعة شتوية فجأة وهما فى وسط الشارع. فشعر الرئيس بقشعريرة تسرى فى جسده وتصل إلى العظام وأدرك أنه لا يمكنه مواصلة السير دون معطف، هذه المسافة القصيرة حتى المطعم الفقير حيث اعتاد تناول طعامه.

- هل تناولت طعام الغذاء؟ سأل هوميرو.

- أنا لا أتناول طعام الغذاء أبدًا، قال هوميرو - إننى أتناول وجبة واحدة فى منزلى فى المساء.

- حاول أن تجعل هناك استثناء - قالها له بكل ما أوتى من عذوبة القول - أدعوك لتناول الغذاء.

أخذه فى ذراعه وقاده إلى المطعم الكائن فى الناحية المقابلة "اسم المطعم مطبوع باللون الذهبى على السحابة القماشية : "لوبوف كورنييه" المطعم ضيق ودافئ، ولأول وهلة بدا أنه لا توجد أماكن خالية، شعر هوميرو ربى بالمفاجأة وهو أن أحدًا لا يعرف الرئيس وواصل حتى نهاية المطعم طلبًا للعون.

- هل الرئيس لا زال يمارس مهام منصبه؟ سأله صاحب المطعم.

- لا - قال هوميرو - لقد أُقصى من منصبه.

فكانت ابتسامة الموافقة من صاحب المطعم.

- لمثل هؤلاء هناك مائدة خاصة.

قادهما إلى مكان منعزل فى آخر الصالون حيث يمكن لها الدردشة بحرية، وشكر له الرئيس ذلك.

- هم نادرون هؤلاء الذين يعترفون بجدارة من هم فى المنفى مثلما فعلت.

كان المطعم متخصصًا فى طبق معين وهو لحم ضلع الثور المشوى على الفحم، نظر الرئيس ومدعوه حولهما فشاهدا قطع اللحم الكبيرة المشوية والمقدمة للزبائن على الموائد المجاورة.. "إنه طبق رائع" همهم الرئيس، لكنى ممنوع من تناول مثل هذا الطعام، ألقى نظرة ماكرة ومداعبة على هوميرو، وغير من لهجة الحديث.

- فى الحقيقة لقد منعت من كل شىء.

- أيضًا ممنوع عليك تناول القهوة - قال هوميرو - ومع ذلك تتناولها.

- هل لاحظت ذلك؟ قال الرئيس - لكن كان هذا استثناء فى يوم خاص.

فالاستثناء الذى حدث ذلك اليوم لم يكن فى موضوع القهوة فقط، بل طلب الرئيس طبق لحم الثور المشوى على الفحم

وسلاطة بقوليات طازجة دون أى متبلات اللهم إلا بعضًا من زيت الزيتـون. وطلب المدعو نفس الشيء وأضـاف إليه نصف لتـر من النبيـذ الأحمر. وبينما همـا فى انتظار الطعام أخرج هومـيرو من جيب سـترته حـافظة أوراق ليس بها نـقود وإنما مليـئة بالأوراق، وأبرز للرئيس صـورة ذهبـت ألوانهـا، لقـد تعـرف الرئيس على صورته حيث كان يرتدى قميصًا، وكان وزنه أقل، كما كان شعره وشاربه فاحمى السواد، يقف وسط مجـموعة من الشبان تصارعوا على الظهور فى الصورة. تعرف على المكان من أول نظرة وتعرف أيضًا على الشعـارات الخاصة بحملة انتخابيـة مملة، وكذلك تذكر التـاريخ المقـيت لهـا " يا للهول! " هـمهم، لقـد قلت دومًـا إن الإنسان يعتريه التقـدم فى السن فى الصورة أكثر منها فى الواقع. وأعاد إليه الصورة بإيماءة تشير إلى النهاية.

- إننى أتذكر ذلك جـيدًا - قال - كـانت هذه الصورة فى مباراة مصارعة الديكة ببلدة "سـان كريستوبال دى لاس كاساس" منذ آلاف السنين.

- إنها قريتى - قال هوميرو وأشـار لنفسه كواحد من الذين فى الصورة - هنا هو أنا.

تعرف عليه الرئيس.

- كنت صغير السن!

– نعم – قال هومـيرو – لقد رافقت سيـادتك طوال الحملة الانتخابية فى الجنوب بصفتى زعيم اللجان الطلابية.

حاول الرئيس أن يسبق التأنيب.

– أنا بالطبع لم أمعن النظر جيدًا فيك – قال.

– على العكس من ذلـك كنت لطيـفًا مـعنا جـدًا – قـال هوميرو – لكن كان عددنا كثيرًا لدرجة يصعب على المرء تذكر كل هؤلاء.

– وبعد ذلك؟

– من يعرف هذا أكثر منك يا سيدى – قال هوميرو – فبعد الانقـلاب العسكرى أجـد أنه من المعـجزات أن يكون كـلانا هنا ونحن على وشـك تناول نصف ثور. هناك الكـثـيـرون الذين لم يحالفهم نفس الحظ.

وفى هذه اللحظة قُـدمت لهم الأطباق. قـام الرئيس بوضع الفـوطة على رقبـتـه كأنهـا فـوطة لطفل، ولم يكن غـير مـعنى بالصمت المفـاجئ الذى حدث لمدعوه. "إذا لم أفـعل هذا سوف أخسـر رابطة عنق فى كل وجـبة أتناولهـا" قال – وقبـل أن يبدأ تذوق درجة الشواء وأعلن موافقته بإشارة تعبر عن تلذذه. ثم عاد لنفس الموضوع.

- الأمر الذى لا أفهمه - قال - هو لماذا لم تقترب منى قبل ذلك بدلاً من السير ورائى بهذا الشكل؟

عند ذلك قص عليه هوميرو أنه تعرف عليه منذ أن رآه وهو يدخل المستشفى عبر باب مخصص للحالات الشديدة الخصوصية. كان الوقت صيفًا وكان يرتدى حلة كاملة من كتان الكاريبى الأبيض ويلبس حذاءً ذا لونين - الأبيض والأسود - وزهرة البنفسج الحمراء فى فتحة الزرار على صدر الجاكتة والشعر الجميل يداعبه الهواء. تأكد هوميرو من أنه وحده فى جنيف ولا يساعده أحد، فقد كان يعرف بذاكرته المدينة التى درس فيها القانون. وبناء على طلبه اتخذت المستشفى الإجراءات الداخلية الأمنية للمحافظة على سرية الموضوع بشكل مطلق. وفى نفس تلك الليلة كان هوميرو قد اتفق مع زوجته لإجراء اتصال معه. ومع ذلك فقد ظل يتابعه لخمسة أسابيع متوالية محاولاً البحث عن الفرصة السانحة وربما لم يكن ليتمكن من تحيته لو لم يواجهه الرئيس.

- أنا سعيد بما فعلته - قال الرئيس - رغم أنه لا ينتابنى أى ضيق لأننى وحدى هنا.

- ليس من العدل.

- لماذا؟ - سأل الرئيس بصراحة - إن أكبر نصر فى حياتى هو أننى تمكنت من جعلهم ينسونى.

- إننا نذكرك يا سيدى أكثـر مما تتصور - قال هوميرو دون أن يخـفى تأثره - إنه لمصدر سـعـادة لى أن أراك معـافى ومليئًـا بالحيوية.

- ومع ذلك - قال دون درامية - فكل شىء يشير إلى أننى سأموت قريبًا.

- إن احتمالات نجاح العملية عالية - قال هوميرو.

صدرت عن الرئيس قفزة مفاجأة لكن لم يفقد خفة روحه.

- عجبًا ! - صاح مستـغرباً- هل لم تعد هناك أسرار طبية فى سويسرا الجميلة؟

- لا توجد أسرار تـخفى على سائق سيـارة إسعاف فى أى مستشفى فى العالم - قال هوميرو.

- إن ما أعرفه عن حالتى لم يمـض عليه إلا ساعتين ومن خلال الرجل الوحيد الذى يجب أن يعرف السر.

- على أى الأحـوال لن تموت سيـادتك بلا جدوى - قـال هوميـرو - فسوف يقـوم أحد ما بوضع سيـادتك فى المكانة التى تليق وهى النموذج الحى للجدارة.

أظهر الرئيس نوعًا من الاستغراب الكوميدى.

- شكرًا لتحذيرك - قال.

كان يأكل بنفس الطريقة التى يؤدى بها كافة أنشطته: ببطء ودقة، وفى نفس الوقت كان ينظر إلى هوميرو محدقًا فى عينيه حتى إن هذا الأخير واتاه إحساس بأن الرئيس يرى ما يفكر فيه، وبعد جدال طويل وتطرق للأيام الخوالى ابتسم ابتسامه فيها دهاء.

-لقد قررت ألا أقلق على جثتى - قال - لكننى أرى الآن أن على اتخاذ بعض التدابير علىّ طريقة القصص البوليسية حتى لا يجد الجثة أحد.

- سيكون ذلك غير مجد - قال هوميرو بفكاهة - الألغاز فى المستشفى لا تستمر أكثر من ساعة.

عندما انتهيا من تناول القهوة قام الرئيس بقراءة قاع الفنجان وعادت له القشعريرة: إذ كانت نفس الرسالة السابقة. ومع ذلك لم يطرأ أى تغيير على تعبيرات وجهه. دفع الحساب نقدًا لكنه قام بالتأكد من صحة المبلغ أكثر من مرة وباهتمام زائد عن الحد، وترك بقشيشًا كان زدل النادل عليها هو الغمغمة.

- أنا بالطبع لم أمعن النظر جيدًا فيك - قال.

- سررت بمعرفتك - قال الرئيس وهو يودع هوميرو - ليس هناك تاريخ لإجراء العملية كما أننى لم أقرر بعد إجراءها أم لا. لكن إذا ما كانت الأمور مواتية فسوف نلتقى من جديد.

- ولماذا لا يكون قبل ذلك؟ قال هوميرو - إن زوجتى "لاثارا" طباخة الأغنياء، فلا أحد مثلها يستطيع إعداد طبق الأرز

بالجمبرى ويطيب لنا أن ندعوك إلى المنزل فى إحدى الليالى القادمة.

- إن الرخويات ممنوعة بالنسبة لى لكنى سآكل ذلك الطبق بكل سرور - قال - قل لى متى؟

- إن يوم الخميس هو اليوم الذى لا أعمل فيه - قال هوميرو.

- تمام - قال الرئيس - إذن يوم الخميس فى السابعة مساء سوف أكون فى منزلك، وسوف يكون هذا مصدر سعادتى.

- سوف أمر لآخذك يا سيدى - قال هوميرو - العنوان هو فندق "دام" ١٤ شارع إندوستريا - خلف المحطة - هل هذا صحيح؟

- نعم - قال الرئيس ونهض وهو يشعر بمرض عن أى وقت مضى - على ما يبدو تعرف كل شىء حتى مقاس حذائى.

- نعم يا سيدى - قال هوميرو بمرح - المقاس هو ٤١

* * *

إن ما لم يقم هوميرو ربى بسرده على الرئيس، لكنه ظل يقصه طوال أعوام طويلة لكل من أراد أن يستمع إليه هو أن هدفه الأول لم يكن بريئًا للغاية، فهو مثل غيره من سائقى سيارات الإسعاف له اتصالاته مع شركات التجهيزات الجنائزية وشركات

التأمين لبيع بعض الخدمات داخل المستشفى وخاصة بالنسبة للمرضى الأجانب من ذوى الموارد الضئيلة. كانت مبالغ ضئيلة وفوق ذلك كان عليه أن يقوم بتوزيعها بين بعض الموظفين وخاصة هؤلاء الذين يتولون التقارير السرية بشأن المرضى من ذوى الحالات الحرجة. لكنه مبلغ يعتبر عزاء لطريد لا مستقبل له ويحاول العيش ما أمكنه هو وزوجته وطفليه بمرتب بسيط جداً.

كانت لاثارا دافيس - زوجته - أكثر واقعية إذ كانت مولدة من سان خوان فى بويرتوريكو. قصيرة وممتلئة لون بشرتها مثل لون الكرملة فى حالة ترسب. لها عينا كلبة جريئة، كانتا تتسقان اتساقًا طيبًا مع طبيعتها. تعرفت على زوجها فى قسم خدمة المرضى المعوزين فى المستشفى حيث كانت تعمل كمساعدة فى الشئون العامة وذلك بعد أن أتى بها أحد أصحاب الأموال من بلادها للعمل كمربية وبعد ذلك تركها رهن الظروف فى جنيف، تزوجا على الطريقة الكاثوليكية، ورغم أنها كانت أميرة فى بلدها كانا يعيشان فى منزل مكون من صالة وحجرتى نوم فى الطابق الثامن وهو مبنى مخصص للمهاجرين الأفارقة ليس به مصعد، لها ابنة تبلغ التاسعة من العمر اسمها باربارا وطفل فى السابعة يدعى "لاثارو، تظهر عليه الأعراض الطفيفة للتخلف العقلى.

لاثارا دافيس امرأة ذكية، سيئة الطبع لكنها ذات قلب طيب. كانت تعتبر نفسها المثال الصادق لمواليد برج الثور. إيمانها

مطلق بالتنبؤات. ومع ذلك لم تحقق حلمها بكسب لقمة العيش من خلال عملها كقارئة للطالع لأصحاب الملايين، ورغم هذا تسهم فى ميزانية المنزل ببعض الأموال التى تأتيها عرضًا، وأحيانًا ما تكون مبالغ جيدة. كان ذلك من خلال إعدادها موائد العشاء لبعض السيدات الغنيات اللائى يتباهين أمام المدعوين متظاهرات بأنهن أعددن هذه الأطباق الخاصة بمنطقة الكاريبى، أما هوميرو فهو إنسان خجول للغاية ولم يستطع أن يفعل أكثر مما يقدمه، إلا أن زوجته لم تتصور الحياة بدونه، وذلك لطهارة قلبه وذكورته - سارت أحوالهما فى البداية بشكل جيد، لكن بدأت تسوء الأمور شيئًا فشيئًا بينما الأطفال فى نمو مستمر. وبالتالى فإن هوميرو عندما اكتشف وجود الرئيس بين المرضى المهمين فى المستشفى أخذت تحدوه آمال تتجاوز المعقول.

لم يتأكدا تمامًا مما سيطلبانه منه، وبأى حق سيفعلان ذلك. فكرا فى البداية أن يبيعا له إتمام إجراءات الجنازة بالكامل بما فى ذلك التحنيط وإعادة الجثة إلى الوطن. لكنهما أخذا يعيان شيئًا فشيئًا بأن الموت لا يبدو وشيكًا مثلما تصورا فى البداية. كان الشك يأكلهما من الداخل يوم تناول طعام الغداء.

الحقيقة أن هوميرو لم يكن أبدًا زعيمًا للألوية الجامعية، أو أى شىء من هذا القبيل، وفى المرة الوحيدة التى شارك فيها فى الحملة الانتخابية كانت لحظة التقاط الصورة، التى عثر عليها فيما يشبه المعجزة وسط الملابس. والشىء الحقيقى الوحيد كان حماسه

لدرجة أجبر معها على الفرار من البلاد لمشاركته فى المقاومة الجماهيرية للانقلاب العسكرى، إلا أن السبب الوحيد الذى جعله يواصل العيش فى جنيف بعد مرور أعوام طويلة هو فقره الروحى. وعلى ذلك فإذا ما كذب كذبة أخرى لن تتغير الأمور، فالهدف هو الفوز بكرم الرئيس.

كانت أول مفاجأة لكليهما هو أن الطريد الشهير يعيش فى فندق من الدرجة الرابعة فى الحى الفقير "لاجروت" محاطًا بالمهاجرين الآسيويين وفتيات الليل. وكان يأكل وحده فى مطاعم الفقراء فى الوقت الذى نجد فيه جنيف مليئة بالمساكن الفخمة التى تليق بالسياسيين المتقاعدين. شاهده هوميرو وهو يكرر ما فعله ذلك اليوم خلال الأيام السابقة. فقد رافقه ببصره وأحيانًا ما كان قريبًا منه بدرجة تزيد عن التصرف الحكيم سواء فى نزهاته الليلية بين الحيطان الكئيبة وأصص النباتات الصفراء اللون فى المدينة العتيقة. رآه وهو مستغرق فى التفكير أمام تمثال "كالفينو"، وصعد خلفه، خطوة بخطوة، ذلك السلم الحجرى الذى تملؤه رائحة الياسمين الخانقة، وذلك ليتأمل لحظات الغروب البطيئة من على قمة "بورج لوفور" رآه ذات ليلة وهو تحت أول قطرات المطر دون معطف وشمسية تقيه ضمن طابور من الطلاب ليشاهد حفلاً موسيقيًا "لروبنتين" "لست أدرى كيف لم يصب بالبرد" قال هذه العبارة لزوجته. وعندما بدأت أحوال الطقس تتغير يوم

السبت الماضى رآه وهو يشترى معطفًا له رقبة من جلد "الفيزون" الصناعى ولم يشتر المعطف من المحلات ذات فترينات العرض الكائنة فى شارع/ رون حيث المكان المعتاد الذى يقوم الأمراء الهاربون بشراء احتياجاتهم منه، بل اشتراه من "سوق لاس بولجاس".

-إذن ليس هناك ما يمكن عمله - قالت لاثارا متعجبة عندما قص عليها هوميرو ذلك - إنه بخيل بخلاً رهيبًا وهو قادر على قبول دفنه فى مقبرة خيرية جماعية. ولن نخرج منه بشىء.

- ربما كان فقيراً بالفعل - قال هوميرو - بعد أن قضى أعوامًا طويلة دون عمل.

- آه، أيها الأسود، هناك فرق بين أن تكون من برج الحوت الأصيل وبين أن تكون جبانًا - قالت لاثارا - فكل الناس يعرفون أنه استولى على ذهب الحكومة وأنه الطريد الأكثر غنى فى مارتينيكا.

كان هوميرو الذى يكبر زوجته بعشرة أعوام قد ترعرع وهو يعيش تحت تأثير المقولة التى تتحدث عن أن الرئيس درس فى جنيف وكان أثناء الدراسة عامل بناء، أما لاثارا فقد تربت على الفضائح التى تنشرها الصحافة المعادية والتى تضخم منها الحوارات فى منازل الأسر التى تنتهج سياسة معادية له. وكانت على هذا

الحال منذ نعومة أظافرها، تقوم بتربية الأطفال، لذلك فإن هوميرو عندما جاء متهللاً لتناول طعام الغداء مع الرئيس لم تقتنع زوجته بأنه تناول الغداء فى مطعم مرتفع المستوى. فقد ضايقها أن هوميرو لم يطلب من الرئيس شيئًا مما كان يحلم هو به مثل الحصول على منحة دراسية لولديه، أو الحصول على وظيفة أفضل فى المستشفى. وبدا فى نظرها أن ما حدث إنما يؤكد شكوكها فى أن الرئيس يفضل أن يلقوا بجثته إلى النسور بدلاً من إنفاق الفرنكات على إجراءات جنائزية لائقة وعودة كريمة إلى أرض الوطن. وما زاد الطين بله هو الخبر الذى فضل هوميرو أن يطرقه فى النهاية والمتمثل فى دعوته للرئيس لتناول الأرز بالجمبرى مساء الخميس فى المنزل.

- هذا ما كان ينقصنا- صاحت لاثارا - وهو أن يموت هنا بالتسمم من جراء تناوله الجمبرى المحفوظ ويكون من المحتم علينا أن ندفنه وندفع فى سبيل هذا مدخرات الأطفال.

كان وفاؤها كزوجة هو العنصر الأساسى الذى حسم الموقف، فقد طلبت من إحدى جاراتها ثلاثة أطقم مائدة من المعدن المطلى، وطبقًا للسلطة مصنوعًا من الزجاج. وطلبت من جارة أخرى ماكينة القهوة الكهربائية، ومن ثالثة مفرشًا مطرزاً وطقم صينى لتناول القهوة، كما قامت بتغيير الستائر القديمة ووضعت الجديدة مكانها، وانتزعت الكسوة من على قطع

الأثاث، وأمضت يومًا كاملاً وهى تنظف البلاد وتزيل الأتربة وتغير أماكن محتويات المنزل، ووصل بها الأمر إلى نتائج عكسية إذ كان من الأولى بها إثارة استعطاف الضيف بديكور الفقر.

وفى مساء الخميس صعد الرئيس الأدوار الثمانية، وبعد أن استرد أنفاسه توجه إلى الباب وهو يرتدى المعطف الجديد القديم والقبعة ذات اللون المائل للخضرة التى تنسب إلى أزمنة مضت، يحمل فى يده زهرة واحدة ليقدمها إلى لاثارا. تأثرت هى كثيراً بوسامته كرجل وتصرفاته كأمير، أضف إلى ما سبق أنها رأته على نفس الحال الذى تصورته، أى مزيفًا وانتهازيًا. بدا لها قليل الحياء، فقد كانت تطهو الطعام فى المطبخ والنوافذ مفتوحة حتى لا يملأ بخار طهى الجمبرى جو المنزل، وكان أول شىء فعله عند الدخول هو أن أخذ شهيقًا عميقًا وكأنه فى حالة انتعاش مفاجئة وصاح متعجبًا وهو مغمض العينين ويفرد ذراعيه: "آه، إنها رائحة بحرنا" بدا لها أكثر بخلاً مما تصورت ذلك أنه أتى لها بوردة واحدة سرقها - بلا شك - من الحدائق العامة. وبدا لها أنه سليط وذلك لنظرته التى تحمل معنى الاحتقار لقصاصات الصحف التى تتحدث عن مآثره عندما كان رئيسًا وكذا رموز وأعلام الحملة الانتخابية التى قام هوميرو بتثبيتها على حوائط المنزل بروح تعكس طيبة القلب. بدا لها أنه غليظ القلب فهو لم يقم بتحية لاثارو أو أخته بربارا رغم أنهما قاما بشراء هدية له، كما أنه أثناء تناول

طعام العشاء تحدث فى موضـوعين لا يمكن لها تحملها: الكلاب والأطفال . كرهته، ورغم ذلك تغلبت عليها طبيعة أهل الكاريبى فى إظهـار الاحتـرام والود، وها هى قد لبـست الحذاء الأفـريقى المعتاد فى ليالى الفرح، كـما لبست الأساور والأطواق التى تحمل صور القديسين، ولـم تفـعل أو تتلفظ بكلمة واحدة تزيد عن الحد طوال العشـاء، كانت فى وضع لا تلام فيـه على شىء: تصرفت تصرفًا سليمًا.

والواقع أن طبق الأرز بالجـمـبـرى ليس من الأطبـاق التى تحسن إعـدادها، لكنها أعدته بكل مـا تملك من استعـداد، وكان طبقًـا جيـدًا جدًا، فلقـد تناول الرئيس أكثـر من طبق، وبالغ فى الإطراء على الطعـام وأعجبـته شـرائح الموز المقلية وكـذا سلاطة الأفوكاتو. إلا أنه لـم يتفق معها فى الحـديث عن الأيام الخوالى. تحملت لاثارا الاستماع لحديثه حتى حان موعد تقديم الحلو وذلك عندمـا دخل هوميـرو فى حـارة مسـدودة - دون أن يكون هناك مبرر- تتعلق بوجود الله.

- نعم أنا أؤمن باله - قال الرئيس - لكن هذا ليس له صلة بالبشر- فدائرة اهتمامه أكبر من ذلك.

-أنا أؤمن فقط بالفلك - قـالت لاثارا وحاولت جس نبض رد فعل الرئيس - فى أى يوم ولدت سيادتك؟

- الحادى عشر من شهر مارس.

- لابد أن يكون ذلك اليوم - قالت لاثارا بقفزة فيها انتصار وسألت بتؤدة- ألن يكون هناك تجاوز عندما يجلس اثنان من برج الحوت على نفس المائدة؟

ظل الرجال يتحدثون عن الله عندما دخلت المطبخ لتعد القهوة، قامت برفع أوانى الطعام وكانت شديدة الأمل فى أن تنتهى الليلة على خير، وعندما عادت إلى الصالة وهى تحمل القهوة سمعت عبارة نطق بها الرئيس جعلتها تشعر بالحيرة.

- لا يخالجك شك فى هذا يا صديقى العزيز: إن أسوء شيء كان يمكن أن تمر به بلادنا هو أن أكونُ أنا رئيسًا.

. رأى هوميرو لاثارا وهى على الباب تحمل فناجين الصينى وماكينة القهوة التى استعارتها من الجيران، فظن أنها على وشك السقوط لفقدانها التوازن. كما حدث فيها الرئيس أيضًا "لا تنظرى إلىّ بهذا الشكل يا سيدتى" قال العبارة بنغمة مرحة "إننى أتحدث من قلبى" ثم توجه إلى هوميرو قائلاً:

- الحمد لله أننى أدفع سعراً عاليًا لتهورى.

قامت لاثارا بصب القهوة وأطفأت اللمبة المضاءة فى وسط المائدة ذلك أنها كانت تشكل عائقًا بضوئها لمواصلة الحوار، فاكتست الصالة بضوء ضعيف حميم. ولأول مرة تبدى اهتمامها بالضيف الذى لم تغط خفة روحه على حزنه. فزاد فضول لاثارا

عندما انـتهى من تناول القـهوة وقلب الفنجـان فوق الطبق ليـقرأ طالعه.

قص الرئيس عليـها بعـد تناول العـشاء أنه اخـتار جـزيرة مارتينكا لتكون ملاذاً له وذلك لصداقته للشاعر/حاييم قيصر الذى نشر مؤخـراً "كراسة العودة إلى مسـقط الرأس" وساعده على أن يبدأ حياة جـديدة، ثم قام هو وزوجته باستخـدام ما بقى لهما من مال ورثته زوجته واشتريا منزلاً مـصنوعًا من الأخشاب الجيدة فى تلال "فورت دى فرانس" تغطى نوافـذه شباك معدنيـة وله شرفة تطل على البحر وقد امتلأت بالزهور البرية حيث كان النوم وسط صوت الحـشرات الليليـة والنسمـة المحملة برائحة الـعسل والرون المصنوع من قصب الـسكر الذى يبيعـه الجائلون نوعًا من المتـعة. وظل هناك هو وزوجته التى تكبره بأربعة عـشر عامًا والتى أخذت تعانى من المـرض منذ ولادتها الوحيـدة. وقد تحـصن ضد الزمن بقراءة شـغوفة ومتكررة للكـلاسيكيين من اللاتين باللغـة اللاتينية وكان على قناعـة بأن ما يفعلـه هو آخر مرحلة فى حـياته، وظل لأعوام طويلة يقـاوم الإغراءات فى القيام بمغامـرات يوحى له بها زملاؤه المهزومون.

- لكنـى لم أفض أى رسـالة - قـال - وذلك بعـد أن اكتـشفت أن أكثر الـرسائل استعـجالاً كانت لا تسـتحق ذلك فى الحقيـقة - بعد مرور أسـبوع وأنه بعد مرور شهـرين لم يعد ذلك الذى أرسلها يتذكر فحواها أو أنه حررها.

نظر إلى لاثارا وهى تشعل سيجارتها وسحبها بسرعة من بين أصابعها وأخذها ثم حبس الدخان فى حلقه. شعرت لاثارا بالمفاجأة فأخذت العلبة والكبريت لتشعل سيجارة أخرى، لكنه أعاد السيجارة المشتعلة إليها، "دخنى سيادتك بكل راحة، الأمر هو أننى لم أستطع المقاومة" قال لها، لكن سرعان ما أخرج الدخان من فمه فقد كان على وشك التعرض للكحة.

- لقد أقلعت عن هذه العادة منذ سنوات عديدة، لكنها لم تقلع عنى بالكامل - قال - فقد استطاعت هزيمتى فى بعض الأحيان، مثلما هو الحال الآن.

هاجمته الكحة مرتين. ها هو الألم قد عاد، نظر الرئيس فى ساعة الجيب وتناول القرصين ثم نظر إلى قاع الفنجان: لم تتغير الأمور، لكنه لم يشعر هذه المرة بالقشعريرة.

- هناك بعض من أنصارى تولوا الرئاسة من بعدى - قال.

- إنه "ساياغو" قال هوميرو.

- هو وغيره - قال الرئيس - وكلهم مثلى : قمنا باغتصاب شرف لا نستحقه بأن مارسنا مهنة ولم نكن ندرى ماذا نفعل فيها. فهناك البعض الذين يريدون السلطة لكن أغلبهم يبحثون عما هو أقل من ذلك وهو الوظيفة.

شعرت لاثارا بالغيظ.

- هل تعرف سيادتك ما يقولونه عنك؟ سألته.

شعر هوميرو بالحرج فتدخل

- إنها أكاذيب.

- هى أكاذيب وليست كذلك - قال الرئيس بهدوء سماوى

- فإذا ما كان الموضوع هو الرئيس فإن أسوأ شىء يمكن أن يتمثل فى اجتماع النقيضين: الكذب والصدق.

كان قد عاش فى مارتينيكا كل أيام المنفى ولم يكن له أى صلة بالعالم الخارجى إلا من خلال الصحيفة المحلية الرسمية، وأخذ يعيش من عائد مادى يحصل عليه من دروس بالأسبانية واللاتينية فى مدرسة رسمية، وكذلك من خلال الترجمات التى كان يكلفه بها حاييم قيصر.

الحر لا يحتمل فى أغسطس، يظل فى السرير حتى منتصف النهار وهو يقرأ تحت المروحة الكائنة فى غرفة النوم. أما زوجته فكانت تعنى بالعصافير التى كانت تربيها وهى طليقة. ورغم ذلك فعندما تشتد وطأة الحر تحمى نفسها باستخدام قبعة من القش ذات أجناب عريضة تزينها الفواكه الصناعية والزهور الحمراء. وعندما تنكسر موجة الحر كان من المناسب الترويح عن النفس بالجلوس فى الشرفة. كان يحملق دائمًا فى البحر حتى يغرق فى الظلام، أما هى فكانت على سريرها المعلق المصنوع من الخيزران وتضع على رأسها قبعة مهلهلة، كما تضع الإكسسوارات فى كل

أصابعها، وتتأمل السفن المارة "هذه السـفينة ذاهبة لترسو فى ميناء بويرتوسانـتو" كانت تقـول، "وهذه الأخرى لا تستطـيع مواصلة الإبحار لثـقل حمولتـها من الغيـنيين من أهالى "بويرتوسـانتو" تقـول: الأمر أن كل السـفن التى تعـبر كـانت، فى نظرها، من بلادها. أما هو فقد كان يتصنع عدم القدرة على الاستماع، ورغم ذلك اسـتطاعت أن تنسى وتكون فى وضع أفـضل منه إذ فقـدت ذاكرتها فى النهاية.

كانا على هذا الحـال حتى مغيب الشـمس ثم يدخلان الدار وقد أصابهـما الإعياء بسبب طنين النامـوس. وأثناء ليلة من ليالى شهر أغـسطس وبينما كان يقرأ الصـحيفة فى الشرفـة قفز الرئيس قفزة استغراب.

- عجبًا - قال - لقد واتتنى المنية فى استوريل.

فزعت زوجـته للنبأ وهى جالـسة تخفف عن نفسـها وطأة الحر. ورد النبأ فى ستة سطور على الصفحة الخامسة من الصحيفة التى تطبع على الناصية المجـاورة. كما كان ينشر فيـها ترجماته. وفـوق هذا كـان رئيس تحـريرها يتـردد عليـه لزيارته بين الحـين والآخر. والآن يقول النبأ أننى توفيت فى مدينة استوريل لشبونة، المكان الذى يرتاده الطاعنون فى السن فى أوروبا للاصطياف، كما أنه لم يزر هذا المكان وربما كان المكان الوحـيد فى العالم الذى لا

يرغب أن يموت فيه. وبالفعل توفيت الزوجة بعد عام من هذا التاريخ، وكانت فى أيامها الأخيرة تعيش حالة هوس تتمثل فى الابن الوحيد الذى كان قد شارك فى الإطاحة بوالده وقام شركاؤه بإطلاق النار عليه بعد ذلك.

تنهد الرئيس: "هكذا نحن ولا شىء يمكن أن يغيرنا" قال "إنها قارة مليئة بحثالة الدنيا كلها وليس فيها لحظة حب: إنهم أبناء الاختطاف والاغتصاب والمعاملة الدنيئة والخداع والأعداء مع الأعداء" ثم نظر إلى عينى لاثارا الأفريقيتين، حيث كانت تتفحصه بلا رحمة وحاول تهدئتها بوسائله وهو العجوز المحترف.

- إن كلمة المهجن تعنى خلط الدموع مع الدم الذى يجرى، فما الذى يمكن أن نأمله من هذا الكوكتيل الكريه؟

تركته لاثارا جامداً فى مكانه، وذلك بصمت القبور الذى أصبحت عليه. لكنها استطاعت أن تتحامل على نفسها قبل منتصف الليل بقليل وودعته بقبلة رسمية. عارض الرئيس أن يقوم هوميرو بمرافقته إلى الفندق، لكنه لم يحل دون مساعدته له فى الحصول على تاكسى. وعندما عاد هوميرو إلى المنزل وجد امرأته فى شدة الغيظ.

- إن هذا هو أفضل رئيس تمت الإطاحة به فى العالم - قالت - إنه ابن قحبة.

ورغم ما بذله هوميرو من جهد لتهدئتها ظلا الليل بطوله دون نوم، اعترفت لاثارا أنه واحد من أجمل الرجال الذين رأتهم ولديه قدرة هائلة على المغازلة وفحولة واضحة "إذا كان هذا هو ما عليه من الشيخوخة وسوء الأحوال فلابد وأنه أسد فى السرير" قالت لكنها كانت تظن أن هذه العطايا الإلهية لن يساء استخدامها بأن تكون غطاء مظهريًا.

لم تتحمل هوسه بأنه كان أسوأ رئيس لبلده - ولم تتحمل تظاهره بالورع، بل كانت على يقين بأنه يملك نصف ما على ظهر مارتينيكا. لم تتحمل أيضًا نفاقه فى تحقيره للسلطة، وكان واضحًا عندها أنه على استعداد للتضحية بكل شيء ليعود للرئاسة ولو للحظة، وذلك حتى يجعل أعداءه يلحسون التراب.

- كل هذا - اختتمت عبارتها - من أجل أن يرانا راكعين على قدميه.

- ما الذى يمكن أن يجنيه من وراء هذا؟ قال هوميرو.

- لا شيء - قالت - كل ما فى الأمر هو أن الدلال خصلة لا ترتوى أبدًا.

كان غيظها شديدًا لدرجة أن هوميرو لم يتحملها فى السرير معه، فذهب ليقضى ما تبقى من الليل على كنبة فى الصالة وهو يلتحف البطانية. نهضت لاثارا هى أيضًا عند الفجر، وكانت عارية تمامًا كما هى عادتها فى النوم عندما تكون فى المنزل.

أخذت تتحدث مع نفسها. وفى لحظة محت من ذاكرتها ومن ذاكرة الإنسانية كل ما يتعلق بذلك العشاء غير المرغوب فيه. فأعادت الأشياء المستعارة إلى جاراتها. وغيرت الستائر الجديدة وعادت لوضع القديمة، ووضعت قطع الأثاث فى مكانها حتى أصبح المنزل على حالة الفقر والبساطة - كما كان قبل الليلة السابقة، وأخيراً انتزعت القصاصات الصحفية والصور والمرايات والرموز الخاصة بالحملة الانتخابية البغيضة - وألقت بكل شىء فى سلة الزبالة - وهى تصيح:

- إلى الجحيم.

بعد أسبوع من دعوة العشاء وجد هوميرو الرئيس وهو ينتظره عند مدخل المستشفى رجاه أن يرافقه إلى الفندق. صعدا الأدوار الثلاثة حتى وصلا إلى فراغ عليه قبة تفصل المبنى عن السماء الملبدة، كما يمر من تحت هذه القبة حبل غسيل عليه بعض الملابس.

كان هناك أيضًا سرير كبير يشغل نصف المساحة الخالية، وكرسيًا بسيطًا وإبريقًا لغسل الأيدى، وحوضاً صغيراً متنقلاً لغسل الأرجل، وكذلك دولابًا متواضعًا به مرآة قديمة، لاحظ الرئيس ما على وجه هوميرو من انطباع.

- إنه نفس المكان الذى عشت فيه سنوات دراستى - قال هذه العبارة وكأنه يعتذر - وقد احتفظت به منذ "فورت دى فرانس".

أخرج شنطة من القطيفة وفرش على السرير آخر ما معه من موارد: عدة أساور ذهبية مطعمة بعضها بالأحجار الثمينة، وعقداً من اللؤلؤ بثلاث أفرع، وعقدان آخران من الذهب والأحجار الثمينة، وثلاثة سلاسل ذهبية معلق بها ميداليات تحمل صور القديسين، وزوج من الحلقان الذهبية المطعمة بالزمرد، وزوج آخر من الماس وثالث من الياقوت الأحمر، وقطعتان من القطع الأثرية وعلبة من المعادن الثمينة لحفظ خصلات الشعر، وإحدى عشرة قطعة حلى بها أنواع مختلفة من المعادن الثمينة. وكذا تاج من البرلنت لابد وأنه كان لملكة. وأخرج بعد ذلك عليه علبة أخرى بها ثلاثة أزواج من الأزرار المصنوعة من الفضة وزوجين آخرين من الذهب ولكل واحد منها المشبك الخاص برابطة العنق، وساعة جيب مطلية بالذهب الأبيض. وأخيراً أخرج من صندوق للأحذية النياشين الستة التى حصل عليها: اثنين من الذهب وآخر من الفضة، أما الأخرى فهى من المعادن العادية.

- هذا كل ما تبقى لى فى هذه الحياة - قال.

لم يكن أمامه مخرج آخر إلا بيع كل ما يملك من أجل سداد مصاريف العلاج، وكان يريد أن يقوم هوميرو بهذه المهمة فى سرية مطلقة، ومع ذلك شعر هوميرو بعدم قدرته على المساعدة طالما أنه لا توجد لديه الفواتير الرسمية.

شرح له الرئيس أن هذه هى متعلقات زوجته التى ورثتها عن جدتها من العصر الاستعمارى، وهذه الأخيرة كانت قد ورثت مجموعة من الأسهم فى أحد مناجم الذهب فى كولومبيا. أما الساعة والأزرار والدبابيس الخاصة برابطة العنق فهى لى. ومن المعروف أن النياشين لم تكن لأحد قبله.

- لا أعتقد أن أحدًا يمكن أن تتوفر لديه فواتير بهذا الشكل - قال.

أصر هوميرو على موقفه.

- فى هذه الحالة - قال الرئيس بتمعن - لن يكون أمامى إلا مواجهة الموقف بنفسى.

أخذ يجمع قطع الحلى بهدوء محسوب " أرجوك أن تعذرنى يا صديقى هوميرو وذلك أنه ليس هناك فقر أسوأ من الفقر الذى عليه رئيس" . قال له "لدرجة أن محاولة التغلب على مصاعب الحياة تكتنفها التنازلات" ، وفى هذه اللحظة، رق له قلب هوميرو وأسلم له قياده.

عادت لاثارا متأخرة إلى المنزل ذلك المساء، ورأت الحلى وهى تعكس ضوء حجرة الطعام، وتغيرت ملامحها كأنها رأت عقربًا فى سريرها.

- لا تكن فظًا أيهـا الأسود - قـالت مفـزوعة - لماذا توجـد هذه الأشياء هنا؟

زاد كلام هوميرو وشرحه من قلقها، وجلست لتتأمل الحلى واحدة بعد الأخـرى وكأنها أحد خبـراء هذه المصنوعات، تنهدت فى لحظة "لابد وأن المقـابل مـبلغ ضـخم" ثم أخـذت تنظر إلى هوميرو بعد ذلك وهى لم تجد بعد مخرجًا لهذا الارتباك.

- يا للمصيبة - قالت - ما الذى يمكن أن يفعله المرء حتى يتأكد من أن كل ما يقوله هذا الرجل هو الحقيقة؟

- ولم لا؟ قال هوميـرو - لقد رأيته منذ وقت قـصير وهو يغسل ملابسه ويتركها لتجف فى الحجرة مثلما نفعل نحن بتعليقها على السلك.

- لأنه بخيل - قالت لاثارا.

- أو لأنه فقير - قال هوميرو.

عادت لاثارا لتـتفرج على الحلى، لكن بدرجة اهتـمام أقل ذلك أنها كانت تشـعر بالهزيمة. وعلى ذلك فصبـاح اليوم التالى ارتدت أفضل ما لديهـا من ثياب ووضعت الحلى التى بدت أغلى شيء فى نظرها ووضعت أكثـر من خاتم فى كل واحد من أصابع يديهـا بما فى ذلك الإبهـام، وكذلك بعض الأسـاور فى كل ذراع

وذهبت لتبـيع كل ذلك. "لنرى من الذى سيطلب من لاثارا ادفيس فـاتورة" قالت وهى خارجـة وقد غمـرتها ابتسـامة فيـها شموخ. اختارت محل الذهب المناسب، ظاهره الفخامة لكنه ليس شهـيراً، وكانت تعرف أن عـمليات البيع والشـراء تتم دون أسئلة كثيرة. دخلت المحل وهى تشعر بالفزع لكنها ثابتة الخطا.

قام أحد البائعـين الذين يرتدون الزى الخاص بالمحل بإيماءة مسرحـية مقبـلاً يدها. كان رجلاً نحيفًـا وشاحب اللون. ووضع نفسه فى خـدمتها. كان داخل المحل واضـحًا وضح النهار وذلك بفضل الفـترينات والأضـواء الكثيرة. بدا المحـل كأنه من الماس. واصلت لاثارا طريقـهـا إلا داخل المحل دون أن تنظر إلى الموظف خوفًا من أن يكشف هذه التمثيلية.

دعاها الموظف للجلوس أمام واحـد من المكاتب الثلاثة من طراز لويس الخامس عشر والتى تستخـدم كفترينات فردية. ثم قام بفرد منديل نظيف فوق المكتب وجلس فى مواجهة لاثارا وانتظر.

- ماذا يمكن أن أقدم لك يا سيدتى؟

أخذت تخلع الحلى من الخواتم والأسـاور والعقود والأقراط وكل ما كانت تضعه وتـضع كل ما تخلعه على المنضدة فى ترتيب كأنه قطع شـطرنج. إن الشىء الوحيد الذى أريـده - قالت - هو معرفة القيمة الحقيقية لكل هذا.

وضع بائع الحلى العدسة على عينه اليسرى وأخذ يفحص الحلى فى صمت كأنه فى عيادة. وبعد وقت ليس بالقصير، ودون أن تتوقف عملية الفحص سأل:

- من أين أنت يا سيدتى؟

لم تكن لاثارا تتوقع سؤالاً مثل هذا.

- آه يا سيدى - تنهدت - من مكان بعيد جداً.

- أتصور ذلك - قال.

عاد إلى صمته بينما تقوم لاثارا بتفحصه بعينيها الذهبيتين الحادتين بلا رحمة. أولى الجواهرجى اهتمامًا خاصة بالتاج الماسى ووضعه فى مكان خاص بعيداً عن باقى الحلى. تنهدت لاثارا.

- إنك يا سيدى من برج العذراء - قالت.

لم يتوقف الجواهرجى عن فحص القطع.

- وكيف تعرفين؟

من خلال كينونة المرء - قالت لاثارا.

لم يعلق بشىء حتى انتهى من عملية الفحص وتوجه إليها بنفس درجة الاحترام التى بدأ بها.

- ما هو مصدر كل هذا؟

- إنه ميراث من جدتى - قالت لاثارا بصوت متوتر - ماتت العام الماضى فى بارامايبو عن عمر يناهز السابعة والتسعين.

عندئذ نظر الجواهرجى فى عينيها "أنا شديد الأسف" قال لها "إن الشىء الوحيد الذى له قيمة فى كل هذا هو الوزن" وبعد ذلك أخذ التاج بأطراف أصابعه فأخذ يعكس الضوء الشديد المنبعث من المحل.

- ما عدا هذه القطعة - قال - إنها قديمة جداً - وربما كانت مصرية، وبالتالى قد لا يمكن تقدير ثمنها اللهم إلا بسبب الحالة السيئة التى عليها الماسات، على أى الأحوال لها قيمة تاريخية.

أما باقى الأحجار المرصعة بها قطع الحلى الأخرى، من الزمرد والجمشت والأوبال والياقوت إلى غيرها فكلها فالصو "ومما لا شك فيه أن القطع الأصلية كانت ممتازة" قال الجواهرجى وهو يجمع القطع لإعادتها إليها، لكن مع توالى الأجيال ذهبت القطع الأصلية وأخذت تحل محلها قطعًا زجاجية. شعرت لاثارا بالغثيان القوى فأخذت نفساً عميقاً وسيطرت على فزعها. أخذ البائع يهدئ من روعها.

- هذا يحدث كثيراً يا سيدتى.

- أعرف ذلك - قالت لاثارا وهى تشعر بعودة الهدوء إلى نفسها - ولهذا أريد التخلص منها.

عندئذ شعرت أنها تجاوزت حدود التمثيلية وأخذت تسترد سيطرتها على نفسها. وبدون المزيد من اللف والدوران فتحت شنطتها وأخرجت الأزرار والساعة الذهبية ومشابك رابطة العنق والقلادات الذهبية والفضية ووضعت كل شىء على المنضدة.

- وهذا أيضًا؟ سأل الجواهرجى؟

- كل شىء - قالت لاثارا.

كانت أوراق العملة من الفرنكات السويسرية جديدة لدرجة أنها خشيت أن تتسخ أصابعها من أحبار هذه الأوراق. أخذت النقود دون عدها، وودعها الجواهرجى حتى الباب بنفس الطريقة التى استقبلها بها. وعندما أصبحت على الباب وهو يمسك الضلفة الزجاجية ليفسح لها الطريق قال:

- هناك شىء آخر يا سيدتى - قال - أنا من برج الدلو.

عند حلول المساء ذهبت كل من لاثارا وهوميرو إلى الفندق ومعهما ثمن الحلى. وبعد القيام بعمليات حسابية كان قد تبقى مبلغ صغير للوفاء بالمصاريف، وعلى ذلك أخذ الرئيس ينتزع بعض الحلى التى يضعها ويلقى بها على السرير بادئًا بدبلة الزواج وساعة الجيب والدبوس الخاص بالكرافتات الذى كان يستخدمه.

أعادت إليه لاثارا الدبلة.

- ليس هذا - قالت لاثارا - فتذكار مثله لا يمكن بيعه.

قبل الرئيس ذلك، ووضع الدبلة، أعادت إليه لاثارا ساعة الجيب التى كان يضعها فى الصديرى "وهذا أيضًا" قالت - لم يكن الرئيس على اتفاق معها فى هذا لكنها وضعت له الساعة فى مكانها.

- من هو ذلك الذى يفكر فى بيع ساعات فى سويسرا؟

- لقد بعنا واحدة - قال الرئيس.

- نعم لكن ليس لأنها ساعة بل لما فيها من ذهب.

- هذه أيضًا ذهبية - قال الرئيس.

- نعم - قالت لاثارا - يمكن لك ألا تجرى العملية ولكن لا يمكن لك ألا تعرف كم الساعة.

ولم تقبل أن يبيع الشنبر الذهبى لنظارته رغم أنه كان لديه نظارة أخرى. وضعت القطع فى يدها كأنها تزنها ثم وضعت نهاية للشكوك.

- كما أن ما معى - قالت - يكفى للوفاء بالمبلغ المتبقى.

قبل أن تخرج قامت بأخذ الغسيل دون أن تأخذ رأيه وذهبت به لتجففه وتقوم بكيه فى المنزل. ركبا الدراجة البخارية.

كان هوميرو يقـوم بالقيادة أما هى فقد ركبت علـى الشبكة الخلفية وهى تحتضنه، ومنذ فـترة قصيرة أضـيئت الأنوار فى الشوارع فى ذلك المساء البنفسجى. كـانت الرياح قد قضت على آخر الأوراق الجافة وأضحت الأشـجار كأنها حجريات منتـوفة الريش، وكانت هناك شاحنة تمر من شـارع / رودانو وفيها مذياع مـرتفع الصوت أخذ يمـلأ الشوارع بالموسيقى. كـان المغنى هو "جورج براسنى" وتقول كلمات الأغنية بالفرنسية:

يا حبيبى اقبض على عصاك جيدًا، سوف يمضى الزمن من هناك، هذا الزمن البـربرى من هو من نوعـية أتيـلا، عندما يمـر حصانه لا يندفع الحب.

كان هومـيرو ولاثارا يجـريان فى صمـت وقد أسكرتهـما الأغنية ورائحة الزهور الحمراء، بعد هنيـهة بدت وكأنها استيقظت من حلم.

- يا للكارثة - قالت

- ماذا؟

- إنه العـجوز المسكين - قـالت لاثارا - يا لهـا من حيـاة تعسة!

* * *

ويوم الجمعة التالى الموافق السابع من أكتوبر أجريت للرئيس جراحة استمرت خمس ساعات، وكانت المحصلة أن كل شيء ظل على ما هو عليه سابقًا، وكان عزاؤه الوحيد هو أنه لا زال حيًا، وبعد مرور عشرة أيام نقلاه إلى غرفة مشتركة مع بعض المرضى الآخرين وأمكن لهما زيارته. كان إنسانًا آخر. فقد بعض إدراكه وبه هزال وأصبح شعره واهنًا لدرجة أنه كان يتساقط عندما يلامس المخدة. ولم يبق له من قدراته السابقة إلا مرونة الحركة فى يديه.

كانت حالته مثيرة للأسى عند أول محاولة للسير على عكازين صُمما لهذا الغرض. وكانت لاثارا تقضى الليل إلى جواره لتوفر عليه نفقات ممرضة ليلية. فى الليلة الأولى أخذ أحد المرضى فى الحجرة يئن بصوت عال طوال الليل خوفًا من الموت، وقد أدت الليالى التى لا تنتهى إلى ضرب المعاول فى مقاومة لاثارا.

خرج من المستشفى بعد أن قضى أربعة أشهر فى جنيف. قام هوميرو الذى كان يشرف إشرافاً دقيقاً على مدخراته الضئيلة، بسداد مصاريف المستشفى وحمله فى سيارة الإسعاف ومعه بعض الموظفين ليساعدوه فى الصعود به إلى الدور الثامن. وهيأوا له حجرة الأولاد اللذين لم يتعرف عليهما أبداً. وأخذ بعد ذلك يستعيد وعيه بالواقع المحيط. أخذ يهتم بتمرينات العلاج الطبيعى

متبعاً نظاماً صارماً حتى عاد للسير مستخدماً عكازاً واحداً فقط. ورغم أنه عاد لارتداء أفضل الملابس الخاصة به إلا أنه لم يعد أبداً إلى سابق عهده سواء فى الشكل العام أم فى الطباع. فقد أصبح شديد الخوف من الخريف الذى أخذ يعلن عن نفسه بقسوة، وكان أقسى خريف تمر به المدينة منذ بداية القرن. قرر العودة إلا بلاده على متن سفينة تبحر من مرسيليا يوم الثالث عشر من ديسمبر. كان القرار مخالفاً لنصائح الأطباء الذين رغبوا فى الإشراف عليه لمزيد من الوقت، لكن المال الذى معه لم يكف لكل هذا، فأرادت لاثارا أن تزيد المبلغ المتبقى بشىء آخر، ولو ضئيلاً، من المدخرات المخصصة للأبناء، غير أنها وجدت فى الحصالة أقل مما كانت تتوقع، وعندئذ اعترف لها هوميرو بأنه أخذ بعض النقود خلسة لاستكمال مصاريف المستشفى.

- حسن - قالت لاثارا مستسلمة - لنقل أنه كان الابن الأكبر.

فى الحادى عشر من ديسمبر ذهبوا به إلى المحطة ليأخذ القطار المتجه إلى مرسيليا، كانت هناك عاصفة ثلجية عاتية. عندما عادا إلى المنزل وجدا رسالة وداع موضوعة على الكومود الخاص بحجرة نوم الأطفال. ترك معها دبلة الخطوبة لباربارا ومعها دبلة زوجته التى توفيت، والتى لم يحاول بيعها أبداً؛ كذلك الساعة من أجل لاثارا. ولما كان يوم الأحد فإن بعض الجيران من

أبناء الكاريبى عرفوا بالسر وذهبوا إلى محطة القطار "كورنافين" وهم يحملون بعض الآلات الوترية من "بيراكروث" لم يكن الرئيس فى حالة معنوية جيدة. كان يرتدى المعطف غير المهندم وشالاً رفيعًا ملونًا يلفه حول رقبته أهدته إياه لاثارا. ورغم هذا ظل فى آخر. كان فى العربة الأخيرة يودعهم ملوحًا بالقبعة تحت ضربات العاصفة الثلجية. أخذت سرعة القطار فى الازدياد فى الوقت الذى أدرك فيه هوميرو بأن العصا لا زالت معه فجرى حتى آخر الرصيف وقذف بها بقوة حتى يلتقطها الرئيس وهى تطير فى الهواء. لكنها سقطت بين عجلات القطار وتحطمت. كانت لحظة رعب. كان آخر شىء رأته لاثارا هو اليد المرتعشة التى امتدت لتلتقط العكاز. ولم تستطع أبدًا نسيان تلك الصورة وكذلك صورة عامل القطار الذى استطاع أن يمسك العجوز بواسطة "التلفيحة" بعد أن غطاه الثلج وأنقذه من السقوط. جرت لاثارا، وقد أصابها الهول لما رأت، لتلحق بزوجها محاولة الابتسام بعد الدموع.

- يا إلهى - صاحت - هذا الرجل لا يموت من شىء.

وصل سليماً معافى وذلك طبقًا لتلغراف شكر مطول أرسله، وطوال أكثر من عام لم يعرف عنه شئ، بعد ذلك وصلت رسالة مكونة من ست صفحات مكتوبة بخط اليد، كان من المستحيل التعرف عليه، فقد عاودته الآلام بنفس القوة والشدة المعهودتين سابقًا، إلا أنه قرر ألا يوليهما أى اهتمام وأن يكرس

نفسه للحياة كيفما اتفق. وقام الشاعر حاييم قيصر بإهدائه عكازاً آخر مطعماً بالصدف، لكنه قرر ألا يستخدمه. أمضى ستة أشهر وهو يتناول اللحم بشكل منتظم كما كان يتناول بعض الرخويات البحرية وكان قادراً على تناول ما قد يصل إلى عشرين فنجان قهوة يوميًا، لكنه لم يعد يقرأ طالعه فى الفنجان، ذلك أن توقعاته تؤتى العكس تمامًا. ويوم أن بلغ الخامسة والسبعين من العمر، تناول عدة كئوس من رون مارتينيكا الممتاز كان لها تأثير طيب عليه. كما عاد للتدخين، لم يكن يشعر بتحسن، لكنه أيضًا لم يشعر بأن حالته تسوء. السبب الذى جعله يكتب هذه الرسالة هو إبلاغهما برغبته فى العودة إلى بلاده ليكون على رأس حركة تجديد فى سبيل قضية عادلة ووطن أهل للكفاح من أجله رغم أن ذلك قد يكون الدافع من ورائه هو الفخر التعس بأنه لم يمت فى سريره من الشيخوخة.

انتهت الرسالة مشيرة إلى الاتجاه الجديد، وكأن رحلته إلى جنيف كانت بمثابة النبوءة بما سيحدث.

ريح الشمال

(١٩٨٢)

رأيته مرة واحدة فى كباريه "بوكاكثيو" أحد الكباريهات الحديثة فى برشلونة. كان ذلك قبل ساعات من انتهاء حياته بشكل درامى. إذ كان يطارده بعض من الشبان السويديين فى محاولة منهم لإجباره على الذهاب معهم فى الثانية فجرًا لقضاء بقية السهرة فى "كاداكيس" كان عددهم أحد عشر فردًا من الصعب تمييزهم عن بعضهم ذلك أن الأولاد والبنات كانوا يشبهون بعضهم البعض، يتمتعون بالجمال والسيقان غير الغليظة والشعر الطويل الذهبى اللون. أما هو فعمره لا يزيد على عشرين سنة تقريبًا، شعره مجعد، وفى خصلات مرتفعة كأنها عرف الديك، أما بشرته فهى تميل إلى السمرة والنعومة التى عليها أهل الكاريبى الذى عودتهم أمهاتهم ألا يعرضوا أنفسهم للشمس. ونظرته هى تلك النظرة العربية التى تخلب لب السويديات وربما بعد السويديين أيضًا. جعلوه يجلس على طاولة البار وكأنه دمية من تلك التى يستخدمها الكوميديون وكأنها تتحدث، وأخذوا يغنون له الأغانى الشهيرة وهم يصحبون غناءهم بالتصفيق بالأيدى، وذلك حتى يذهب معهم. كان يشعر بالفزع وهو يشرح لهم الأسباب التى من أجلها يرفض الذهاب. تدخل أحد ما صائحًا

ومطالبًا بأن يتركوه لحاله، فما كان من أحد السويديين إلا الوقوف في وجهه وهو يموت ضحكاً.

- إنه لنا - صاح - لقد وجدناه في صفيحة الزبالة.

كنت قد دخلت قبل تلك اللحظة بقليل، وكان معي بعض الأصدقاء بعد أن حضرنا الحفل الموسيقي الأخير الذي قدمه /. دافيد أويستراك في قصر الموسيقي . Palau de la prusiواقشعر بدني مما عليه السويديون من عدم تصديق لما يقول. الأسباب التي يذكرها الفتى مقدسة عنده، فقد عاش في "كاداكيس" حتى الصيف الماضي، وهناك تعاقدوا معه ليغني أغاني الكاريبي في أحد الكانتينات من تلك التي على الموضة، واستمر في ذلك هزمته ريح الشمال، واستطاع الفرار في اليوم التالي وهو عازم ألا يعود إليها أبدًا سواء مع هذه الرياح أو بدونها، فقد كان على يقين من أنه لو عاد فإن الموت في انتظاره. كان ذلك يقينًا من ذلك النوع الذي عليه أهل الكاريبي، ومن المستحيل على "شلة" من أهل شمال أوروبا العقلانيين أن يستوعبوه وخاصة إذا ما كان مرح الصيف قد أخذ عقولهم وساعد في ذلك النبيذ القطلاني القوي والذي كان يبرز حبوبه المجنونة في القلوب.

إنني كنت أفهمه كما لم يفهمه أحد. "كاداكيس" هي واحدة من القرى الجميلة على شاطئ "كوستابرابا" ظلت تحافظ على نمطيتها وهذا يرجع - في جزء منه - إلى أن الطريق الموصل

إليهـا هو طريق الكورنيش الضيق والمتعـرج الذى يطل على هاوية بلا قرار لدرجة أن عـلى المرء أن يكون متماسكًا وقـوى الأعصاب وهو يقود بسـرعة خمـسين كيلومتـرًا فى الساعة. المنازل كـالعادة بيضاء وغـير مرتفعة وهذا شأن كل المنازل فى قـرى الصيادين فى حوض البحـر الأبيض المتوسط. أما البيوت الحـديثة فقد صممـها مهـندسون مـشهورون احـترمـوا فى تصمـيمـهم الانسجـام بين الوحدات القـديمة والحديثـة. وعندما تبـدأ تباشيـر الصيف وهى قادمة من الصحراء الأفريقية الموجودة على الشاطئ المقابل، كانت "كاداكيس" تتحول إلى "بابل الجحيم" إذ تغُص بالسياح القادمين من كافة أنحاء أوروبا، ويظل الحال على هذا النحو، فى مقاتلتهم لأهل البلدة من أجل جنتـهم وكذا مـقاتلة هؤلاء الأغـراب الذين استطاعـوا شراء منزل هناك مـقابل سعـر معقـول فى الزمن الذى مضى، أما أثناء الخريف والربيع كانت "كـاداكيس" أكثر جاذبية، حـيث الناس يفكرون وهم خائـفون فى ريح الشـمال الآتيـة من أراضى قـاسية لا تـرحم، وهى رياح طبقًـا لأهل البلدة، وبعض الكتاب الذين أصابهم مكروه منها، تحمل معها بذور الجنون.

منذ خمسـة عشر عاماً كنت أنا واحـدًا من الحريصين على زيارة البلدة حتى تدخلت ريح الشـمال فى حياتنا. ولقـد شعرت بها قبل أن تهب. كان ذلك يوم الأحد عند ساعة القيلولة. حيث واتانى هاجس غير مفهوم بأن شيـئًا سيحدث. إذ هبطت معنوياتى

وشعـرت بالحزن دون سبب واضح، وواتانى أيضًا الإحـساس بأن أبنائى - الذين كـانت أعـمارهم آنذاك تقـل عن عشـر سنوات - يسيـرون خلفى فى المنزل بنظرات عدائية. دخل البـواب بعد ذلك بقليل وهو يحمل صندوقـاً به بعض العدة وبعض الحبـال الخاصة بالملاحة البحرية لتأمين الأبواب والنـوافذ. لم تكن حالتى النفسية مفاجأة له.

- إنها ريح الشـمال - قـال لى - فستـهب بعد سـاعة من الآن.

كان قديماً يعمل فى البـحار، طاعناً فى السن، يحتفظ من مهنتـه القديمـة بالجاكـيت الواقى من المطر وطاقيـة البحـار وكذا "الغليون" وجلده الذى تجعـد من كثرة ملامسته للـمياه المالحة فى العالم. يسـتغل ساعـات الفراغ فى لعب الـ (Petanca الجلة) فى الميدان مع بعض من خـاضوا حروباً خـاسرة فى الماضى، ويتناول المشهيات مع السياح فى حانات الميدان إذ من سماته قدرته على أن يفهـمه الآخرون وهو يتحدث بقطلانيته المتفجرة مهما كانت اللغات التى يتكلمون بها. هو شديد التباهى بمعرفته كل موانئ الدنيا لكنه لا يعرف أى مدينة من المدن الداخلية " ولا حـتى باريس عاصمة فرنسا بكل ما لها" - يقول- فهـو لا يؤمن بأى وسيلة انتقال غير البحر.

ظهرت عـليه علامـات الشيـخوخـة فجأة خـلال السنوات الأخيرة ولم يعد يخرج للشـارع إذ أخذ يقضى معظم الوقت وهو

جالس فى الجحر المخصص للبواب، كان يعيش وحيد الروح، كعادته فى العيش دومًا. يطبخ طعامه فى علبة يضعها على موقد كحولى، وهذا كان يجعلنا نتذوق جميعًا أشهى ما فى المطبخ القوطى. يولى اهتمامه بالسكان مع شروق الشمس. هو رجل خدوم للغاية لم أعرف مثله أبدًا، وطيب طيبة لا إرادية، وبه الحنان الخشن للقطلانيين. قليلاً ما يتحدث، لكن أسلوبه مباشر وصادق، وعندما يتوفر لديه الوقت يقوم بملء المطبوعات الخاصة بمسابقات الكرة لكنه نادرًا ما يذهب لإيداعها بشكل رسمى.

وبينما يقوم فى ذلك اليوم بإحكام إغلاق الأبواب والشبابيك فى محاولة لاتقاء الكارثة تحدث معنا عن ريح الشمال وكأنها امرأة بغيضة، لكن حياته تفتقر لمضمون بدونها، والمفاجأة عندى تتمثل فى أن رجلاً من رجال البحر يعمل ألف حساب لرياح تهب من الداخل.

- الأمر هو أن الريح أقدم - قال.

كان يعطى الانطباع بأن العام الذى يعيشه لا ينقسم إلى أيام وأشهر بل ينقسم إلى عدد المرات التى هبت فيها ريح الشمال. "خلال العام الماضى، وبعد ثلاثة أيام من ريح الشمال الثانية، تعرضت لآلام" قال لى ذات مرة، وربما كان ذلك يفسر عقيدته القائلة بأن الإنسان تظهر عليه علامات الشيخوخة بعد كل هبوب لهذه الرياح وكأنه تقدم به العمر عدة سنوات، أدى هوسه بهذه

الرياح إلى إيقاظ رغبتنا الشديدة فى معرفتها فى زيارة قاتلة ولذيذة.

لم ننتظر طويلاً، فلم يكد يخرج البواب حتى سمع صفيراً أخذ يزداد حدة وقوة فى كل مرة، وتحول بعد ذلك إلى ما يشبه صوت هزة أرضية، وعندها بدأ هبوب الريح، أخذت فى البداية شكل نوبات متباعدة ثم زادت فى توالى إيقاعها حتى جاءت نوبة مستمرة بدون توقف أو سكون. كانت تتسم بالقوة والفظاعة لدرجة يحسب المرء معها أن بها شيئًا غير عادى. كانت شقتنا فى مواجهة الجبل، وهذا عكس المنزل الذى كان لنا فى الكاريبى، وربما يرجع هذا إلى المزاجية الغربية التى عليها القطلانيين الخلّص الذين يحبون البحر لكنهم لا يرونه. والخلاصة أن الرياح تضرب المنزل من الناحية الأمامية وتهدد بالقضاء على الاستحكامات المتخذة لجعل النوافذ مغلقة.

الشىء الذى لفت انتباهى هو أن الطقس ظل على حالة من الجمال الآخاذ إذ كانت الشمس ذهبية والسماء صافية. وعلى ذلك قررت الخروج إلى الشارع وبرفقتى الأطفال لنرى حالة البحر، ولا خشية فى ذلك فهم تربوا على زلازل المكسيك وأعاصير الكاريبى، وإذا ما كانت هناك رياح أقل أو أكثر شدة، فهذا فى نظرنا ليس مثيرًا للقلق. مررنا بجحر البواب ونحن على أطراف أصابعنا ورأيناه ثابتاً فى مكانه وأمامه طبق الفاصوليا والنقانق يتأمل الريح عبر النافذة. لم يرنا ونحن خارجين.

استطعنا السير فى حـماية جدران المنزل، لكن عندما وصلنا إلى الناصية المؤدية إلى البحر كـان علينا أن نحتضن بعضنا البعض وكأنـنا قطعة واحـدة حتى لا تجـرفنا الرياح بقوتهـا. ظللنا هكذا نتأمل بإعـجاب البـحر الساكـن الصافى وسط هذه الرياح العـاتية حتى جاء البـواب ومعه بعض الجيـران وأنقذونا. فى هذه اللحظة فقد أدركنا أن المسلك المنطقى السليم هو أن نظل فى المنزل إلى أن يشـاء الله. ولم يكـن لدى أحـد أى فكرة عن مـتى تحـدث هذه المشيئة.

بعد يومين كان لدينا انطبـاع بأن هذه الرياح العاتية لم تكن ظاهرة أرضية بل كانت نوعاً من العدوانيـة الشخصية ترتكب ضد فرد. كان البواب يزورنا عدة مرات فى اليوم وهو قلق على حالتنا المعنوية" ويأتى لنا بفـواكه من فـواكه الموسم، وكعكًـا للأطفال، وفى طعـام الغداء يوم الثـلاثاء أهدانا أفـضل شىء فى الأطعمـة القطلانية وهو طبق أعدته فى الـصحفية التى كان يطبخ فـيها: إنه طبق الأرانب بالكاراكول. كانت حفلة بهيجة وسط الرعب.

كان ذلك الأربعـاء هو أطول أيام حيـاتى. لم يحدث فـيه شىء إلا الرياح وهى تهب، لكنه ربما كان بمثابة الظلمة التى تسبق الفجـر الصادق. فبعـد منتصف الليل استـيقظنا جميـعًا فى لحظة واحدة وقـد هزنا صمت مطبق لـيس له مثيل إلا صـمت الموت. حتى أوراق الشجـر لم تكن تهتز واستـمتعنا بسمـاء الفجر بكل

نجومها المتلألئة، وكذا بالبحر الفوسفورى. ورغم أن الساعة كانت قبل الخامسة بقليل فقد كان الكثير من السياح يروّحون عن أنفسهم على أحجار الشاطئ وبدأوا فى إعادة تركيب قلاع المراكب بعد ثلاثة أيام من اللاحركة.

عندما خرجنا لم يجذب انتباهنا أن حجرة البواب مظلمة. لكن عندما عدنا إلى المنزل كان للهواء نفس الطابع الفوسفورى الذى عليه البحر ولا زال جحر البواب مظلمًا. استغربت وقرعت الباب مرتين، ولما لم يجب أحد دفعت الباب. أعتقد أن الأطفال رأوه قبلى وصاحوا صيحة فزع، كان البواب العجوز معلقًا من رقبته بحبل مربوط فى الدعامة الأفقية للسقف، وجثته لا زالت تتأرجح من جراء الزوبعة الأخيرة لتلك الريح. يرتدى كل ما عنده من ملابس البحارة ويعلق على ياقة الجاكتة كل ما حصل عليه من نياشين.

تركت القرية قبل الوقت المحدد ونحن فى أوج المتعة ونعيش حالة اشتياق مبكرة. وقد عزمنا على ألا نعود إليها أبدًا. كان السياح قد عادوا إلى الشارع مرة أخرى وملأت الموسيقى الميدان الذى يؤمه الطاعنون فى السن والذين لم تكن حالتهم المعنوية جيدة ليعاودوا ممارسة لعبتهم المفضلة. ومن خلال الزجاج المترب لبار "مارتيم" استطعنا أن نرى بعض الأصدقاء الذين ظلوا على قيد الحياة وقد بدأوا الحياة مرة أخرى فى الربيع الوضاء لرياح الشمال. لكن كل هذا أصبح جزءًا من الماضى.

لهذا السبب قضى الفجر الحزين فى كباريه "بوكاكثيو" ولم يستطع أحد أن يتفهم أكثر منى حالة الفزع التى يشعر بها إنسان ما وهو يعود إلا "كـاداكيس" ذلك أنه متأكـد من موته. ورغم ذلك لم تجد أية طريقة حتى يقلع السـويديون عن رغبتهم، وانتهى بهم الأمر بأن أخـذوا الفتى مـعهم بالـقوة بغيـة أن يعالجـوه من هذه الخزعبلات الأفريقية التى يؤمن بها. ووضعوه وهو يضرب بقدميه عـلامة على الرفض فى شـاحنة صغـيـرة مليئـة بالسكارى وسط تصـفيق وصـفـير الجـمهـور الذى انقـسم على نفـسه بين مـؤيد ومعارض، وبدأوا فى تلك اللحظة الرحلة الطويلة إلى كاداكيس.

أيقظنى جرس التليفون صبـاح اليوم التالى. كنت قد نسيت إغلاق السيارة عندما عدت من الحفلة ولم أكن أعرف كم الساعة، لكن حجرة النوم كان يملؤها ضوء الصيف. أيقظنى الصوت الذى يصلنى عبر التليفون وبه نبرات جزع ولم أستطع التعرف عليه.

- أتذكر ذلك الفتى الذى أخذوه معهم ليلاً إلى كاداكيس؟

لم أسمع أكثـر من هذا حتى أخمن ما حـدث له بل وأكثر دراميـة ما تصـورت. فزع هذا الفتى لأن العـودة وشيكة وانتـهز فرصـة تلهى فيـها هؤلاء السويديون المعـتوهون وألقى بنفـسه فى الهوة السحيـقة والشاحنة تسير، فى محـاولة منه للهرب من موت محقق.

الفهرس

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت . أحمد فؤاد بلبع
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	ت . شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت . أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت . محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت . سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت . يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت . محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١- مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥- الحركات الفنية	إدوارد لوسى سميث	ت . أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثينة السوداء	مارتن برنال	ت. بإشراف أحمد عتمان
١٧- مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت . ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت . نخبة
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت . أحمد فؤاد بلبع
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت . خليل كلفت

٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت . حياة جاسم محمد
٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	آلن تورين	ت أنور مغيث
٣٩- الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	آن سكستون	ت · محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنجامين باربر	ت · أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت المهدى أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت · مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت محمود السيد على
٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت · مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت ماهر جويجاتى
٤٩- الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت · محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت · لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت مرسى سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت · محسن مصيلحى
٥٥- ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت · على يوسف على
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت · محمود على مكى
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت · محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة	كارلوس مونييث	ت . السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت · صبرى محمد عبد الغنى
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف محمد الجوهرى
٦٢- لذّة النّص	رولان بارت	ت . محمد خير البقاعى .
٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	الان وود	ت . رمسيس عوض .
٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات	فرناندو بيسوا	ت . المهدى أخريف
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت . أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت حسين محمود

٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت · حسن بيومى
٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت · أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة . النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت · سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت . مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت · محمود السيد على
٨٣-	مختارات	غوتفريد بن	ت · خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم	جلال آل أحمد	ت . ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت . إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف	ميجل دى ثرباتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت . محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أســاليب ومـضــامين المســرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيدرستون وسكوت لاش	ت . عبد الوهاب علوب
٩٤-	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا مج ١	فرنان برودل	ت بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت · إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت · إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت . عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرار چينيت	ت . عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت . د. أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبـة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت محمود على مكى
١٠٩- حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت · منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت إكرام يوسف
١١٣- راية التمرد	سادى پلانت	ت · أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت · سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت · لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت . بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت · نخبة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت· أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب	چون جراى	ت أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت · سمحه الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت . عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب	صفاء فتحى	ت . بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت . أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت . محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا	طارق على	ت . طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت . أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت . ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت . سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت . كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت . أسامة إسبر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت · أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت · عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت . سلامة محمد سليمان

١٤٥– موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت · أحمد حسان
١٤٦– الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت علي عبدالرؤوف البمبي
١٤٧– خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت · عبدالغفار مكاوى
١٤٨– القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت . علي إبراهيم علي منوفي
١٤٩– النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت · أسامة إسبر
١٥٠– التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت · منيرة كروان
١٥١– هوية فرنسا مج ٢ ، ج١	فرنان برودل	ت بشير السباعى
١٥٢– عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت · محمد محمد الخطابى
١٥٣– غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت . فاطمة عبدالله محمود
١٥٤– مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥– الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت · أحمد مرسى
١٥٦– المدارس الجمالية الكبرى	جى انبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مي التلمساني
١٥٧– خسرو وشيرين	النظامي الكنجوى	ت · عبدالعزيز بقوش
١٥٨– هوية فرنسا مج ٢ ، ج٢	فرنان برودل	ت · بشير السباعى
١٥٩– الإيديولوچية	ديڤيد هوكس	ت. إبراهيم فتحى
١٦٠– آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت حسين بيومى
١٦١– من المسرح الإسباني	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت. زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢– تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣– موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت· مجموعة من المترجمين
١٦٤– شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت. نبيل سعد
١٦٥– حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت. سهير المصادفة
١٦٦– العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت· محمد محمود أبو غدير
١٦٧– فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت: شكرى محمد عياد
١٦٨– دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت شكرى محمد عياد
١٦٩– إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت: شكرى محمد عياد
١٧٠– الطريق	ميغيل دليبيس	ت: بسام ياسين رشيد
١٧١– وضع حد	فرانك بيجو	ت. هدى حسين
١٧٢– حجر الشمس	مختارات	ت: محمد محمد الخطابى
١٧٣– معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت.إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤– صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت: أحمد محمود
١٧٥– التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦– نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت. جلال البنا
١٧٧– أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت. حصة إبراهيم المنيف
١٧٨– مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	ت: محمد حمدى إبراهيم
١٧٩– حكايات أيسوب	أيسوب	ت. إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠– قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت. سليم عبد الأمير حمدان
١٨١– النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	ت محمد يحيى
١٨٢– العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ت· ياسين طه حافظ
١٨٣– چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت· فتحى العشرى

١٨٤– القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت دسوقي سعيد
١٨٥– أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت عبد الوهاب علوب
١٨٦– معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧– الأرضة	بُزْرج علوى	ت:علاء منصور
١٨٨– موت الادب	الفين كرنان	ت:بدر الديب
١٨٩– العمى والبصيرة	پول دى مان	ت:سعيد الغانمى
١٩٠– محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت:محسن سيد فرجانى
١٩١– الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت مصطفى حجازى السيد
١٩٢– سياحت نامه إبراهيم بيك جـ١	زين العابدين المراغى	ت:محمود سلامة علاوى
١٩٣– عامل المنجم	بيتز أبزاهامز	ت:محمد عبد الواحد محمد
١٩٤– مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥– شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت:محمد علاء الدين منصور
١٩٦– المهلة الأخيرة	فالنتين راسوبتين	ت:أشرف الصباغ
١٩٧– الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت جلال السعيد الحفناوى
١٩٨– الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	ت:ابراهيم سلامة ابراهيم
١٩٩– تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت جمال احمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠– ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت. فخرى لبيب
٢٠١– الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت أحمد الأنصارى
٢٠٢– تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت. مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣– الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤– تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت: أحمد محمود هويدى
٢٠٥– الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى– سفورزا	ت. أحمد مستجير
٢٠٦– الهيولية تصنع علما جديدا	جيمس جلايك	ت. على يوسف على
٢٠٧– ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨– شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت. محمد أحمد صالح
٢٠٩– السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت. أشرف الصباغ
٢١٠– مثنويات حكيم سنائى	سنائي الغزنوى	ت. يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١– فرديناند دوسوسير	جوناثان كللر	ت محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢– قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣– مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت. سيد أحمد على الناصرى
٢١٤– قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥– سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦– جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت. أشرف الصباغ
٢١٧– عولمة السياسة العالمية	جون بايلس و ستيف سميث	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨– رايولا	خوليو كورتازان	ت. على إبراهيم على منوفى
٢١٩– بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠– الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت. على يوسف على
٢٢١– شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت رفعت سلام

٢٢٢– فرانز كافكا	رونالد جراى	ت: نسيم مجلى
٢٢٣– العلم فى مجتمع حر	بول فيرابند	ت. السيد محمد نفادى
٢٢٤– دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت منى عبدالظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥– حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦– أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت طاهر محمد على البربرى
٢٢٧– المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماردينا ديف بوركى	ت السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨– علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩– مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠– عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١– الدراقيل	خايمى سالوم بيدال	ت جمال أحمد عبدالرحمن
٢٣٢– ما بعد المعلومات	توم ستينر	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣– فكرة الاضمحلال	ارثر هومان	ت طلعت الشايب
٢٣٤– الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت فؤاد محمد عكود
٢٣٥– ديوان شمس التبريزى	جلال الدين مولوى رومى	ت. إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦– الولاية	ميشيل تود	ت: أحمد الطيب
٢٣٧– مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت: عنايات حسين طلعت
٢٣٨– العولمة والتحرير	الانكتاد	ت ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩– العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز – رايوخ	ت نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠– الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت صلاح عبدالعزيز محمود
٢٤١– فى انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ت ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢– سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت: صبرى محمد حسن عبدالنبى
٢٤٣– تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت: على عبدالرؤوف البمبى
٢٤٤– الغليان	لاورا إسكيبيل	ت. نادية جمال الدين محمد
٢٤٥– نساء مقاتلات	إليزابيتا اديس	ت توفيق على منصور
٢٤٦– قصص مختارة	جابرييل جارثيا ماركث	ت. على إبراهيم على منوفى

تضم هذه المختارات اثنتي عشرة قصة قصيرة ثلاث منها تنسب للمجموعة الأولى . «عينا كلب أزرق» و «الإذعان الثالث» و «ليلة طيور الكروان» ، وثلاث أخرى تنسب إلى المجموعة القصصية الثانية وهي : «قيلولة الثلاثاء» التي يعتبرها ماركيث أفضل قصصه القصيرة على الإطلاق ، و «الأمسية المدهشة التي قضاها بلتشار» و «جنازة الأم الكبرى» . أما المجموعة الثالثة فقد اخترنا منها قصتين : «الموت الدائم فيما وراء الحب» وقصة «الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب إيرينديرا وجدتها القاسية» . أما القصص الأربع الأخرى فقد جاءت من مجموعته القصصية «اثنتا عشرة قصة في ترحال» على اعتبار أنها جزء من نسيج فكّر فيه المؤلف بعناية ، وحاول أن تكون هناك بعض الروابط بين قصص المجموعة التي تدور حول رؤية جارثيا ماركيث – أو إن شئت الدقة الراوي – للثقافة الأوروبية واعتمادها الكامل على العقل .

هذه المختارات القصصية تعكس تناغمًا عجيبًا بين عناصر الواقع سواء الممكنة الحدوث أو المستعصية .. وتناغمًا عجيبًا فيه بساطة مثيرة بين تأثير الثقافة الإسبانية والأوروبية والثقافة المحلية وهضمها كلها وإخراج عمل ينطق بأصالة الإبداع الذي هو السر الأساسي – بالإضافة إلى عناصر أخرى – في تلك الشهرة التي طبقت الآفاق والتي استحقها عن جدارة ماركيث إلى جوار كتّاب آخرين من أبناء أمريكا اللاتينية .